سلسلة كتب الربيع (٣)

مقالات وتعليقات



تأليف :

الأستاذ/ عبدالعزيز الربيع

إعداد وتقديم :

محمد صالح البليهشي

٠٤١ رع م

CENTRAL

مقالات وتعليقات

بقلم الأستاذ

عبدالعزيز الربيع

جمع وإعداد

محمد صالح البليهشي

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

ح نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الربيع، عبدالعزيز

مقالات وتعليقات / جمع وإعداد: محمد صالح البليهشي - المدينة المنورة.

٣٨٦ص، ١٧×٢٤سم

ردمك : ٨ - ٣٥ - ٦١٨ - ٩٩٦٠

١- المقالات العربية - السعودية　　أ- البليهشي، محمد صالح (معد)

ب- العنوان

ديوي ٠٨١　　١٩/٣٠٦٨

رقم الإيداع : ١٩/٣٠٦٨

ردمك : ٨ - ٣٥ - ٦١٨ - ٩٩٦٠

رقم الكتاب

(١٢٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

تقديم

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم الذي أعجز ببلاغته العرب والعجم وعلى آله وأصحابه أولي النهى أرباب السيف والقلم وسلم تسليمًا كثيرًا ـ أما بعد:

فلقد انتظرت طويلًا لكي ألتقي معكم أيها القراء في مثل لقائي هذا الذي أحمل فيه راية وفاء ومنار كلمة.. لقاء أقدم فيه أثرًا وضيئًا لعملاق نقدره جميعًا ونُجلُّه ونقرُّ له بالأستاذية المطلقة في كافة جوانبها وجميع معانيها..

وقبل أن أُطلِعكم على ما لديّ من بضاعة هي في واقعها ليست بضاعتي وإنما هي بضاعته ـ يرحمه الله..

ليس لي فيها سوى نفض الغبار عنها وتنظيمها وترتيبها وجمعها وعرضها بأسلوب عرض أرجو أن أوفق فيه..

قبل أن أَنظِم أمامَكم حبّات هذه القلائد بما حوته من درر وجواهر ولآلئ ظلت مبعثرة زمنًا طويلًا ظن معه الظانّون أنها قد فقدت وضاءتها ونضارتها وشكك آخرون في وجودها أصلًا طيلة زمن البعثرة هذه..

قبل أن تطلعوا على هذه القلائد التي نظمت حباتها بمعرفتي المحدودة أرجو أن تسمحوا لي بتذكير من نسي وتعريف من لم يعرف بمن شَرُفْتُ بِجَمْع دُرره وتقديمها اليوم لدنيا الثقافة والأدب من خلال تعريفه بنفسه في عبارات مقتضبة وأسلوب مؤدب وجمل رصينة مختارة حيث قال ـ يرحمه الله:

«ولدت في هذه البلدة الطيبة. حيث ولد الكثيرون ممن آمنوا برسالة الحق والخير والسلام. وحملوا رايتها المظفرة إلى أقطار الدنيا ونشأت مع لداتي في الجيل الذي سبق هذا الجيل مباشرة.. فنحن في الواقع مخضرمون. نحمل في دمائنا ميراث الجيلين معًا. جيل مطلع الخمسينيات. والجيل الذي يليه.

وكادت الظروف تضطرني إلى عدم مواصلة الدراسة. والإخلاد إلى عمل روتيني يضمن لي لقمة العيش بسلام. ولكنني كنت أشعر في أعماقي بحوافز تدفعني إلى متابعة كفاحي في سبيل الحياة الأفضل والمستقبل الأرحب.. الأوسع. حيث أشعر بأنني أعيش بكل مواهبي وإمكاناتي. وبكل القوى التي وهبتها لي يد القدرة المبدعة.

وواصلت تعليمي العالي. وكنت من الجامعيين القلائل. الذين جمعوا في ذلك العهد بين ليسانس آداب من جامعة القاهرة ودبلوم التربية العالي وعلم النفس من جامعة الإسكندرية.

إنها حقائق تعمدت أن أصوغها بهذا الأسلوب. رغم عزوفي عن الحديث عن نفسي. ومقتي لهذا اللون من الأسلوب في الحديث عن النفس.. لأنني أحببت أن يكون في قصة حياتي رغم تواضعها ما يثير نوازع الطموح ومشاعر الإيمان بالله ثم بالمستقبل في نفوس ناشئتنا الجديدة.

وبدأت حياتي الوظيفية بعد ذلك مفتشًا بإدارة التعليم بضع سنين. قبل أن تسند إليَّ مديرية التعليم.. فالطريق كما تعرفون. كانت صعبة عند بدايتها.. ولكنها بعد أن تَسلَّحتُ بسلاح العلم. وتزودتُ بزاد المعرفة والثقافة. أصبَحَتْ مُعبَّدة.. مُذَللة.. تكتنفها الواحات وتتناثر حولها الخمائل» أ.هـ.

بهذه الجمل الرصينة نستطيع أن نرسم الملامح لعملاقنا في جوانب النشأة والحياة الأولى ولنترك الجانب التربوي من حياته - لأنه ليس هذا مجاله -

ونعرف به في جانب الثقافة والإبداع الأدبي ولنبدأ معه مع بداية الكتابة والشعر حيث بدأ حياته الأدبية وهو طالب بالمرحلة الابتدائية متأثرًا بالأديبين الكبيرين مصطفى صادق الرافعي وأحمد حسن الزيات، وكانت مؤلفاتهما ومقالاتهما من أول ما وقع تحت يده من الآثار الأدبية القيمة - كما يقول - ولكن ذلك التأثر لم يدم طويلًا فقد استطاع في وقت مبكر أن يفتح كل النوافذ ويستقبل كل التيارات..

وقد كان - يرحمه الله - يدين بالفضل في ثقافته وإبداعه لوالده ويقول بأنه رجل محب للعلم وقد ظل إلى آخر عمره يتعلم ويقرأ مما أثّر في حياته تأثيرًا بالغًا وتعلّم منه الصبر وحب العلم وحَفِظ القرآن في سن مبكرة. كما تأثر بشخصية أستاذه ومعلمه فضيلة الشيخ محمد الحافظ الذي تولى رعايته منذ طفولته في مدرسة العلوم الشرعية ويذكر بأنه وجّهه توجيهًا صحيحًا وفتح له قلبه ومكتبته وأعجب كثيرًا لسماحته ونبله وحرصه ورجاحة عقله وقال عن أستاذه الشيخ الحافظ بأنه «أنموذج الرجل المثالي.. وقد أثر في نفسه تأثيرًا بالغًا لا ينسى وله فضل عليه لن ينساه».

أما شخصيات التاريخ فيذكر بأنه قد تأثر بشخصية الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الحاكم العادل القوي المثقف الإنسان وتأثر بشخصية أبي الطيب المتنبي الذي وقف في عالم يموج بالعجمة والشعوبية يدعو إلى العروبة ويخاصم من أجلها ويصور مفاخر العرب دون خوف حتى آخر رمق في حياته.

كما تأثر بشخصية مصطفى صادق الرافعي الذي كتب وحده فصلًا قيمًا في التاريخ الأدبي دون أن يعتمد على مؤهل دراسي أو شهادة جامعية ووقف وحده يقاوم الإلحاد والتحلل والشعوبية.

هذه ملامح البدايات الأولى والمكونات الأساسية لشخصية أستاذنا - عليه رحمة الله - مما كان له الأثر الكبير في وضوح أسلوبه وسلامة عبارته وتسلسل منطقه في مجالات البحث والإبداع والنقد.

وقد اتجه في كتاباته الأخيرة إلى النقد الأدبي وهو النقد الجاد الذي يهزّ حياة الناقد قبل أن يهزَّ الحياة الأدبية نفسها - كما يقول - لأن الناقد الجاد مضطر إلى أن يقرأ مع الأثر المنقود - وربما قبله - عشرات من الكتب.. وهذا ما لا يتاح لغيره من الكتّاب والأدباء.

وعرف عنه تَضَلُّعه في مجال النقد الأدبي بنزاهة وصدق يميل دائمًا إلى المذهب التكاملي في النقد وهو المذهب الذي يستقطب كل الاتجاهات والزوايا الفنية.. ويعطي الأثر الأدبي نكهته ولونه وملامحه العامة.

وبعد كل هذا القول الذي أردت منه أن أُذكِّر من نسي وَأُعْلِم من جهل بالملامح العامة لشخصية الأستاذ والمربي والأديب والناقد الأدبي عبدالعزيز الربيع.

أعود مرة أخرى لأقول بأن أديبنا وأستاذنا الذي أتيح لي وشرفت بأن أنظم قلائد عقوده هذه بما حوته وعثرت عليه من جواهر ولؤلؤ ودرر فكره وثقافته لأعرضها لمحبي الأدب وعشاق المعرفة وكُتَّاب الحرف وأنا فخور بجمع تراث أديب ناقد عاش عمره للثقافة والأدب والفكر وضحى بوقته وجهده من أجل العلم والمعرفة، وعاجلته المنية قبل أن يسعد بطبع إنتاجه وإظهاره للناس.. ولعلِّي بهذا أضيف جديداً إلى دنيا الثقافة والمعرفة.. لأن هذا التراث الأدبي والثقافي إذا لم تختزنه بطون الكتب لإفادة الأجيال اللاحقة سيكون مصيره الضياع وفي ذلك خسارة فادحة وجحود ونكران للجميل.

وكم خَسـرَت دنيا الثقافة على مر التاريخ الإنساني بضياع وإهمال حصيلة كثير من العلماء والأدباء والمفكرين.

وأعود مرة أخرى إلى هذا السِّفر الذي جمعتُ مادَّته من هنا وهناك وتعبتُ كثيرًا من أجل تحقيق هذا الأثر الذي أقدمه كتابًا بعنوان «مقالات وتعليقات» يضم بين دفتيه آراء شتّى تصب في معين القيم السامية وتمجيد الفضيلة وتحقيق التراث والإعجاب بأمجاد العروبة في ظل تعاليم الإسلام الخالدة.. كما يضع المعالم لإبراز المزايا ودحض العيوب والنقائض مفنداً مزاعم المضللين أو الكاذبين والمخادعين لشباب أممهم وأوطانهم ومبيناً إعجابه وإشادته بكل المكافحين والمناضلين عن العربية الذين كانت لهم وقفات صامدة خلدها التاريخ وتغنى بها شداة الأدب وعشاق الحرف.

وقد يقول قائل: إن بعض الموضوعات التي «أقحمتُها» في الكتاب ليس هذا مكانها..

وأجيبه: بأن جميع ما اندرج بين دفَّتي هذا الكتاب «وقد يُظَن بأنه ليس منه» يدخل تحت مسماه كما أنه لا يخلو من هوامش نقد رصينة لها مكانتها في باب النقد والتقويم ولها نكهتها الخاصة ورائحتها المميزة في مسار الأدب أو في دنيا الأخلاق.

ثم إن العنوان نفسه «مقالات.. وتعليقات» كان من اختياره - يرحمه الله - وقد ذكر هذا في العديد من المقابلات الصحفية واللقاءات الأدبية.. ولذلك قمتُ بكتابة العنوان وجمعتُ تحته ما له علاقة به من قريب أو من بعيد خدمة للأدب وتنفيذاً لرغبة المؤلف في تسمية كتابه وإيمانه بهذا الاسم. وفي يقيني بأنه لو كان الذي جمع هذه المقالات والموضوعات لإعداد كتاب تحت هذا المسمى هو المؤلف نفسه - يرحمه الله - لخرج بصورة غير صورته هذه إما بحذف بعض ما وضع في الكتاب أو بزيادة ما فيه لأن فارق الثقافة والدراية والحس الأدبي والنظرة النقدية والتعامل مع الكلمة بحَرفها وجَرسِها وأضوائها وبُعد مراميها تختلف بين المؤلف والمعد، إذ المؤلف أستاذ من أساتذة البلاغة

والبيان وله باعه الواسع ونظرته الثاقبة.

وخلاصة القول أن كتاب «مقالات.. وتعليقات» يمثل محطة من محطات النقد الأدبي في عمقه وفي هوامشه.. النقد بأبعاده وموازينه.. وإيضاح المفاهيم ومناقشة الحقائق.. وهوامش النقد بكل مكملاتها وجوانبها المختلفة وهو في مجموعه يعمق فكرة الإصلاح أدبًا ونقدًا وأخلاقًا ومفهومًا.

وختامًا.. أرجو من المعلِّمين والكُتّاب والأدباء والمفكرين والمعجبين بالأديب الناقد والناقد الأديب الأستاذ عبدالعزيز الربيع..

من أولئك الأدباء والكُتَّاب وأرباب النقد الأدبي الكبار الذين اقتحمتُ خيمَتهم لأنصِبَ فيها هذا المغلَم، أن يتجاوزوا عن هفواتي إن أخطأت في الكيفية التي ولجت فيها تلك الخيمة أو في كيفية تقديم هذا الأثر الأدبي الراقي وأرجو أن يغفروا زلتي إن وجدوها ويقيلوا عثرتي إن كانت.. وحسبي أنني مجتهد وكفى.

محمد صالح البليهشي

مقدمــة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين - وبعد:

فإننا نظلم النقد والنقاد في بلادنا - دون شك - إذا ما قلنا إن ذخيرتنا من النقد، أو حصيلتنا من النقاد، لا تعدو دوافعها الرئيسية: المجاملات أو الأغراض الشخصية، فمما لا ريب فيه أن شيئًا مما ينشر، ولعله ليس بالقليل، ينبثق عن الرغبة في تقويم العلم الأدبي، وإعطائه ما يستحق، دون مراعاة العلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود. كما أن الكثير مما ينشر يستهدف التعبير عن الانطباعات الذاتية للناقد، وقد يكون فيها الكثير من الخطأ والانحراف ولكن ذلك لا يحملنا على اعتبار هذا النقد منبثقًا عن الرغبة في التجريح أو التشفي أو الغرض الشخصي، لأنه في أساسه رغبة صادقة في التعبير عن انطباعات الناقد عن الأثر المنقود، ولكن ضعف مستوى التأثر بالتجربة الفنية أو عدم اكتمال الناقد لمؤهلات النقد المطلوبة وفي مقدمتها الثقافة الواسعة العميقة والمعايشة الدائمة للإنتاج الأدبي الرفيع، واستكمال الدراسات اللغوية والفنية والعلمية الضرورية لإرهاف الملَكة وتقويم الطبع وشفافية الإحساس، كل ذلك حال بين القائم بعملية النقد للأثر المنقود، وبين التقدير الدقيق الذي يستحقه.

كما أن الكثير من الدراسات النقدية، تبدأ بروح محايدة نزيهة بقدر الإمكان، ثم تغلب عليها نزعة التشفي والانتقام، والرد المباغت السريع من الأديب أو

الكاتب الذي ضاق ذرعًا بالنقد، رغم محاولة الناقد التجرد المطلق وحرصه على عدم الإشارة إلا إلى عدد قليل من الأخطاء، وبكل ما يستطيع من الذوق والمجاملة ودماثة الخلق.

ولي أنا شخصيًّا عشرات التجارب في هذا المجال، حتى إنني آثرت في الفترة الأخيرة أن أتوقف عن الدراسات النقدية، لأنها سببت لي الكثير من المشكلات، وفصمت أو أضعفت الوشائج والصلات التي تربطني بكثير من أصدقائي.

فقد ترسب في ذهني منذ نشأتي الأدبية الأولى أن النقد مسؤولية ورسالة، وأن كلمة الحق أكبر وأشرف من كل الصلات الشخصية.

وأعترف صادقًا بأنني عانيت الكثير من هذه (الترسبات الذهنية) - إذا صح التعبير - وأنني فكّرت أكثر من مرة في أن ألتزم الطريق الأكثر يسرًا والأقرب إلى قلوب الناس ومشاعرهم لأن ذلك سيضمن لي أصدقاء جددًا باستمرار، وسيدفع كل كاتب ومؤلف لدينا وبخاصة من شداة الأدب إلى إهدائي مؤلفاته وتدعيم صلته بدلًا من أن يلجأ بعضهم - كما حدث كثيرًا - إلى إخفاء مؤلفاته والادّعاء بأنها لم تُطبع بعد أو أنها نفدت. لقد أصبحت وبعض الإخوة النقاد في بلادنا الحبيبة، أشبه بالبعبع الذي يخوّف به الأطفال أو غير الناضجين من أدبائنا، لا لشيء إلا أننا لا نستطيع أن نتستر على ما نعتقد أنه حق وصواب، وإن كنا نقوله بأقصى ما نستطيع من اللطف والذوق.

ففي بلادنا - كما قلت - يوجد النقد النزيه المخلص، الذي يضطر في نهاية الأمر إلى الدفاع عن نفسه بقوة وفعالية. وهو القليل على أية حال، كما يوجد النقد المنبثق عن المجاملات أو الأغراض الشخصية أو عدم توفر إمكانيات النقد وهو الأغلبية الساحقة مع الأسف، وهي فيما يبدو لي ظاهرة طبيعية. لأن الناس -

ومنهم الأدباء - متفاوتون في عمق الثقافة وضحولتها، ورهافة الإحساس وتبلده ولكن الظاهرة التي تبدو أكثر شيوعًا في مجتمعاتنا الأدبية، هي ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فنحن هنا بين أديب كبير يعتقد بأن النقد سيزعزع مكانته الشخصية ويسيء إلى سمعته الأدبية. وأديب دون ذلك يشعر بأنه لا يزال يشق طريقه ويكافح في سبيل الوصول إلى ما يتطلع إليه من شهرة ومجد. ويجد في النقد مهما كان نزيهًا ومحايداً معوقات صعبة تقف في طريق تقدمه، أو معاول صلبة تجعل التراب ينهال تحت قدميه.

والناقد هو الضحية بعد ذلك.. لأنه سيُهاجَم من هؤلاء وأولئك، بسيل من الشتائم والاتهامات.

أما ما هو السبيل إلى إيجاد نقد علمي بنَّاء متجرد؟ مع وجود ظاهرة تبرم أدبائنا بالنقد.. فتلك مشكلة يستطيع الزمن وحده أن يحلها.. لأنني على يقين من أن النضج النفسي والفكري هو السبيل الوحيد، لتقبل النقد بصدر رحب، واعتباره مجهوداً من النقاد لوضع الحق في نصابه، وتوجيه الحركة الأدبية إلى مسارها الصحيح وهو مرتبط بنضوج المشاعر، وتفتح الذهن، وعمق الثقافة.

وهي مكاسب لا تتحقق بين ليلة وضحاها ولا بين يوم وآخر، ولكنها محصلة الوعي والدأب والزمن.

ولدي اقتراح غير عملي ولكنه طريف، سأضعه في صيغة سؤال، ثم أحاول الإجابة عليه:

ما الذي يحدث لو شعر كل أديب بمسؤوليته كاملة تجاه ما يكتب من دراسات أو بحوث أو إنتاج فني بصفة عامة، وأحس في الوقت نفسه بشبه اتفاق أو تعاون بين قادة الفكر والأدب، على أن يقفوا وقفة واحدة ضد كل من

يحاول الدفاع عن نفسه بغير المنطق والحق فأخذ يكيل السباب والشتائم للنقاد «المساكين» ؟.

إنها فكرة طريفة دون شك، ولكنها إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة.. ومع ذلك فدعونا نفكر قليلًا، ونتصور أن الفكرة انتقلت من الخيال إلى الواقع.. ألا تتصورون أن الناقد والمنقود معًا، سيفكر كل منهما ألف مرة قبل أن يبدأ الكتابة أو النقد؟

وسيكون هذا الحل مؤقتًا بالطبع، ريثما نبلغ مرحلة النضوج، وهي المرحلة التي نصل فيها إلى الشعور برقابة ضمائرنا، وهيمنة الإخلاص والصدق والنزاهة على ألسنتنا وأقلامنا بإذن الله.

والله من وراء القصد وهو المستعان في كل حال وأوان،،،

عبدالعزيز الربيع

تحت دوحتي الكبيرة

وهي دوحة كبيرة حقًا تقوم في طرف ناءٍ من واد جميل ولم تكن بيننا معرفة من قبل إلى أن التقيت بها مصادفة في يوم من الأيام لن أنساه..

كان يومًا عاصفًا من أيام حياتي قابلت فيه طائفة من المتاعب أشاعت في نفسي القلق والحيرة وبعثت إلى قلبي اليأس والملل.

وبدا لي يوم ذاك أن مشاكلي تلك أقوى من أن تحتمل، وأعقد من أن تُحل.

وانطلقت في أرض الله أبحث عن شيء غامض مبهم غير محدود.. وسرت طويلًا.. إلى غير غاية.

وهداني السير الطويل والقمر المحلق إلى ظلال كانت هناك في طريق إلى المجهول.

وأوقفت سيارتي وسعيت إلى تلك الظلال سعيًا وئيداً.. فإذا بي تحت دوحة كبيرة تقف وحدها في هذا المكان النائي صلبة العود مرفوعة الرأس غير آبهة بالوحدة ولا شاعرة بالوحشة ولا مكترثة بالأحياء.

وتأملت منظرها فأعجبني، ومرآها فراقني، إذ هي خير مثال للقوة النبيلة.. القوة التي تتجلى في متانتها وشموخها.. والنبل البادي في ظلالها التي تمنحها لكل من يلتمس عندها الحنو والراحة من لفح الهجير وقسوة الشمس.

ووقفت أمامها طويلًا أتلقى منها درسًا من أروع ما تلقيت في حياتي من دروس.

ثم جلست إليها مسنداً ظهري إليها وأخذت أستعرض تاريخ حياتي ووصلت إلى المشاكل التي كادت تعصف بي فناقشتها مع نفسي واحدة - واحدة وتوصلت إلى

حلول عملية لها. وهدأت خواطري الثائرة وزال القلق الذي كان يساورني وانبعثت الطمأنينة إلى نفسي وقمت خفيف الروح كأنما نشطت من عقال.

وانعقدت بيني وبين هذه الدوحة صداقة قوية متينة فأصبحت أهرب إليها بين الحين والحين لأجلس إليها وأحادثها حديثًا صامتًا رائعًا وأنفض تحت ظلالها ما علق بنفسي من شوائب الحياة ومضايقات الناس وعقوق الأصدقاء والصداقة بين الإنسان وغيره من الكائنات.. نوع فريد من الألفة يجد فيه الإنسان من المتعة والجمال ما يفوق الوصف.

والآداب الإنسانية حافلة بالنماذج الرائعة الأصيلة التي تتحدث عن هذه الصداقة في صراحة وصدق.

وبعد.. فمعذرة للقراء الكرام من هذا الحديث الذي يبدو وكأنه حديث شخصي لايهم الكثرة الكاثرة من القارئين، وإن كان لحديث الكاتب عن نفسه أثر ربما ظهر بعد حين. وبعد، فقد كنت تركت القلم فترة طويلة من الوقت حتى بدأ الغبار يتراكم عليه.

وكنت أمنّي نفسي بالعودة إليه ولكن مشاغل العمل وظروف الحياة والرغبة في التفرغ كانت تضطرني إلى تأجيل العودة.

ويسرني أن أعود اليوم إلى القلم ملبيًا رغبة طائفة كريمة من أصدقائي وخاصة الأديب الأستاذ «أبو مدين» وسأحرص على أن أنقل لقرائي طائفة من تأملاتي ومطالعاتي تحت دوحتي الكبيرة وكلي أمل في أن يجدوا فيها - كما وجدت - بعض المتعة وشيئًا من الفائدة.

وأرجو أن أوفق إلى المساهمة بطريق القلم في خدمة أمتي كما ساهمت ولا أزال في حقل التعليم.

من معجزات القرآن

عجيب أمر هذه الحياة بما حفلت به من عجائب ونقائض ومدهشات وأعجب منها هذه النفس الإنسانية أو هذا التيه البشري.

فمنذ قديم الزمان والعلماء يحاولون استقصاء النفس البشرية والتعرف على أنوارها وكلما ظنوا أنهم كشفوا جانبًا منها تفتحت جوانب أخرى أشد تعقيدًا وأكثر غرابة.

أكتب هذه بعد أن قضيت فترة من الوقت أتتبع فيها سيرة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد.

فقد بدأ حياته العلمية منذ نشأته المبكرة في كُتَّاب من الكتاتيب التي كانت منتشرة في ذاك الزمان وفيه حفظ القرآن الكريم وتعلّم مبادىء القراءة والكتابة، ثم أكمل دراسته الابتدائية ثم الثانوية وختمها بالدراسة العالية في مدرسة الحقوق.

واشتغل بعد ذلك في حقول النيابة.. ثم انتقل إلى ميدان المحاماة فعمل به بعض الوقت ولكنه انصرف عنه إلى العمل في السياسة ثم قام بإنشاء صحيفة الجريدة.

وقد تبنَّى فيها فكرة «مصر للمصريين» ليحارب فكرة الانضواء تحت لواء الدولة العثمانية وليقاوم بها فكرة الجامعة الإسلامية ويبدو أن ما أحرزه من نجاح في هذا السبيل دفعه إلى أن يتبنى فكرة جديدة هي تمصير اللغة.

ولغة المصريين في نظره هي لغة الشعب، اللغة العامية التي يتكلمها أفراد الشعب.

فحمل لواء الدعوة إلى التخلص من سلطان اللغة الفصحى لأنها للخاصة.

ونشر اللغة العامية لأنها لغة الجميع.

وقد اندفع في تأييد فكرته، فكتب عددًا من المقالات دعا فيها إلى اصطناع اللغة العامية لغة الكتابة والأدب، وقد مهّد لذلك بأن أقترح طائفة من الاصطلاحات من شأنها - في نظره - أن تساعد القارىء المصري على التغلب على صعوبات الكتابة والقراءة، ومن أهم اصطلاحاته المقترحة تسكين الحروف في أواخر الكلمات وبتعبير آخر إلغاء الإعراب ومتى أُلغي الإعراب قُضي على اللغة العربية وأصبحت العامية المصرية لغة منفصلة شاذة لا يربطها بالعربية أي رابط، وانفصال العامية المصرية عن اللغة العربية معناه القضاء على القرآن وتقلّصه وانكماشه في بعض المساجد وبعض الزوايا ليصبح مقصورًا على طائفة من العلماء كاقتصار المسيحية واليهودية على الكُهَّان والرهبان يتلون صلواتهم وأدعيتهم باللغة السريانية أو غيرها من اللغات البائدة فلا يفهمها أحد.

وإنما هي مجرد طقوس دينية تؤدى دون أن يحاول أحد فهمها أو التعرف عليها.

لم يقتصر لطفي السيد على مقترحه الذي أشرنا إليه بل قدم عددًا آخر من المقترحات ولكنها تعتبر ثانوية بالنسبة لمقترحه الأول أو ربما اعتبرت مكملة له في القضاء على العربية وتشويه وجهها وتغيير صورتها وتحويل العربية من لغة يفهمها جميع العرب في كل مكان إلى لغة لا يفهمها إلا المصريون.. ومن مقترحاته الأخرى:

١- إظهار التنوين في الرسم كما يظهر في النطق.

٢- فك الإدغام في الرسم فيُكتب الحرف المشدد حرفين.

٣- لا يتحرك الحرف الساكن إلا إذا اتبع بحرف متحرك.

وعلى هذا الأساس فلو أردنا أن نكتب كلمة «حَدٌّ» فإنها تكتب هكذا «حاددون».

ويقول أحمد لطفي السيد في سبيل تأييد دعوته «لا حرج على الكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ ماشاء لما شاء من المعاني تريد الانذار «اللغة العامية» أو لغة الشعب تموت بإبعاد تعريبها وفصيحها عن عالم الكتابة والعلم.

إن اللغة العامية في مصر لها مشخصات ثابتة تحددها من جميع الجهات وتجعلها مميزة تمييزًا كاملًا.

علينا أن نتذرع إلى إحياء العربية استعمال العامية ومتى استعملناها في الكتابة اضطررنا إلى أن نخلصها من الضعف وجعلنا العامة يتابعون الكُتَّاب في كتاباتهم».

لقد بذل لطفي السيد كثيراً من الجهد في سبيل إقناع الناس بفكرته وعاونه في ذلك عدد من تلاميذه وبدأ في الدعوة بفكرته من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٤٢ يقتنص كل فرصة لنشر فكرته والدعوة لها.

ويحارب فكرة الجامعة الإسلامية لأن من شأن قيام هذه الجامعة أن تدعم القرآن وهو المحور الذي تقوم عليه، وفي تدعيم القرآن تدعيم للغة العربية... إحباط لفكرة تمصير اللغة واقتلاع لها من جذورها.

يقول أحمد لطفي السيد عن «الجامعة الإسلامية» «إن فكرة الوحدة الإسلامية قد تجول أحيانًا بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق ولكن تلك الفكرة لم تخرج من حيز الخواطر تظهر وتختفي تبعًا للحوادث.. على أن عقلاء المصريين لا يرون لكليهما وجودًا في العالم ولكن السياسة تخلق ما تشاء... أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجودًا حقيقيًا أو أنها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها فهذا لا دليل عليه مطلقًا.. كما أنه لو حوول إيجادها لاستحال بالمرة على طلابه».

وهذا كلام عجيب يصدر من كاتب مفكر كلطفي السيد ولكن الغرض يعمي كما يقولون في هذه الأيام وحبك الشيء يعمي ويصم كما كان يقال في قديم الزمان وإلا فإن الوحدة الإسلامية هدف كل مسلم يعتز بدينه وهي وإن لم تبرز على صعيد السياسة العملية لأن الأوروبيين قد اتفقوا جميعًا على محاربتها لما فيها من الخطر كل الخطر على مطامعهم ومطامحهم وآمالهم في بلاد الإسلام المسلمين.

ولكنها قائمة فعلًا في قلب كل مسلم فالمسلم الهندي يعتز بأخيه المسلم الحبشي أو السوري أو الصيني أكثر من اعتزازه بمواطنه الهندي البوذي أو المجوسي.

فالإسلام رابطة روحية قائمة وهي أقوى من كل المنافع والمصالح التي يتحدث عنها لطفي السيد وما دامت هذه الرابطة قائمة - وهي قائمة - بإذن الله - ثم بفضل القرآن - فستقود المسلمين حتمًا إلى الرابطة السياسية، وما خامرني شك قط في قيام هذه الرابطة.

وكلما ضعفت قبضة الاستعمار التي تضغط على المسلمين في بلادهم المختلفة وكلما تخلص المسلمون من ربقة الجهل والضعف والتواكل كلما قصرت المسافة بين المسلمين وبين هدفهم المرجو. ومن الطريف أن نذكر أن لطفي السيد حارب فكرة إنشاء مجمع لُغوي حربًا عنيفة لأن إنشاء مجمع لُغوي معناه وجود حارس يحول بين العربية وكل محاولة لهدمها وانتقاصها كما أن لا شئ في إبقائهما وجود هذا المجمع أمر ينقي اللغة العربية من الدخيل الذي لا تقره أصول اللغة وأن يثريها ثروة سليمة نقية من الألفاظ والتراكيب التي لا تنسجم مع طبيعتها وتتفق مع مبادئها.

فوجود هذا المجمع يعتبر ضربة قاصمة لفكرة تمصير اللغة ومن أجل ذلك حاربه لطفي السيد وزعم أنه «عمل لا تقتضيه حاجة الأمّة».

ورغم الجهود الجبارة التي بذلها لطفي السيد في سبيل تمصير اللغة العربية وفي سبيل إضعاف شأنها وفي سبيل تفتيت الوحدة العربية والإسلامية تلك الجهود التي ظاهره عليها قاسم أمين ووليم وكلوكس وسلامة موسى وعشرات غيرهم.

رغم كل ذلك فقد فشلت تلك الجهود وانتصرت العربية لغة القرآن وأنشيء المجمع اللغوي وانضم إليه لطفي السيد عضوًا فيه ثم أصبح رئيسًا له مدة ثماني عشرة سنة، وأصبح الرجل الذي حمل معول هدم اللغة فترة طويلة من عمره من أشد أنصار اللغة الحافظين عليها الذائدين عن حياضها.

قرأت منذ سنوات مقابلة في مجلة المصور بين السيدة أمينة السعيد وبين أحمد لطفي السيد وقد جرى على لسان السيدة كلمة «تطوير» وإذا بأحمد لطفي السيد ينبهها إلى خطأ هذه الكلمة لغويًا ويدعوها إلى تجنبها ونبذها.

ألستم ترون معي أن تحوُّل هذا الرجل من طرف إلى طرف ومن جانب إلى جانب ومن الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى اليمين ومن العداوة إلى الصداقة أثر من آثار كتاب «الشيخة فاطمة» ومعجزة من معجزات القرآن؟

إبراهيم الخليل.. والإسلام(*)

خواطر من السيرة:

مقدمة

والسيرة إن أطلقت انصرف الذهن إلى سيرة سيد ولد آدم، تلك السيرة المعطرة أو ذلك المعين الفياض الذي لا ينضب ولا يزيده مَر الأيام إلا قوة واندفاعًا.

وأول سيرة سجلها التاريخ العربي هي سيرة محمد - صلوات الله عليه - فلم تكتب أي سيرة قبل هذه السيرة الكريمة.

وكان ذلك من يُمن الطالع ومن جميل المصادفات.

ولهذه الأدلة في الكتابة ولما حفلت به هذه السيرة من باهر الأعمال أصبحت كلمة السيرة إذا أطلقت انصرف الذهن إليها دون غيرها.

فكل سيرة في التاريخ سيرة ولكن «السيرة» هي سيرة النبي الأعظم وكل مدينة في الدنيا مدينة ولكن «المدينة» هي عاصمته ومهاجره ومثواه.

ومنذ كتب ابن إسحاق وابن سعد والبلاذري ما كتبوا من سيرة الرسول والمؤلفون والكتَّاب يتابعونهم، يغوصون في بحر محيط أو منجم عريق ويخرجون منهما بأثمن اللآلىء وأندر الجواهر ويكشفون عن حقائق رائعة وأسرار مثيرة.

(☆) نشر المقال في عدد مجلة الدعوة رقم (٧) بتاريخ ١٣٨٥/٢/٢٢هـ.

ولم تشغل هذه السيرة العظيمة الكتّاب من المسلمين وحدهم بل شغلت الكثير من الكتّاب الآخرين ممن ينتسبون إلى مِللٍ ونحلٍ أخرى.

وستظل تشغل الكثيرين من المحبين والأعداء والأصدقاء والخصوم فهي سيرة غنية حافلة بما يرضي العقل والذوق والوجدان والشعور.

ولن نتحدث هنا عن السيرة وعلاقتها بالتاريخ ولا عن آراء فلاسفة التاريخ ومناقشاتهم حول هذه العلاقة، فذلك أمر لا يهمنا كثيراً هنا، وإنما نريد أن نسجل بعض الخواطر التي عرضت لنا ونحن نقرأ السيرة النبوية.

العناية بإبراهيم:

والقارىء للسيرة النبوية في مصادرها المختلفة سيلفته ما يلمسه من العناية بالنبي العظيم إبراهيم وذلك أمر طبيعي فقد عني القرآن الكريم بسيرة هذا الشيخ الجليل حتى لقد تردد اسمه في القرآن تسعًا وتسعين مرة وهو عدد ضخم يدل على مدى أهمية هذه الشخصية العظيمة.

إبراهيم وموسى:

ولم يتفوق عليه من أسماء الأنبياء في العدد إلا موسى كليم الله.

ومع ذلك فالفارق كبير بين الشخصيتين في مجال العلاقة بينهما وبين نبي الإسلام.

فالعلاقة بين موسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام لا تكاد تتجاوز علاقة النبوة.

باستثناء النصيحة التي أوردت قصة المعراج تفاصيلها وهي الخاصة بتخفيف ما فرض من الصلوات على هذه الأمة والتي كان من نتائجها تخفيض عدد الصلوات من خمسين إلى خمس صلوات مع بقاء الأجر كما كان.

إبراهيم والإسلام:

نقول باستثناء تلك النصيحة فإن العلاقة بين نبينا وبين موسى محدودة إلى حد كبير.

ولكن العلاقة بين نبينا وإبراهيم عليهما السلام علاقة قوية متينة فإبراهيم أبو المسلمين كما يقرر القرآن الكريم ذلك «ملة أبيكم إبراهيم» وملة الإسلام هي ملة إبراهيم ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا** ﴾.

والمسلـــــمون ليست تسمية حديثة بأتباع محمد عليه الصلاة والسلام ولكنها تسمية قديمة ترجع إلى خليل الرحمن ﴿**هو سماكم المسلمين من قبل**﴾.

﴿**ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا**﴾.

﴿**إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي**﴾.

وبيت الله المعظم بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾.

ويؤكد الإسلام هذه العلاقة حين يربط بين اسم نبينا صلى الله عليه وسلم وبين اسم إبراهيم خليل الله ويحتم على المسلمين أن يذكروا في كل صلاة اسم إبراهيم إلى جوار اسمه صلى الله عليهما وسلم وأن يختموا كل صلاة مفروضة أو نافلة بالصلاة على النبيين الكريمين العظيمين.

وإبراهيم خليل الله والمخالة درجة سامية من المحبة لم يبلغها فيما نعلم إلا إبراهيم ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلًا**﴾.

وإلا محمد - صلى الله عليه وسلم: «**ولو كنت متخذًا من أمّتي خليلًا دون ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي**».

وإبراهيم أبو الأنبياء فهو أب لمجموعة كبيرة من الأنبياء في بني إسرائيل وهو أب لخاتم المرسلين - صلى الله عليه وسلم - نسل مبارك كريم.

ولم تقف علاقة الأبوة بين نبينا والخليل عليهما السلام عند هذا الحد فهناك علاقة قوية بين الرجلين حتى يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديثه عن ليلة الإسراء «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به».

كما أن إبراهيم من أولي العزم من الرسل وهم - فيما يقرر المفسرون - قلة من الأنبياء إذ لا يتجاوز عددهم الخمسة هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

تنازع الفخر بإبراهيم:

ومن الطريف أن أتباع الديانات الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلام تنازعوا الفخر بخليل الله إبراهيم.

وقد حفلت التوراة والإنجيل والقرآن بأخبار هذا النبي العظيم حتى لقد بلغ الحرص ببعض أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية في عصر صدر الإسلام منذ تنازعوا في شأن إبراهيم. فزعم الفريق الأول أنه كان يهوديًا وزعم الفريق الثاني أنه كان نصرانيًا.

فردّ الله عليهم بقوله ﴿**يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلمَ تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**﴾ سورة آل عمران الآيات من (٦٥-٦٧).

طرائف من أخبار الخليل:

وليس من غرضنا أن نقدم هنا دراسة مفصلة عن سيرة هذا النبي العظيم ولكننا سنسجل طائفة من أخباره عليها سيماء الطرافة.

١- يعرف المسلمون خليل الرحمن وبهذه الصيغة ورد اسمه في القرآن وكتب السنة أما في التوراة فقد مر اسمه في مرحلتين: كان اسمه في المرحلة الأولى «إبرام» وظل

كذلك إلى أن بلغ من العمر تسعًا وتسعين سنة وعند ذلك تحول اسمه - بأمر الإله - إلى إبراهيم وهذه هي المرحلة الثانية.

ومعنى إبراهيم باللغة العبرية مطيع الله.

ويبدو أن اسمه ورد في بعض قصص «العهد الجديد» بصيغة إبراهام.

وقد دفعت الرغبة في التسهيل إلى تحويل إبراهام إلى برهام ويبدو أن التسهيل قد امتد حتى تحول إلى برهوم.

٢- بلغ الخليل من العمر مائة وخمسًا وسبعين سنة وهو عمر طويل مديد مبارك.

ولكنه قضى خمسة وثمانين عامًا من غير أن يولد له ولد وفي عامه السادس والثمانين ولد له إسماعيل ومعناه المسموع من الله وفي عامه التاسع والتسعين ولد له إسحاق.

٣- في العام الذي ولد فيه إسحاق وهو التاسع والتسعون من عمر الخليل أمر بالختان فختن نفسه وختن إسماعيل وإسحاق.

ومما يذكر في هذا الصدد ما يراه المؤرخون من أن المنتصرين في أقدم العصور كانوا يقدمون الأسرى ضحايا للآلهة ثم تطور الأمر إلى الاكتفاء بقطع بعض أعضائهم ووصل الأمر أخيراً إلى الاكتفاء بقطع غلفتهم.

ومن أطرف ما يذكر في هذا المجال أن الملك شاؤول طلب من داود مهرًا لابنته ميكال مائة غلفة من رعاياه فقدم له مائتين ولعله أطرف مهر في التاريخ.

٤- من الأمور التي تلفت النظر إجماع المصادر التاريخية المختلفة على جمال سارة وتسمى في بعض المصادر ساراي «فلم تخلق امرأة بجمال سارة فأجمل النساء بالقياس إليها كالقرد الممسوخ وقد بلغ من فتنة جمالها أن إبراهيم لم يملأ منها عينيه وإنما لمح خيالها في الماء وهم يعبرون بعض الجداول إلى مصر» وقد خاف إبراهيم من تأثير هذه الفتنة الصارخة على فرعون مصر فوضعها في تابوت ولكن

ذلك لم يُجدِ إذ اضطره عمال المكوس إلى فتح التابوت ووصل الخبر إلى فرعون. فهي واحدة من أجمل نساء العالم.

٥- ينسب المؤرخون إلى إبراهيم مجموعة من الأوليات فيقولون إنه أول من اختتن وأول من ضاف الضيف وأول من قلّم أظفاره وأول من قص الشارب وأول من خطب على المنابر وأول من برد البريد وأول من ضرب بالسيف وأول من استاك وأول من استنجى بالماء وأول من لبس السراويل.

ويقولون إنه أول من شاب فلما رأى الشيب قال ما هذا قيل له هذا وقارٌ قال: يارب زدني وقارًا.

٦- يرى المؤرخ الأستاذ محمد لطفي جمعة أن الكعبة التي قام ببنائها إبراهيم وإسماعيل سميت بذلك لأنها جعلت على صورة الكعب.

وفي هذا الرأي نظر، فالكعب بمعنى العقب اصطلاح عامي ونعتقد أنه محدث لأن الكعب في اللغة العظم الناتىء عند ملتقى الساق والقدم أي أن في كل قدم كعبين عن يمينها وعن يسرتها وفي الحديث الشريف «ويل للأعقاب من النار».

٧- يروي المؤرخون بكثير من العناية قصة العلاقة بين سارة أم إسحاق وهاجر أم إسماعيل وما انتهت إليه هذه العلاقة من إرغام إبراهيم على الرحيل بأم إسماعيل إلى مكة ويلاحظون أنه كان لسارة سلطة كبيرة على إبراهيم فقد أخذتها الغيرة على هاجر لأنها ولدت قبلها وزادت هذه الغيرة بعد أن أصبح لكلتيهما ابن وصار يحدث بين الطفلين ما يقع عادة بين الأطفال وفي إحدى المرات تسابق الغلامان فسبق إسماعيل فوضع إبراهيم إسماعيل في حجره ووضع إسحاق إلى جانبه فغضبت سارة وقالت عمدت إلى ابن الأمة فوضعته في حجرك وعمدت إلى ابني فأجلسته إلى جنبك» وحلفت لتقطعن من هاجر بضعة ولتغيرن من خلقها تشويهًا لها لتقل من حب إبراهيم إياها.

ولما زال عنها الغضب تحسرت على يمينها فقال لها إبراهيم «حققيها واثقبي أذنيها» ففعلت ذلك فصار سنة في النساء.

فإقدامها على أن تقسم بأن تشوه خلق ضرتها وما تبع ذلك دليل على هذه السلطة التي تتمتع بها سارة والتي ينسبها بعض المؤرخين إلى نظام الأمومة الذي كان معمولاً يومذاك وينسبها آخرون إلى جمال سارة الصارخ وإلى العادات التي اكتسبتها من مقامها في مصر.

٨- ومن الأمور الطريفة في الشريعة الإسرائيلية تقديم الأصغر من الأبناء على إخوته فعندما قدَّم يوسف ابنيه إلى أبيه يعقوب ليباركهما وضع يده اليمنى على الأصغر ويده اليسرى على الأكبر، وعهد داود بالملك من بعده إلى ابنه سليمان وهو أصغر من أخيه.

وهناك عشرات الأمثلة في هذا الصدد.

٩- سدوم هي قرية نبي الله لوط وهو ابن أخي إبراهيم وبالاضافة إلى شهرتها المعروفة فقد اتصفت بصفات عجيبة في الأمور القضائية وهي أمور تذكر القارىء بما ينسب ظلمًا إلى وزير صلاح الدين بهاء الدين قراقوش.

ومما يذكر أن رجلًا حل ضيفًا على أحد سكانها وكان معه بساط جميل أخضر فطمع صاحب المنزل في البساط واستولى عليه عندما استغرق الضيف في النوم.

ولما استيقظ الضيف في الصباح طالب بالبساط فأكد له صاحب المنزل أنه في حلم وأنه لم يحضر معه بساطًا.

أما تفسير هذا الحلم فهو أنك ستزرع أرضًا تنبت لك ألوانًا من الزرع ثم ساقه إلى القاضي ليطالبه بدفـــع أجـــرة مقـــابل تأويل رؤياه وفعلًا حكم له القاضي بذلك.

ومما يتصل بالنبي إبراهيم أنه كان خادمًا وعندما كان يزور هذه القرية قام بعض سكانها بسرقته وعندما حاول الدفاع عن نفسه ضربوه ورماه أحدهم بحجر أسال دمه ثم ساقوه إلى القاضي مطالبًا إياه بدفع أجرة له مقابل فصده.

١٠- من المعروف عند الناس أن إبراهيم لم يتزوج إلا سارة وهاجر ولم يولد له إلا إسحاق وإسماعيل ولكن الواقع أن إبراهيم تزوج بعد موت سارة وهاجر بامرأة تسمى قطورة وولدت له ستة أبناء كانوا الأساس لسكان أفريقيا وهم الذين سموا هذا الجزء من العالم باسم أفريقيا.

١١- قصة إلقاء إبراهيم في النار نتيجة لخلافه مع النمرود قصة معروفة ولكن الشيء الجديد في الموضوع هو أن أتباع الكنيسة السريانية وهم يقيمون بين سوريا والعراق يحتفلون في الخامس والعشرين من شهر يناير «كانون الثاني» من كل عام ابتهاجًا بنجاة الخليل من النار.. عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

خواطر عن:

المولد النبوي وقباء والهجرة وأشياء أخرى(*)

في مثل هذا الشهر من كل عام يقف المسلمون برهة يستذكرون حادثًا خطيراً وقع فيه وكان له أعمق الأثر في تاريخ العالم.

ففيه ولد هادي البشرية ومنقذها الأعظم الذي يقول في تواضع الأنبياء وعظمة الرسل: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

ففي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد كما حققه المرحوم محمود باشا الفلكي.

وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل..

هذا اليوم الأعز من هذا الشهر المبارك ولد نبي آخر الزمان..

وولادته - صلى الله عليه وسلم - في عام الفيل من الإرهاصات العظيمة بمولده ونبوته.

وحادثة الفيل من الحوادث الغريبة في التاريخ وفيها تتجلى عظمة الله وحمايته لبيته ورعايته لجيران هذا البيت وحسب الحادثة أهمية تسجيل الله لها في سورة مستقلة من سور القرآن سميت بسورة الفيل.

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة، العدد (٥٥٢)، بتاريخ ١٣٨٥/٩/٢هـ.

ولعل أساتذة الدين والتاريخ ومن يعملون في مدارس محو الأمية أو مدارس البنات التابعة لمركز التنمية الاجتماعية يحرصون على توضيح تفاصيل هذه الحادثة وأثرها في التاريخ القرشي والعربي الإسلامي لتلامذتهم.

وحتى يستطيعوا أداء هذه المهمة فلا بد لهم من الرجوع إلى عدد كبير من المصادر التاريخية.

وعاش النبي الأعظم حتى سن الأربعين عيشة كريمة سامية ثم أكرمه الله بالنبوة والرسالة وتطبيقًا للقاعدة التي لا شَواذَّ لها والتي تقول «لا كرامة لنبي في وطنه» اضطر النبي العربي القرشي إلى الهجرة مفارقًا وطنه وقومه بعد أن لقى من ألوان المتاعب وصنوف الإيذاء الشيء الكثير وبعد أن فقد الأمل في نجاح دعوته هناك في مكة.

في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق عشرين سبتمبر سنة ٦٢٢ كما حققه المرحوم محمود باشا الفلكي وصل النبي الأكرم وصاحبه أبو بكر الصديق إلى قباء الضاحية الجميلة الخصبة المخضوضرة والتي يقوم فيها مركز التنمية حاليًا..

وهذا اليوم يعتبر أول يوم في تاريخ انتصار الإسلام.

يقول عمر بن الخطاب «الهجرة فرّقت بين الحق والباطل»..

ولذلك اتفق المسلمون في خلافة عمر على أن يجعلوه مبدأ للتقويم الإسلامي.

ونظرًا لأن السَنَة الهلالية تبدأ ببداية المحرم فقد قدموا التاريخ شهرين ويومًا وإلا فالتاريخ الحقيقي للهجرة هو ما ذكرنا، ويرى بعض العلماء أن الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿**لمسجد أسس على التقوى من أول يوم**﴾ وهو استنتاج طريف ودقيق، فهل أستطيع أن أوجه نظر مركز التنمية الاجتماعية باعتباره مشرفًا على الناحية الثقافية في هذه الضاحية الجميلة، هل أستطيع أن أوجه نظره إلى العناية بهذا اليوم والاحتفال به احتفالاً إسلاميًا يتفق وجلال الهجرة التي فرّقت بين الحق والباطل.

ويروي المؤرخون أن وصول النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قباء كان يوم الاثنين، ولهذا اليوم من الأسبوع مصادفات عجيبة في حياته الشريفة عليه الصلاة والسلام فقد ولد يوم الاثنين واستنبىء يوم الاثنين ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين وخرج مهاجرًا يوم الاثنين وقدم المدينة يوم الاثنين وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين.

ومما ينبغي ملاحظته أن النبي الأعظم ولد وهاجر وقُبض في شهر ربيع الأول والربيع فصل الخير والجمال والخصب والنماء ونسبة هذا الشهر إلى الربيع فيه أكثر من معنى.

ومما يتصل بهذا المعنى ما ثبت تاريخيًا من أن مولد الرسول الأعظم كان في شهر أبريل وهو شهر يقع في صميم فصل الربيع..

فصل الزهور والعطور والخضرة والاعتدال.

وقباء في الأصل بئر في المنطقة عرفت القرية بها ويبدو أنها كانت بئرًا كبيرة من نوع هداج وبئر هداج كان ينتفع منها سكان القرية أو عدد كبير منهم، وحولها كانت تقوم مساكن بني عمرو بن عوف الأنصاري، وقد أثنى عليهم القرآن ثناء جميلًا فقال عنهم «فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين».

وكان اسم البئر في الأساس «قثار» وكان السكان يتطيرون من هذا الاسم لأن من معانيه التردد والجزع فعدلوا عن هذه التسمية المزعجة إلى تسمية أخرى تحمل معنى الجمع والضم وهي «قباء»، وكان ذلك، فألاً طيباً فقد اجتمعت فيها كلمة المسلمين وتوحدت قوتهم ويجوز في نطق كلمة قباء المد بذكر الهمزة والقصر بحذفها والوقوف على الباء الممدودة كما يجوز صرف هذه الكلمة عند الاعراب وعدم صرفها..

ويجوز تذكيرها وتأنيثها، ومن الطريف أن مدينة كبيرة كانت قائمة فيما يسمى الآن ببلاد التركستان قرب فرقانة كانت تسمى قباء..

تخرّج منها مجموعة من العلماء في كل فن وإليها ينسب بعضهم كما ينسب إلى ضاحية قباء قوم آخرون.

وليت أحد المثقفين من أبناء هذه الضاحية الجميلة يولي هذا الموضوع عنايته ويتتبع كل الشخصيات العلمية التي انتسبت إلى قباء، فأصبح يطلق على الواحد منهم «القبائي» ويكتب عنهم دراسة تفصيلية، إن ذلك واجب على القبائيين وفرض على المثقفين منهم.

وفي قباء أنشأ النبي الأكرم أول مسجد في الإسلام..

وأول مسجد أسس على التقوى من الله ورضوان..

وقد عمل في بنائه بنفسه - صلى الله عليه وسلم.

روت الشموس بنت النعمان قالت: نظرت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد مسجد قباء فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يهصره الحجر «أي يميله من ثقله» وانظر إلى بياض التراب على بطنه أو سرته فيأتي الرجل من أصحابه ويقول بأبي أنت وأمي يارسول الله أعطني أكفيك فيقول: لا. خذ مثله، حتى أسسه ويقول أن جبريل عليه السلام هو يؤم البيت. قالت وكان يقال أنه أقدم مسجد.

وبمناسبة مارأى القراء في اسم هذه الصحابية الكريمة «الشموس» أليس اسمًا جميلًا في معناه وفي تركيب حروفه؟ لا يحسن بنا أن نخبي هذا الاسم الجميل وخاصة وأن صاحبته - فيما يبدو - كانت من سكان قباء في عصر النبوة.

وقد روى بعض العلماء في تفسير الآية الكريمة ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه**﴾ قال إنما هي أربعة مساجد لم يبنهن إلا نبي.. الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل وبيت المقدس بناه داود وسليمان ومسجد المدينة ومسجد قباء اللذان أسسا على التقوى بناهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم..

هذا هو مسجد قباء أول منارة ارتفعت في الإسلام في عهد الظهور والعلانية في الأيام الأولى من الهجرة.

واليوم تقف إلى جانبه منارتان أخريان تنشران النور والخير والسعادة والفضيلة وتسيران في الطريق الذي اختطه باني المسجد ومؤسسه - صلى الله عليه وسلم.

تقف إلى يمينه المدرسة ويقف إلى شماله المركز وكلها تعمل من أجل تكوين المسلم القوي الذي يصلح لعمارة الدنيا بالعلم والإيمان والخلق.

ولقد أحسنت البلدية حين فكرت في إيجاد ميدان أمام المسجد وحبذا لو فكرت في إيجاد ميادين أخرى حول المسجد من جميع الجهات.. وحبذا لو فكرت وزارة الحج في توسيعه وتكبيره[(١)].

هذه خواطر خطرت لي عندما تلقيت دعوة الصديق الأستاذ بدر الدين محمود مدير مركز التنمية إلى الإسهام في مجلة المركز.

وله تحياتي وإعجابي وشكري على جهوده الموفقة في خدمة هذا الجزء من وطننا العزيز.

(١) بأمر من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز تم توسيع المسجد وبنائه من جديد، وجمل ما حوله بالميادين والحدائق.

خواطر عن المولد النبوي والهجرة (*)

في مثل هذا الشهر من كل عام يقف المسلمون برهة يستذكرون حادثًا خطيراً وقع فيه وكان له أثر عميق أبلغ العمق في تاريخ العالم ففيه ولد هادي البشرية ومنقذها الأعظم الذي يقول في تواضع الأنبياء وعظمة الرسل «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

الاثنين والربيع في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم

ففي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد كما حققه المرحوم محمود باشا الفلكي.

وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل.

في هذا اليوم المبارك من هذا الشهر المبارك ولد نبي آخر الزمان.

وليوم الاثنين من أيام الأسبوع مصادفات عجيبة في حياته الشريفة عليه الصلاة والسلام فقد ولد - كما أشرنا - يوم الاثنين وقدم المدينة يوم الاثنين وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين.

كما تجدر الاشارة إلى أن النبي الأعظم ولد وهاجر وقُبض في شهر ربيع الأول والربيع فصل الخير والجمال والخصب والنماء.

ونسبة هذا الشهر إلى الربيع فيها أكثر من معنى.

وقد سبق أن أشرت في مقال سابق نشر في العدد ٥٥٢ الصادر في ٨٥/٩/٢ من جريدة المدينة إلى أن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي

(☆) نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الخميس ٢٢ من ربيع الأول عام ١٣٨٧هـ، العدد (٩٩٤).

هي فيها فصادف أن كان شهر الربيع وربيع الثاني في فصل الربيع ولذلك سموهما بهذا الاسم لارتباعهم فيه والارتباع الإقامة في فصل الربيع ثم أطلق على الإقامة.

وقد ثبت تاريخيًا - كما ألمحنا - إلى أن مولد النبي الكريم كان في شهر أبريل وشهر أبريل أو «نيسان» يقع في صميم فصل الربيع فصل الزهور والعطور والخضرة والاعتدال.

حادثة الفيل

ولد النبي الأكرم - صلى الله عليه وسلم - في عام الفيل.

وحادثة الفيل وما سبقها من مسببات أو تبعها من نتائج من الإرهاصات العظيمة بمولد خير الأنبياء ونبوته وهذه الحادثة من الحوادث الغريبة في التاريخ وفيها تتجلى عظمة الله وحمايته لبيته ورعايته لجيران هذا البيت.

وحسب الحادث أهمية تسجيل الله سبحانه له في سورة مستقلة من سور القرآن سميت بسورة الفيل.

وفي قصة الفيل الكثير من الأعاجيب المدهشة.

وقد سمي العام الذي وقعت فيه الحملة التي قادها أبرهة الأشرم إلى مكة لهدم البيت الحرام عام الفيل لأنه يبدو أن هذه أول مرة يشاهد فيه العرب أفيالاً تسهم في المجهود الحربي.

ويروي المفسرون أنه كان بجيش أبرهة بضعة أفيال قال بعضهم إنها ثمانية وأوصلها بعضهم إلى اثني عشر فيلًا.

وعلى رأسها فيل عظيم كبير الجثة لم يرَ الناس مثله عظمًا وضخامة.. وكان أبرهة يهدف من وراء اصطحابها في جيشه أن يهدم بها الكعبة لتسقط دفعة واحدة وكانت خطته أن تطوق الكعبة بعدد من السلاسل الضخمة ثم تربط بعنق الأفيال ثم تؤمر بالتحرك فيهوي الحائط جملة واحدة.

ولست أدري ما إذا كان قد سبق استعمال هذه الطريقة في هدم ما يراد هدمه في بلاد أخرى؟.

ولكن من المؤكد أن هذه أول مرة يشاهد فيها سكان الحجاز هذا الحيوان العظيم.

ومن الغريب ما يرويه المؤرخون والمفسرون من اسم الفيل الكبير أو رئيس الأفيال محمود.

ولا شك أنه محمود بتصرفه فعندما تهيأ أبرهة لدخول مكة عبأ جيشه وهيأ فيله ووجهه ناحية مكة فجاء نفيل بن حبيب وهو أحد الذين أسرهم أبرهة في طريقه إلى مكة واستبقاه ليستفيد منه في التعرف على طرقات مكة جاء نفيل هذا حتى وقف إلى جواره ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل وقد زجروه ونهروه ليقوم فأبى فضربوه واستنصروا الله كل الوسائل ولكن دون جدوى فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ثم إلى المشرق ففعل كذلك ووجهوه إلى مكة فبرك.

وكانت هذه أولى المعجزات، تلتها بعد ذلك المعجزة الكبرى بمعجزة الطير الأبابيل التي تحدّث عنها القرآن الكريم، ومن الطريف أن ترتبط الحادثة الغريبة بأول عام في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم.

وبآخر عام في حياته الشريفة، ففي العام الذي وقعت فيه حادثة الفيل ولد النبي الأعظم وكان وقوعها كما سبق أن ذكرت إرهاصًا بمولد البشير النذير وإيذانًا بقرب غروب شمس النصرانية بعد أن سطعت قرابة ستة قرون.

كانت إيذانًا بقرب شمس جديدة قوية ساطعة ستغمر العالم وتظل ساطعة أبد الدهر.

وكانت إيذانًا بقرب اختفاء شمس ظلت مشرقة ما يقارب الستة قرون هي شمس النصرانية وأبرهة لم يعتزم هدم الكعبة إلا انتقامًا لنصرانيته ولكنيسته العظيمة التي

بناها إرضاء لسيده النجاشي وقال له «أنه لم يبن قبلها مثلها» ووصفها من رآها من العرب «بأنها رفيعة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء» وقد سماها العرب «القليس» لارتفاعها «لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وكان يهدف إلى أن يُضرب حج العرب إليها بدلًا من مكة ولكن العرب العدنانية والقحطانية أبت ذلك إباء شديدًا وغضب بعضهم فذهب إليها ودخلها ليلًا ولوثها، وبلغ ذلك أبرهة فأقسم ليسيرن إلى الكعبة وليخربنها حجرًا حجرًا.

وكانت الهزيمة التي مني بها أبرهة وجيشه هي الإرهاص بقرب بعثة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن أبرهة كان حاميًا من حماة النصرانية.

بينما كانت قريش عاكفة على عبادة الأوثان.

والنصرانية أقرب إلى الحق من عبادة الأوثان وتقديس الأصنام.

ولكن هزيمة أبرهة كانت انتصارًا للبيت العتيق الذي سيكون قبلة خاتم الأنبياء وكانت رمزًا لقرب انحسار النصرانية أمام مد أشرف الأديان وأعظمها وأخلدها.

وكما ارتبطت حادثة الفيل بأول عام في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد ارتبطت بآخر عام في حياته الشريفة - صلى الله عليه وسلم - فعندما وصل إلى مشارف مكة عام الفتح عند الثنية التي تهبط به إلى قريش بركت ناقته - صلى الله عليه وسلم - فزجروها فلم تقم فقالوا خلأت القصواء أي حرنت فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**ما خلأت القصوى وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل**».

صراع مع الفيلة:

قلت أن حملة أبرهة لهدم الكعبة كانت أول حملة يشهد فيها العرب إسهام الفيلة في المجهود الحربي.

وقد أتيح للعرب المسلمين أن يشهدوا حملة أخرى بعد مرور ستة وستين عامًا من حادثة الفيل أسهمت فيها الأفيال في المجهود إسهامًا كبيراً كان ذلك في موقعة القادسية وهي من أعظم المعارك في الإسلام ضد دولة الفرس.

وكان يقود المعركة البطل الإسلامي العظيم سعد بن أبي وقاص وقد زود الفرس جيوشهم بمجموعة كبيرة من الفيلة وقد لقى منها المسلمون في بداية المعركة أذى كثيراً لأن منظرها أخاف الخيل فتفرقت ونفرت ولم يجد المسلمون في ذلك الوقت الصعب وسيلة للتخلص من شرها إلا بأن أعدوا فرقة من رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما شعرت الفيلة بأنه لا ركبان عليها عادت إلى مواقفها وقد مات من جبهة المسلمين التي واجهت الفيلة في أول يوم من أيام المعركة خمسمائة رجل.

أما في اليوم الثاني من أيام المعركة فقد اهتدى المسلمون إلى حيلة غريبة فقد جاءوا بالإبل وجللوها وبرقشوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها الخيول تحميها.

وقد لقيت خيول الفرس من هذه الإبل في اليوم الثاني ما لقيه جنود المسلمين في اليوم الأول.

أما في اليوم الثالث فقد استعد الفرس بمجموعة أخرى من الأفيال كان لها أثرها في إزعاج خيول المسلمين وكان لا بد من اتخاذ موقف سريع وحاسم لأن الموقف صعب ودقيق وعليه تتوقف نتيجة الحرب، فانتدب لأكبر الأفيال رجلان من ذوي الجرأة والنجدة فتقدما إليه وأدخلا رمحيهما في عيني الفيل فنفض رأسه وطرح مَنْ فوقه ورفع خرطومه فضربه أحدهما بالسيف فقطعه ثم تقدما لفيل آخر وفعلا به ما فعلا بالأول فولّى راجعًا فتبعته الفيلة واخترقت صفوف الفرس فأضعفت تماسكهم وفوجئوا بما لم يكن في حسبانهم.

وقد انتهت المعركة بانتصار المسلمين بعد أن قتل منهم ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفًا.

ويذكر المؤرخون أنه لم يمر على المسلمين موقعة أشد هولًا منها.

ربيع الأول والتقويم الإسلامي:

عاش النبي الأعظم - صلى الله عليه وسلم - عيشة كريمة سلمية ثم كرمه الله بالنبوة والرسالة تطبيقًا للقاعدة التي لا شواذ لها والتي تقول «لا كرامة لنبي في وطنه» اضطر النبي العربي القرشي إلى الهجرة ومفارقة وطنه وقومه بعد أن لقي من ألوان المتاعب وصنوف الإيذاء ما يفوق الوصف وبعد أن فقد الأمل في نجاح دعوته في مكة فهاجر إلى المدينة.

وفي اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق ٢٠ من سبتمبر سنة ٦٢٢ وصل - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى واحة قباء الحي الجميل الخصب المخضوضر.

وهذا اليوم يعتبر أول يومٍ في تاريخ انتصار الإسلام يقول عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: الهجرة فرقت بين الحق والباطل.

ولذلك اتفق المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب على أن يجعلوا اليوم الذي وصل فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قباء إحدى مداخل المدينة مبدأ للتقويم الإسلامي، ونظرًا لأن السنة القمرية تبدأ ببداية المحرم فقد قدموا التاريخ شهرين ويومًا وإلا فالتاريخ الحقيقي للهجرة هو ما ذكرنا.

ويرى بعض العلماء أن الصحابة رضي الله عنهم أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿**لمسجد أسس على التقوى من أول يوم**﴾ وهو استنتاج طريف ودقيق.

تحت دوحتي الكبيرة

وجدتها أمامي.. وأنا في طريقي إليها.. إلى دوحتي.

وجدتها تخطر في أثوابها البراقة الأنيقة.. لا.. ليست غادة.. ولكنها مجلة.

مجلة تدعى «صوت الشرق».

ومجلة «صوت الشرق» مجلة تجمع بين فتوة الشباب ورصانة الشيوخ.

ففيها الفن الصحفي الجديد الذي يتجلى في تنسيق الصفحات وتجميل العناوين وإبراز الصور في مظهر فاتن آخاذ وفيها إلى جانب ذلك ثقافة أصيلة ومعلومات قيمة وأبحاث رائعة.

ومن أجمل ما يلفت النظر فيها عنايتها بنشر الشعر واهتمامها بتلخيص الأخبار الأدبية وهما موضوعان هامان بالنسبة للأدباء والمثقفين.

وأخذت العدد.. الذي وجدته أمامي.. وتحت دوحتي تصفحته فأعجبني فيه تلك الدعوة القوية.. والتي يدعوها اللواء صالح حرب، دعوة تهدف إلى تحفيظ الشباب العربي شعر الحماسة والمروءة.

وهي دعوة جاءت في وقتها.. فالشباب العربي منصرف عن التشبع بالذخائر الأدبية الممتازة من الشعر العربي إلى الاهتمام بألوان تافهة من الأدب الخفيف المكشوف الذي يدعو إلى التفسخ والانحلال.

ومن واجب المربين والمصلحين والقادة أن يولوا هذه الناحية اهتمامهم فليس أخطر على أخلاق الشبان من هذا الأدب الذي يتسم بالميوعة والضعف والانحلال.

ومن هذه الأغاني الداعرة التي لا تبث خلقًا كريمًا وإنما تنشر سمومًا تسري في دماء الشباب العربي لتقوده إلى الهاوية.

كما أعجبني ماجاء في كلام اللواء عن أقوى الكتب تأثيراً في نفسه وفكره وعاطفته وهو القرآن الكريم ثم الكتب التي تتحدث عن سيرة محمد - صلوات الله عليه ـ.

وأرجو أن يتأمل ذلك شبابنا الذي انصرف عن القرآن وحفظه، كما أرجو أن يتأمله إخواننا من مدرسي التاريخ وبعضهم لا يعطي هذه السيرة حقها من العناية ولا يهتم بتدريسها تدريسًا يرمي إلى تبيين أسرارها ودفع الطلاب إلى الاستفادة منها والتأسي بما فيها من ألوان التضحيات والمثل السامية والسير على هداه.

وقد أشرت فيما سبق إلى اهتمام مجلة صوت الشرق بالشعر اهتمامًا يلمسه القارىء بدون جهد أو مشقة وحسبنا أن نعلم أن العدد الذي بين يدي حوى إحدى عشرة قصيدة ومقطوعة وهو رقم كبير ولا شك تنشره مجلة في عدد واحد من أعدادها.

ومن القصائد المنشورة في هذا العدد قصيدتان جديرتان بالتعليق والتنويه والبحث، والقصيدة الأولى للشاعر القاص الروائي الأستاذ على أحمد باكثير أنشدها في الاحتفال بذكرى الشاعر الرائد «محمود سامي البارودي» وقد تقمص فيها شخصية الشاعر.

وهي قصيدة محكمة النسج متينة البناء تذكّرك حقًا بشعر البارودي وأضرابه من شعراء العصر العباسي، ولكنها رغم ذلك قصيدة رائعة يقول في مطلعها:

من الملأ العلوي في العالم الثاني ... إليكم تحياتي وشوقي وتحناني

ويستمر الشاعر في إرسال تحياته وتصوير شوقه إلى وطنه إلى أن يقول:

تساءلت ماذاك البناء الذي علا ... على كل صرح في الزمان وإيوان
تبحبح مابين الخليج وطنجة ... وما بين طوروس وأكتاف شمسان
فأطرب سمعي أنه مجد أمتي ... وأثلج صدري أنَّ صدري هو الباني
لإقرار سلم في البسيطة شامل ... وقسطاس عدل للشعوب وميزان
احقا بنى الفصحي تجمع شملكم ... فعدتم كما كنتم كمرصوص بنيان

لـكـم وطـن أقـطـاركـم وحـداتـه ... كأطياف ضوء الشمس من شت الوان
ألا فاحفظوه الدهر من كل معتدي ... ومـن كـل دسـاس ومـن كـل خـوان

وهكذا يسترسل الشاعر في الحديث عن هذا الوطن العظيم إلى أن يقول موجهًا حديثه للمحتفين به:

سلام عليكم إذ وفدتم لتحتفوا ... بشعري وتعلوا في نَديِّكُمُو شاني
عسى فيكم من لا يقاس بشعره ... قريضي ومن في الفضل يرجح ميزاني
ولكن معنى بالوفاء دعاكمو ... لتمجيد شعر محكم النسج رنان
شدوت به في عهد ضعف وفرقة ... وكثرة أعداء وقلة أعوان
وقوم كأهل الكهف طال سباتهم ... ودونهم الدنيا على فم بركان
من العرب الأقحاح لكن يسوسهم ... أعاجم عجم عن قريضي وتبياني
نظمت على نهج الفحول قصائدي ... لأنشر بيت الشعر من طي أكفان
وأنفي عنه عجمة الحقت به ... غثاثة أغراض ورقة بنيان
لئن قل جهدي فاقبلوا عذر رائد ... بأرض خلاء من نبوغ وإحسان
وهل كنت إلا الفجر إن قل نوره ... فقد جاء من شمس النهار ببرهان
بحسبي تمهيدي لشوقي وحافظ ... وإبداع عباس وإمتاع مطران
ولو عشت في عهد عظيم كعهدكم ... لأطربت أسماع الزمان بألحاني
لأنطقني الأبطال فيكم ملاحما ... يفوق بها ديواني هومير ديواني

وفي هذه الأبيات يحدد باكثير مكانة البارودي في الشعر العربي تحديدًا دقيقًا لا نعتقد أن هناك من النقاد من يخالفه أو يعترض عليه.

ثم يختم قصيدته العظيمة بهذه الخاتمة الرائعة فيقول :

وددت لو أني عدت للأرض بينكم ... لتشهد محيا أمّة العرب اجفاني
لأحمل سيفي في طليعة جيشها ... بأرض عمان أو بأنحاء وهران
لعلي إذا ما كلل العز امتي ... تفارقني ذكرى هواني بسيلان
ولست أبالي إذ أجاهد دونها ... بأي ثرى من أرضها الموت يلقاني

فأحيا بدار الخلد جذلان راضيا بغير رسيس من هموم واشجان

متى ظفرت بالعز أقطار يعرب جميعا فعندي الخلد والأرض سيان

بهذا البيت تنتهي هذه القصيدة الرائعة حقًا والتي لا شك في أن الأدباء والمتأدبين سيجدون في قراءتها روعة ومتعة وستذكرهم برائد عظيم من رواد الشعر العربي الحديث كما تذكرهم بأديب لامع له آثار أدبية سيكتب لها الخلود وهي بعد هذا وقبل هذا ترتبط بالدعوة التي سبق أن أشرنا إليها في أول الحديث.. دعوتي إلى العناية بأدب القوة.

تحت دوحتي الكبيرة

تحدثنا عن اهتمام مجلة صوت الشرق بالشعر العربي وأشرنا إلى قصيدة الأستاذ باكثير التي قالها على لسان البارودي بمناسبة الاحتفال بذكراه ونعود اليوم إلى الحديث عن قصيدة أخرى للشاعرة العراقية الدكتورة «عاتكة الخزرجي» بعنوان «شهرزاد» تقول فيها:

واطلـــت تـأخــذ القلـــب بدل عربي
من بنات البيد تسبيك بقـد سمهري
لوحتها الشمس فازدانت بلون شفقي
ولحاظ تفضح الليل بســـحر عبقري

وبدت اندى من الورد وأشهى للعيان
تمـلأ الليـل ترانيــم كرنات المثـاني
في أقاصيص بها كانــت أساطير الزمان
رددت في كـل أذن وعلى كـل لســان

أنت من أنــت أطيف لائح للسامرين؟
أخيــال أنـــت أم تــراءى كيقـــين
كبنات الأنس قد كونت من ماء وطين
وصبــاك النضــر لما يفنه كر السنين

ولمن ترويـن هذي القصص الكثـر اللطاف
تقطعـين الليل يقضي والورى حولك غاف
وتذوبيـن متـى حـدثـت وجدا وانعطاف
ويلف الصمت أصداء هـوى يندي عفاف

أنـا بنـت الدهر من سير بذكرى في البلاد
أنا اسطـورة حـب رددت في كـل نـاد
وفتاي الفرد طفـل صامـت صعب القياد
شهريار هـو يـارب وهـذي شهـرزاد

وتستمر الشاعرة المبدعة في قصيدتها الرائعة الجميلة التي تنساب كالجدول السلسل العذب الذي يطرب السمع ويروي الظمأ ويهز الفؤاد.

وقد تعمدت أن أنقل للقراء كل هذا القدر من القصيدة لأمتعهم بهذا الشعر الجميل.

ومن العجيب أن ينصرف الشعراء عن هذا الشعر الذي يشبه رنات المثاني إلى نوع عجيب من الشعر - إن صح أن يسمى شعرًا - نوع مضطرب متهافت لا تقوى الذاكرة على حفظه والأذن على استساغته.

وأنت تقرأ قصيدة «شهرزاد» هذه فتنتشي لهذه الموسيقا الرائعة ولهذا التصوير البديع وتبحث في أبيات القصيدة فلا تجد تكلفًا ولا فضولًا ولا هذرا.

وأنت تقرأ بعد ذلك بعضًا من هذا الشعر الذي كثرت أسماؤه ولكنها كثرة على طريقة ذاك الذي يقول عن القط، ما أكثر أسماء القط وما أقل القط نفسه فتعجب للوقت الضائع والجهد المبذول في غير نفع أو جدوى أو هدف.

والمتتبع لهذا اللون من الشعر الذي تذيعه المجلات وتنشره المطابع يجد وسط هذا الغثاء الكثير طاقات من الإبداع والنبوغ ولكنها ضائعة وسط هذه «المظاهرة» من الشعر الجديد الذي لا يقوم على أساس سوى دعوى بالابتكار والجدة.

ولنتصور مدى الخسارة التي مني بها أدبنا حين نقدر هذه الطاقات ومدى ما كانت تستطيع تقديمه لأدبنا لو اتجهت اتجاهًا صحيحًا ولم تنخدع بمظاهر من الأسماء ولم تندفع وراء فكرة التجديد البراقة خوفًا من أن تتهم بالتقليد أو الجمود.

إنها خسارة فادحة ولا سبيل إلى نكرانها أو التهوين من شأنها.

ولكن مما يبعث على التفاؤل أن نجد طائفة كريمة من الشعراء لم تجرفهم العاصفة ولم يزلزل أقدامهم هذا التيار بل وقفوا كالعمالقة يحفظون للشعر كرامته وينشرون باقات رائعة منه فيها تناسق وفيها عطر وفيها جمال وفيها خصائص الشعر العربي الأصيل.

وفي العدد الأخير من مجلة الآداب باقتان رائعتان جديرتان بكل تقدير.

ومن أعاجيب هذه المظاهرة التي تحدثنا عنها أن أحد النقاد ممن يتعصبون لهذا اللون من الشعر كتب ينقد قصيدة لأحد الشعراء فكانت التهمة التي وجهت لقصيدته أنها نظمت على النهج التقليدي.

كأن هذا النهج جريمة لا تغتفر وكأن السير على هذا النهج وقف عقبة في طريق العبقريات الخلاقة، عبقرية المتنبي والمعري وأبي تمام وأضرابهم في العصر القديم وعبقرية شوقي وإيليا أبو ماضي وعلى محمود طه وغيرهم في الأدب الحديث.

أنها محنة يجتازها الشعر ونأمل أن تنتهي بسلام.

تحت دوحتي الكبيرة

رأيته وأنا في طريقي إليها.. إلى دوحتي في إحدى الأمسيات، كان يسير سيرًا هادئًا متثاقلًا وكان كعادته ينظر إلى الناس.. وكأنه لا يراهم.

نعم إنه ينظر إليهم بجميع عينيه إن صح هذا التعبير.. ولكنه يحاول أن يتظاهر بأنه لم يرهم.

ومر بجانبه شاب نابه، سمح النفس، رضي الخلق، واسع الثقافة، وبادر هذا الشاب بالتحية مشفوعة بابتسامة نقية صافية تنبع من قلب مطمئن يحب الخير للناس ويحمل في أطوائه شعورًا بالرضا.

ويسعد حين يتمكن من مساعدة أخ أو معونة مواطن.

ورد عليه ذاك تحيته مقتضبة لم تزد على هز الرأس هزًا خفيفًا وتحريك الشفتين تحريكًا لم يصحبه أي كلام وظل - كما يريد أن يظهر للناس - عابس الوجه منقبض العضلات وسار كل منهما في طريقه.

وسرت أنا في طريقي.. إلى دوحتي.. بعد أن رأيت المنظر الذي وصفته للقراء، ولأمر ما، ظل هذا المنظر عالقًا بفكري.. لم يشغلني عنه.. منظر الوادي الجميل في يوم رائع كأنه هرب من الجنة.. ولم يشغلني عنه مناظر أخرى رأيتها وأنا في طريقي إلى دوحتي كان بعضها كافيًا لأن يوجه انتباهي إليها ولكن.. لأمر لا يزال خافيا عني.. ظل المنظر يحتل أكبر جزء من اهتمامي.. وتركت «ديوان الشعر» الذي كان في يدي وكنت مزمعًا أن أقرأه أو بعضه تحت دوحتي.. وانصرفت عن الاستمتاع

بالمشاهد الطبيعية الرائعة التي صنعها الله لخير الإنسان وأخذت أفكر في المشهد الذي حدثت القراء عنه.. والذي سأزيدهم حديثًا عنه ففيه متعة وفيه طرافة.

وأنا أعرف الشابين معرفة تامة وأعرف الكثير عنهما.. ولعل في هذا بعض السر في انصرافي إلى التفكير فيهما والاهتمام بشأنهما.. ولكنني سأهمل الحديث عن أحدهما لأقصر حديثي على الآخر وهذا الآخر الذي أعنيه.. هو ذلك الشاب الذي وصفته في أول الحديث بأنه يرى الناس بجميع عينيه ولكنه لا يراهم أو يتظاهر بأنه لا يراهم.

ولست أدري أي الأمرين أصدق ولكن القراء سيعرفون ذلك وسيصلون إلى النتيجة عندما يقرأون باقي الحديث.

هو شاب ذكي ما في ذلك شك.. لم تساعده ظروفه على مواصلة تعليمه.. ولكنه مع ذلك وصل إلى مرحلة طيبة في التعليم.. وعنده زيادة على ذكائه وتعليمه وهما سلاحان ماضيان في هذه الحياة، عنده مؤهلات أخرى من مؤهلات النجاح.

ولو استعمل جميع أسلحته بحكمة ولباقة لكان قد قطع شوطًا بعيدًا في مضمار النجاح ولكان ممن يشار إليهم لا بالبنان كما كانوا يعبرون قديمًا ولكن بجميع أصابع اليد.. غير أنه ولأمر ما أصيب بمرض خطير.. ولعل كلمة «خطير» لا تؤدي الوصف الصحيح لهذا المرض.. فمرضه من الأمراض الفظيعة المستعصية التي لا يستطيع معالجتها إلا نوع خاص من الأطباء.. بعد جهد جهيد وزمن طويل.. كما سيرى القراء.

لقد اتصل صاحبنا ببيئات كثيرة، وتعرَّف إلى شخصيات لها أهميتها في المجتمع، وصادق مجموعة كبيرة من الأصدقاء وكان المأمل أن يسير في طريق التقدم وهو طريق سهل معبَّد بالنسبة لمن يملك كل هذه المؤهلات.. ولكن هذا المرض اللعين وقف في طريقه ومنعه من السير.. ولعل القراء يتساءلون عن هذا المرض الخطير ويتساءلون بعد ذلك عن السبب في عدم المبادرة لعلاجه مهما كان خطيراً أو مستعصيًا.. وأعتقد أنهم سيدهشون كثيراً إذا عرفوا هذه الحقيقة الغريبة وهي أن

صاحبنا يجهل كل الجهل أنه مصاب بهذا المرض العجيب الذي سيعرفه القراء بعد قليل.. ومن الطبيعي ألا يبادر صاحبنا إلى العلاج منه لأنه لا يعرف أنه مصاب به.. وهذا وجه آخر من أوجه الخطورة لهذا المرض الفتاك.

وأصدقاء صاحبنا فيما يبدو لا يعرفون أيضًا أن صاحبهم مصاب بهذا المرض وهم لذلك لا يحاولون أن يتقدموا بالنصح له ليبادر إلى معالجة هذا الداء الذي لا يرحم.

صحيح أنهم ينصرفون عنه واحدًا بعد الآخر لأسباب يرون ظاهرها ولكنهم لا يعرفون مصدرها الحقيقي.. ويكتفون بهذا الإنصراف.. وهذا وجه آخر من أوجه الخطورة في هذا المرض المدمر. ولا يبقى معه إلا المصابون بهذا المرض نفسه، وهم يتفقون معه في الإصابة بهذا المرض، وفي جهلهم أنهم مصابون به.

أما هذا المرض الذي طال شوق القراء إلى معرفته.. أما هذا المرض الهدام فهو مرض نفسي.. والأمراض النفسية - كما يعلم القراء - تحتاج إلى مجهود كبير، ووقت طويل، وصبر لا حد له.. وربما ذهب ضحية معالجتها الطبيب نفسه قبل المريض.. كما حدث للطبيب النفساني العظيم الدكتور «أبو مدين الشافعي» الذي استشهد في الشهر الماضي بيد أحد مرضاه من المنحرفين الذين كان يعالجهم، ويبذل من جهد ووقته وعلمه وخبرته كل ما يملك في سبيل إنقاذهم من عالم المرض والشر والإجرام، إلى عالم الصحة والخير والفضيلة.. ولعل القراء بدأوا يشاركوننا الرأى في خطورة هذا الداء وقسوته، بعد أن علموا الفصيلة التي ينتهي إليها هذا المرض.

أما المرض نفسه فهو مرض ينشأ من عوامل كثيرة.. لا نعتقد أن الوقت يسمح لعرضها وتحليلها.. ولكن هذا المرض غير نادر الحدوث.. بل تحدث به إصابات كثيرة إلا أن في الإمكان معالجتها إذا عرفت الإصابة في وقت مبكر جدًا وإذا وجد

الاختصاصي الماهر ومن هنا تبدو أهمية الدراسات النفسية بالنسبة للمربين والمتتبعين لشؤون التربية والتعليم.

ففي إمكان المعلم والمربي معالجة هذا المرض وغيره من الأمراض النفسية التي تصبح - إذا طال عليها الزمن - أمراضًا مزمنة مستعصية أو على الأقل في إمكانهما التنبه إليها وبذلك يمكن معالجتها والحيلولة دون انتشار هذه الأمراض التي تعرض سلامة المجتمع للخطر.. ومن هنا تبدو لنا قيمة المربين ورجال التعليم وأثرهم في النهضة والإصلاح.

ومن هنا تبدو لنا أهمية العناية بإعداد المدرسين واختيارهم.. ومن هنا تبدو لنا أهمية تقدير المعلم ورفع مستواه المادي والمعنوي.. ومن هنا يبدو لنا أن أي تقصير في حقهم مهما كان نوع هذا التقصير يعتبر جناية في حق المجتمع العام.. على أن هذا موضوع آخر سنعود إليه مرة أخرى.

فلنرجع إلى الحديث عن المرض الذي طال الشوق إلى معرفته.. والذي نعتقد أن أكثر القراء قد بدأوا يستجمعون قواهم ويتعاهدون على بذل كل جهد وتقديم كل مال في سبيل القضاء عليه.. ونرجو لهم التوفيق.

أما هذا المرض فيمكن أن نسميه «مرض الحقد على الناجحين» وصاحبنا الذي تحدثنا عنه مصاب إصابة خطيرة بهذا المرض، إصابة تغلغلت في دمه وأعصابه وفمه.

فهو دائم التفكير في هؤلاء الناجحين وخاصة أولئك الذين يعرفهم أو تربطه بهم رابطة أو جمعته معهم ظروف أو مصادفات.

فهو يفكر فيهم تفكيراً هدامًا حانقًا يقطر سمًا وحقداً ومرارة وهذا التفكير الأسود جعله يدور حول نفسه في دائرة ضيقة لا يستطيع تجاوزها «كثور الطاحون»، فهو ينظر إلى الناس بجميع عينيه ولكنه لا يراهم لأن ذهنه لا يكف عن التفكير فهو في شغل عنهم بأفكاره السوداء التي تعصف بكيانه وتسود الدنيا في عينيه وتمتص الحيوية من جسمه وقلبه وروحه.

وهو في دوامـــة عنيفـــة تجعـــله دائمًا مصـــابًا بنـــوع مـــن الدوار العنيف الذي لا يبدأ في الهدوء حتى يعود عنيفًا أشد العنـــف عندما يرى بعينـــه الضيقـــة إنسانًا ناجحًا.

إنه إنسان مريض في حاجة إلى علاج.. أنه شخص مسكين في حاجة إلى العطف... فرد ضعيف في حاجة إلى رعاية.

فلندعُ له ولنصلِّ من أجله.. فلعل الله القوي العظيم أن يمن عليه بالشفاء والعطف والرحمة.

تحت دوحتي الكبيرة

كان المساء جميلًا.. وكانت النسمات العذاب المنعشة ترود الوادي ذاهبة آيبة تهز أغصان دوحتي هزًا لينا رقيقًا فتتمايل في هدوء محدثة صوتًا رقيقًا يكون مع سعة الوادي والشجيرات المتناثرة هنا وهناك وتلك الأنوار الخافتة الآتية من بعيد وتلك النجوم الزاهرة في السماء الصافية تكوّن كلها سمفونية رائعة لاتقل في جمالها وعذوبتها عن أي سمفونية صاغها إنسان.

وقد شعرت بنشوة بالغة وخدر لطيف شمل كياني وهدهد أعصابي المرهقة وكان ذلك خليقًا بأن يجعلني أستمتع بأمسيتي تحت دوحتي استمتاعًا لا حدّ له.

ولكن فكرة ظلت عالقة بذهني تلح عليّ إلحاحًا متصلًا وكلما حاولت طردها اختفت فجأة لتعود مرة أخرى، وهكذا قدر علينا - معشر الكتاب والمفكرين - أن نظل في تفكير متصل لا حدّ له ولا نهاية حتى في اللحظات القليلة التي نختلسها لنتزود بقسط من الراحة والاستجمام.

أما هذه الفكرة فهي المناقشات التي دارت في الشهر الماضي في بعض الصحف حول موظفي السنترال وما قام به بعض أصحاب الأعمال من هجوم وما قابلهم به الموظفون من دفاع.

والمسألة في نظري ليست مسألة موظفي السنترال وحدهم ولكنها مسألة أعمق من ذلك بكثير إنها مسألة الموظفين عمومًا بعبارة أدق مسألة علاقة الموظف بالجمهور ومدى فهم الطرفين لهذه العلاقة.. وإذا كان موظفو السنترال في وجه المدفع دائمًا

وإذا كانوا هم معرضين بصورة مستمرة للنقد والهجوم فما ذلك إلا لأنهم أكثر علاقة بالجمهور ومصالحه التي لا تحتمل التأجيل.

وعلاقة الموظف بالجمهور موضوع يستدعي الكثير من اهتمام الباحثين ورجال الإصلاح.

فلا تزال العلاقة غير واضحة فهناك موظفون محدودو الثقافة ينظرون إلى أنفسهم نظرة عجيبة ويتصورون أنهم إنما وضعوا في هذه المناصب ليصدروا الأوامر ويظهروا سلطانهم ويتحكموا في خلق الله.

وهم في ضوء هذا الفهم يعيشون بهذه النظرة يعملون فيقضون ما شاءوا من حوائج الناس ويرفضون ما شاءوا ويؤجلون ما شاءوا.

ويحضرون إلى مكاتبهم ويخرجون منها في الأوقات التي تحلو لهم وحتى إذا ألزموا ساعات محدودة فإنهم يقضون هذه الساعات حاضرين كغائبين يعلوهم الضجر والتذمر والتبرم يتحدثون بأطراف ألسنتهم ويكتفون بإشارة اليد ومط الشفتين وتحريك الحاجب ولا ينجزون من الأعمال إلا القليل.

وعندي من الأخبار والحوادث في هذا الصدد ما يملأ صفحات ولكن المجال لا يتسع لها، وهناك موظفون من نوع آخر موظفون يشعرون في قرارة نفوسهم بأنهم مظلومون وأن حظوظهم السيئة هي التي قادتهم إلى العمل في هذه الوظائف الصغيرة وهؤلاء يتوجسون شرًا من كل مراجع ويتوقعون في كل كلمة استخفافًا وفي كل حديث انتقامًا وهذه الطائفة على استعداد دائمًا للأخذ بحقها المهضوم ولكيل الصاع صاعين وللتعبير بكل الأساليب عن أهميتها والويل لمن أخطأ ووقع تحت أيديها فإنها تعمل عندئذ كما قال الحسن بن هانيء:

وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... فتكت كذلك سورة الضعفاء

وبين هاتين الطائفتين من الموظفين طوائف أخرى بعضها يقترب من الطائفة الأولى والبعض الآخر يقترب من الطائفة الثانية علوًا وهبوطًا.

وقليل جداً أولئك الموظفون الذين يؤدون عملهم على أكمل وجه، وأحب أن أقرر أن الأعمال التافهة في نظر الجمهور هي أعمال هامة لا تقل أهمية عن الأعمال العظيمة، وأحسب أن الأمر يحتاج إلى بعض الإيضاح فالكنّاس مثلًا وعمله من الأعمال التافهة في رأس الناس ولكن لو تدبر الناس لعلموا أن عمله لا يقل أهمية عن أعظم الأعمال.

وليتصور القارىء ما يحدث لو امتنع كناسو مدينة من المدن عن العمل في الشوارع وفي المكاتب إنه عند ئذ لا سبيل إلى التخلص من هذه الأزمة إلا أن يترك الناس أعمالهم لتنظيف الشوارع وإلا أن يترك الموظفون مكاتبهم لتنظيف الغرف.

وليتصور القارىء بعد ذلك الفوضى التي ستنشأ عن ذلك والأسباب التي تملي على الكثرة الكاثرة من الموظفين طريقتهم في معاملة الناس أسباب كثيرة وعميقة الجذور لا يتسع المجال في الإفاضة في الحديث عنها وحسبنا أن نذكر من تلك الأسباب: ضآلة الثقافة. وضعف الوازع الديني وتأثير الأفكار القديمة التي كانت تفضل بعض الطبقات على بعض هذه الأمور التي لا تمت إلى التقوى والعمل الصالح بسبب، وإنما تمت إلى امتيازات ما أنزل الله بها من سلطان.

ويملك العلماء والمصلحون علاج هذه الأسباب وغيرها وإن كانت فترة العلاج ستطول كثيراً.

واقترح أن تنشىء الدولة مدرسة للموظفين(١) أيًا كان نوعهم يقضي فيها المرشح لوظيفة عامة سنة أو أكثر يدرس فيها طريقة معاملة الناس ويتفهم فيها حقيقة وظيفته ويعلم جيداً أنه خادم للجمهور ويفهم تمامًا ما تتطلبه خدمته للجمهور من

(١) كان هذا الاقتراح وقت أن كانت الحاجة ماسة إلى ذلك، أما الآن فقد شملت النهضة التعليمية كل متطلبات احتياجات التطوير، وقد عاصر المؤلف «يرحمه الله» الكثير من ذلك.

صبر وبشاشة وتضحية وتعاون ويخضع أثناء دراسته لاختبارات قاسية لا رحمة فيها ولا هوادة حتى يصقل وتتقلم اظفار غطرسته وتعاليه.

ويدرس في هذه المدرسة النصوص الدينية التي توضح له دور الإنسان في الحياة والواجبات الدينية والخلقية التي يفرضها الإسلام على معتنقيه.

ولقد جرنا الحديث فنسينا موظفي السنترال وأنا أوثر أن أسميهم موظفي السنترال بدلًا من مآمير ومفردها مأمور، ويبدو لي أن كلمة «مأمور» هذه توحي إلى الموظف بطريقة لا شعورية بأنه موظف يختلف عن بقية الموظفين فهو دونهم «مأمور» وعليه أن يتلقى الأوامر من كل أحد.. وهذا «المأمور» يتصرف أحيانًا عمدًا وأحيانا عن طريق اللاشعور تصرفات تحمل في معانيها التخلص من هذه الأوامر التي تجعله دائمًا «مأمورا» واثبات أنه يملك في كثير من الأحيان أن يكون آمرا لا «مأمورا» ولعل هذا هو السر في تلك الكلمات القاسية التي ينصحُ بها بعض موظفي السنترال الجمهور وخاصة أولئك الذين يمتازون برقة الشعور ولطف الحديث.

حتى لقد شاع بين الناس أن المتكلم الذي يتحدث بعنف ويطلب طلباته بشدة وحزم هو الذي يحترم ويجاب إلى طلبه.

على أنني أشهد لوجه الله أن بعض موظفي السنترال بالمدينة يكادون يذوبون رقة ولطفًا في حديثهم وفي إجابة الجمهور لطلباته وكم تمنيت أن تسمح لي الظروف فألقاهم لأشد على أيديهم مهنئًا وشاكرًا ولأعبر لهم عن شعور الامتنان الذي أحمله ويحمله الجمهور لهم.

وهناك موظفون آخرون لم يحضروا للعمل ولكن جاءوا لمخاصمة الجمهور وإثارته وتعطيل مصالحه ولا أريد أن أذكر الأن أسماء ولا أن أحدد أشخاصًا وحسبي هذه الاشارة وربما كان لموظفي السنترال بعض الأعذار الفنية في تأخير طلبات الجمهور ولكن لا عذر لهم أبدًا في الجواب السخيف أو الكلمات النابية أو الألفاظ التي لاتليق.

إن الكلمة الطيبة تفعل في الإنسان فعل السحر وتذلل كثيــرًا من العقبات وتخفف كثيراً من المشاكل وتخلق علاقات طيبة بين المواطنين.

وإني أرجو من المسؤولين أن يحذفوا كلمة «مأمورا» ولا أشك في أنه سيكون لحذفها أثر كبير في نفوس موظفي السنترال.

وأذكر أن أحد النقاد نقد كلمة لشوقي وردت في بيت له يقول فيه مخاطبا الشمس:

ولـــدت لـــه المـآمـيـن الـدواهـــي ولـــم تـلـدي لـــه قـــط الأمـيـنـــا

فلم يستسغ الناقد كلمة «المآمين» واعتبرها كلمة غير شعرية ومثلها يقال عن «المآمير» فهي على وزنها لفظة جاثية ثقيلة على السمع وثقيلة على النفس فإذا أضيف هذان الثقلان إلى ثقل... الآلات القـــديمـــة أصبحـــت الحيـــاة ثقيلة لا تطاق بالنسبة لموظفي السنترال.

وإلى أن يتقرر حذف هذه الكلمة وإلى أن تفتح مدرسة الموظفين المقترحة أحب أن يتدبر المواطنون جميعًا موظفين وغير موظفين هذه النصوص الكريمة وأن يقرأوها بعيونهم وقلوبهم وأن يعملوا بها وأنا ضامن لهم الحياة الهادئة الكريمة الخالية من كل شر أو نزاع أو شغب.

قال الله تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن**﴾.

وقال جل ذكره ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾.

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

وروي عنه - عليه الصلاة والسلام: «**طوبى للمخلصين: أولئك مصابيح الهدى تنجاب عنهم كل فتنة ظلماء**».

وقال عليه السلام: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن نفَّس عن مسلم كربة نفَّس الله عنه كربة يوم القيامة**».

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**».

وروي عنه - عليه السلام: «**الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**».

وروي عنه - عليه السلام: «**إن الله يبغض المعبس في وجه إخوانه**».

وقال عليه الصلاة والسلام «**خير الناس أنفعهم للناس**».

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**».

وروي عنه - عليه السلام: «**رأس العقل بعد الإيمان بالله التحبب إلى الناس**».

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن لله عباداً يفزع إليهم الناس في قضاء حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله**».

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن لله عند قوم نعماً استودعها إياهم ما كانوا في حاجة المسلمين فإذا ملوهم رفعها عنهم**».

وقال عليه الصلاة والسلام: «**الدين النصيحة. قلنا لمن يارسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**». صدق رسول الله.

أشعة الفجر(*)

مشروع إحياء ذكرى رجالات العرب

رفعت في دمشق اللجنة المكلفة بتحقيق مشروع إحياء ذكرى رجالات العرب وإقامة نصب وتماثيل لهم في ميادين المدينة وساحاتها تقريرًا بأسماء رجالات التاريخ العربي الذين يجب إقامة تماثيل ونصب تذكارية لهم.

وقد تقرر إقامة تمثالين في هذا العام أحدهما لمعاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة العربية الأولى في دمشق.

والثاني للسلطان المجاهد البطل صلاح الدين الأيوبي.

هذا موجز الخبر الذي نشرته إحدى مجلات لبنان والفكرة كما يرى القارىء نبيلة الغرض حسنة المقصد.

تحمل كثيراً من معاني التكريم لشخصيتين لامعتين من شخصيات التاريخ الإسلامي المجيد.

أنشأ أولهما دولة عربية إسلامية نشرت الإسلام في أكثر أقطار الأرض ورفعت لواء المسلمين خفاقًا مدة قرن من الزمان.

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة الخميس ١٥ من ربيع الآخر ١٣٧٢هـ الموافق ٣٠ من ديسمبر ١٩٥٢م، العدد (٤٦٥) تحت توقيع «جامعي».

أنشأ هذه الدولة بعزمه وعقله ودهائه المنقطع النظير.. ووقف ثانيهما كالجبل الأشم في وجه الجحافل المتدفقة من أوروبا - جحافل الصليبيين واستنقذ بيت المقدس من أيديهم وطهَّره من أرجاسهم.

إن هذا الوقت هو أنسب الأوقات لنشر أمجادنا القديمة وإشعال نار الحقد في قلوب أبنائنا ضد أعدائنا فها هم اليهود يتجمعون. بقرب بيت المقدس وها هم المستعمرون يتآمرون ضد المسلمين في شمال أفريقيا.

ونحن ندعو بكل إخلاص إلى تكريم كل بطل من أبطال الإسلام وكل عظيم من عظماء العرب ولكننا نؤثر أن يكون هذا التكريم في صورة تتفق مع مبادىء الإسلام من جهة وتفيد المواطنين في دينهم ودنياهم من جهة أخرى.

فأي فائدة نجنيها من وراء إقامة تماثيل من الرخام أو البرونز؟ أليس من الأفضل أن يطلق اسم معاوية العظيم على مدينة أو جامعة أو مكتبة عظيمة أو مشروع ضخم وأن تسمى إحدى الكتائب القوية أو الكليات العسكرية أو نوع هام من السلاح باسم صلاح الدين البطل - بطل حطين هذا ما أعتقده ولا شك أن أكثر القراء يوافقونني عليه.

أشعة الفجر(*)

وقفة البطل صلاح الدين مع الصليبيين

أشرت في حديثي السابق إلى الموقف العظيم الذي وقفه البطل الإسلامي صلاح الدين في وجه الصليبيين وقد رجعت إلى نفسي بعد كتابة المقال وأخذت أستعرض تاريخ هذا البطل وتاريخ غيره من أبطال المسلمين وقادني التفكير إلى موضوع آخر هو دراسة التاريخ وقد راعني ما لاحظته من أن التاريخ الإسلامي يدرس في أكثر البلاد العربية دراسة هزيلة تافهة وهو في نظر كثير من المدرسين والطلبة مادة ثانوية لا يقام لها أي وزن وكان الأجدر بنا نحن في مستهل نهضة جديدة أن ندرس هذا التاريخ دراسة تفصيلية ومن دواعي الفخر أن الباحث في التاريخ الإسلامي لا يكاد يمر بحقبة - حتى في أشد عصور الإنحطاط- إلا ويعثر فيها على مُثُلٍ رائعة للشجاعة والصبر والجهاد والتضحية وحب العلم.

فلو عنينا بإبراز هذه المثل وأزلنا عنها غبار الزمن ووضعناها في إطارها اللائق لقدمنا لأبنائنا وللعالم صورًا رائعة مشرقة عن الإسلام وأثره في النفوس وتأثيره في العالم ولأثبتنا بالدليل القاطع الذي لا يقبل الجدل أصالتنا في دنيا المجد والعظمة ولصححنا كثيراً من الأخطاء الشائعة عن أوطاننا وتقاليدنا ولمحونا الأوهام التي نشرها المغرضون والأعداء عن العرب والإسلام.

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الخميس ٢٢ من ربيع الآخر ١٣٧٢هـ الموافق ٨/١/١٩٥٣م العدد (٤٦٦) تحت توقيع «جامعي».

أنا لا ألقي القول جزافًا فإن جهل العرب والمسلمين بدقائق تاريخهم من الأشياء البارزة التي يستطيع أن يلمسها كل مثقف وإني لأذكر - والأسى يملأ جوانحي - كثيراً من المحادثات والمناظرات التي قامت بيني وبين بعض الشباب العربي في مصر وغير مصر عن الإسلام واللغة العربية وإنه ليحزنني أن أكتب هنا ما سمعته من آراء نشرها بعض المستشرقين ومن يدور في فلكهم من الأذناب والأتباع وهي آراء يمليها الغرض والهوى وعداوة الإسلام.

ألا ليت المسلمين يدرسون تاريخهم بما يستحق من عناية إذًا لقطعوا أشواطًا بعيدة في طريق التقدم ولوثقوا بأنفسهم ولآمنوا بأنهم أهل لقيادة القافلة البشرية التي تتخبط الآن في متاهة القلق والاضطراب إلى شاطىء السلامة وبر الأمان.

أشعة الفجر(*)

باكستان أرض الطاهرين

فوجئت وأنا أستمع في الأسبوع الماضي إلى إحدى محطات الإذاعة بنبأ عن باكستان أرض الطاهرين - يقول إن عمال باكستان الغربية قدموا إلى المستر اتلي زعيم حزب العمال البريطاني بمناسبة زيارته كراتشي وحلول عيد ميلاده السبعين - قدموا له زجاجة نبيذ فضية ومعها عدد من الكؤوس.

لقد فوجئت حقًا فإن الصورة التي في أذهاننا عن أرض الطاهرين بلاد جناح ولياقت وإقبال صورة رائعة مشرقة وشعب باكستان في نظرنا شعب مؤمن يطبق في حماس وإيمان مبادىء الإسلام الصحيحة ويسير في خطى ثابتة نحو المجد اللائق بالمسلم وإني لأذكر كيف أن أستاذًا عظيمًا من أساتذتنا في الجامعة المصرية قرر أن يترك منصبه العلمي الممتاز في مصر ليذهب إلى باكستان أستاذًا في إحدى جامعاتها حبًا في باكستان وإعجابًا بشعبها.

ومن هنا كانت المفاجأة شديدة بالنسبة لي فقد آلمني أن تكون هدية عمال باكستان زجاجة نبيذ - وكنت أوثر - إن كان لا مناص من تقديم هدية، أن تكون شيئًا يدل على ثقة هذه الأمّة العظيمة المسلمة بنفسها واعتزازها بدينها وحبها لوطنها الإسلامي الكبير.

(☆) نشرت في جريدة المدينة المنورة يوم الخميس ١٣ من جمادى الأولى ١٣٧٢هـ الموافق ١٩٥٣/١/٢٩م العدد (٤٦٩).

سيهز بعض ضعفاء النفوس رؤوسهم استخفافًا بهذا الحديث، ولكن عليهم قبل كل شيء أن يقرأوا هذه السطور التي كتبها أحد الكتَّاب في مصر عن ألمانيا - يقول الكاتب «روى لي أحد الأصدقاء الضباط أنهم في الطريق كانوا يسيرون وحين تعلو ضحكاتهم الصاخبة إلى حد لفت أنظار رجل الشارع الألماني فتقدم إليهم مواطن ألماني وقال لهم في صوت مهذب خفيض: إنكم أيها السادة في بلد حزين بلد جرح في كرامته بعد هزيمته في الحرب وينبغي أن تحترموا شعوره وتقدروا ظروف أهله. إننا سنظل نكظم الثأر في نفوسنا ونحتفظ بمسحة الألم حتى نستطيع أن نسترد كرامتنا - إننا نربي أبناءنا على حب ألمانيا والاحتفاظ بشعارها «ألمانيا فوق الجميع» إننا نصحبهم إلى الخرائب والأطلال المتخلفة من طائرات الأعداء لنذكرهم بما دُرس من بناء وبما تقلص من ظل وبما زال من مجد ليشبوا عاملين على استرداده ونحن نذكي فيهم النار ونورثهم الحقد على الأعداء ونبعث فيهم الشرر يتطاير من عيونهم لا يهدأون حتى يعوضوا ألمانيا ما فقدته».

نعم هذا في ألمانيا وألمانيا تتلقى المساعدات من الشرق والغرب أما نحن هذه الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها فإننا لا نكترث لشيء بل نصنع كل ما من شأنه أن يضعف قوانا ويحط من كرامتنا ويجعلنا في موقف الذليل المستضعف.

ألا إن واجب كل مسلم أن يكظم الغيظ والثأر في نفسه ويحتفظ بمسحة الألم ويربي أبناءه على حب الوطن الإسلامي الكبير ويحتفظ بشعاره **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**.

فيذكر أبناءه بالأمجاد القديمة والعز المسلوب ويحدثهم عن الفردوس المفقود في المغرب «الأندلس» والفردوس الضائع في الشرق «فلسطين» وعليه أن يوري نار الحقد في قلوبهم على أعدائهم وأن يذكرهم بالاعتداءات المتتالية على بعض أجزاء الوطن الإسلامي في أفريقيا وآسيا.

إننا سنظل في خزي مستمر ما دام الأعداء يطأون بأقدامهم المدنسة أي شبر من أرض الوطن.

فلنعلّم أبناءنا ذلك ولنعمل دائمًا كل ما من شأنه أن يخلق فيهم البطولة ويجعلهم قادرين على استعادة الأمجاد الماضية.

وأن نجتث كل ما من شأنه أن يضعف معنوياتهم ويحطم كبرياءهم ولو كان «زجاجة نبيذ».

أشعة الفجر(*)

رحلة إلى مصر

في العدد الأسبق من جريدة المدينة الغراء، نشر الأستاذ الصديق رئيس التحرير حلقة من سلسلة مقالاته عن رحلته إلى مصر وقد جاء في ذلك المقال خبر أعتقد أن أكثر القراء مروا به دون أن يلتفتوا إليه، وقرأوه فلم يقفوا عنده.

أما أنا فقد وقفت عنده طويلًا ولعلي لا أكون مبالغًا إذا قلت إن هذا الخبر من أسوأ ما سمعتِ من الأخبار لأنه يمثل العقوق والجحود والأنانية ونكران الجميل ولا أريد أن أطيل على القراء فقد ذكر الأستاذ الصديق رئيس التحرير أن الأستاذ العقاد رأى عدم طبع معجم «فيشر» لأنه ليس المعجم الحي المطلوب، «وفيشر» هذا أو العلامة الدكتور أوجيست فيشر مستشرق ألماني كان رأس المستعربين وإمامهم وقد عني بدراسة اللغة العربية وألف فيها معجمه هذا في أكثر من مليون جَذْر.

وقضى في تأليفه مايزيد عن نصف قرن وهو معجم لغوي تاريخي أملوجي «يبني أصل الكلمة وانحدارها من اللغات السامية وغيرها ثم تطور معناها في مختلف العصور».

وليعرف القارىء عظمة هذا الرجل أذكر له اللغات التي يعرفها فقد كان يعرف من اللغات السامية: السريانية، والعربية، والبابلية، والأشورية، والآرامية، والمعينية،

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة في يوم الخميس ٢٠ من جمادى الأولى ١٣٧٢هـ الموافق ٥ من فبراير ١٩٥٣م العدد (٤٧٠) تحت توقيع «جامعي».

والسبئية والأثيوبية ثم الفارسية واليونانية، واللاتينية هذا إلى جانب اللغات الأوربية الحديثة ومنها الألمانية - لغته الأصلية - والإنجليزية والفرنسية، والإيطالية.

هذا بالاضافة إلى تبحره في كل علوم اللغة العربية كاللغة والفقه والقرآن والحديث والفلسفة الإسلامية وتاريخ العرب.. والتاريخ الإسلامي والأدب العربي وتاريخه وغيرها.

ومن هنا يتبين أن الدكتور أوجيست فيشر كان وحده مجمعًا وقد قام بعمل تنوء به العصبة أولو القوة.

وإذا قلت «مجمعًا» فلست أعني مجمع اللغة العربية في مصر هذا الذي أنشيء في سنة ١٣٥٢ ولكنه لم يقدم أي خدمة للغة العربية ولا يعرف الناس من أخباره إلا تلك الحفلة التقليدية التي تقام في أول كل عام وإلا ما يعرفونه في أخبار تلك الكلمات السخيفة الثقيلة التي تصك الآذان والتي تجعل من لغة العرب الجميلة لغة البيان الناصع، لغة ثقيلة ممجوجة تنفر منها الأسماع.

أكتب هذا وأمامي عدد من المجلدات تحوي تقارير المجمع والكلمات التي أقرها وبعض هذه الكلمات تدل على أن أعضاء هذا المجمع الموقر يعيشون في عالم غير العالم الذي نعيش فيه.

نعم لست أعني هذا المجمع ولكني أعني مجمعًا من مجامع الخالدين في أوروبا وأرجو أن أحدث القراء عنها في فرصة قريبة.

لقد كان الدكتور فيشر مجمعًا حيًا كأحسن ما تكون الحياة ولا أعتقد أن الأعضاء العرب في المجمع اللغوي بمصر مجتمعين يستطيعون أن يقدموا بعض ما قام به هذا العلامة الجليل بمفرده.

ليس لهذا المجمع حسنات تذكر وقد كان المثقفون ينتظرون أن تكون حسنته الوحيدة هي طبع معجم فيشر وقد أوشك الأستاذ العقاد أن يقضي على هذا الأمل.

وقد مات الرجل العلامة الذي قضى حياته في إعداد هذا المعجم وترك معجمه أمانة في يد المجمع وكان المفروض أن يبادر المجمع إلى طبع هذا المعجم وبذلك يقدم خدمة عظيمة للغة القرآن ويخلد ذكره هذا العبقري الذي أوقف حياته على خدمة لغة العرب.

ولكن يبدو أن بعض أعضاء المجمع خافوا - إذا طبع المعجم - أن يراهم الناس أقزامًا بالنسبة لهذا العملاق المارد فآثروا أنفسهم وسعوا في وأد هذا الأثر الخالد الباقي الذي سيبقى ما بقي متكلم بالعربية.

إننا نرجو أن يكون عدم طبع هذا المعجم النفيس هو رأي الأستاذ العقاد وحده والحق أننا نستبعد أن يوافق عليه بعض النابهين من أعضاء المجمع وعلى رأسهم أستاذنا الدكتور طه حسين ونأمل أن يرى معجم فيشر النور في وقت قريب.

أشعة الفجر..!(*)

صفحة من النور:

كنت أقرأ منذ أيام فصلًا في التاريخ فاستوقفتني هذه الكلمات «في زمن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وفد قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم غدرًا وأسكنها المسلمين، فكتب عمر يأمر بنصب قاضٍ للنظر فيما ذكروا فنصب لهم «جميع بن حاضر الباجي» فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم وهم على سواء فكره أهل سمرقند الحرب وبقى المسلمون فيها قرأت هذه الكلمات ولم أستطع أن أتخطاها إلى غيرها فتركت الكتاب وبدأت أتامل هذه المعاني السامية.

فهذا خليفة المسلمين العظيم يستقبل وفد سمرقند ليستمع إلى شكوى لعلها الأولى من نوعها في التاريخ منذ كان التاريخ.

ويتقدم الوفد فيتحدث في ثقة إلى الإمام العادل ويشرح إليه قضية قتيبة بن مسلم قائده العربي العظيم.. دخل مدينتهم غدرًا وأسكنها المسلمين.

وينتهي الوفد من شكواه وينصت التاريخ ويلتفت الزمن ليستمع إلى الحكمة الخالدة ونطق الخليفة المسلم.

فلم يأمر بطرد هذا الوفد كما صنع قائد من أعظم قواد العصر الحديث في فرنسا يقال له «ودر» حدثنا عنه شوقي فقال مخاطبا دمشق:

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة بتاريخ ٣٠ من شهر ذي القعدة عام ١٣٧٢هـ الموافق ١٠/٨/١٩٥٣م العدد (٤٩٥).

رماك بطيشه ورمى فرنسا أخو حرب بحلف وحمق
إذا ماجاءه طلاب حق يقول عصابة خرجوا وشقوا

نعم إن الخليفة العادل لم يطرد هذا الوفد ولم يسخر من مطالبه ولم يأمر بالانتقام من سكان ذلك البلد وإنما نطق بقول بهر الدنيا وهز العالم لقد أمر بنصب قاضٍ للنظر فيما ذكروا - قاضٍ واحد وكَّل إليه النظر في أخطر قضية تواجه أمّة فاتحة.

قاضٍ واحد يقوم وحده بما تقوم به مجالس الدولة في العصر الحديث.

حيث يجتمع عدد من القضاة للنظر في مشاكل تعد غاية في التفاهة إذا قيست بهذه المشكلة العويصة المعقدة التي سيترتب عليها إزهاق أرواح وسفك دماء وتعريض جند الدولة وسلامتها للخطر.

ونصب القاضي وأصغى من في المشرق والمغرب ليستمع إلى ما يقوله مجلس الدولة ممثلًا في القاضي العظيم جميع بن حاضر، ودرس القاضي المؤمن المشكلة وقلَّبها على جميع وجوهها فتبين له أن أهل سمرقند على حق، لم يتلبث ليبحث عن مخرج من هذه المشكلة أو خلاص من هذا المأزق وإنما نطق في بساطة ويسر بحكم لا نشك في أنه الأول من نوعه.

لقد حكم بإخراج المسلمين من سمرقند على أن ينابذوا أهلها على سواء.

ولم يدهش المسلمون لهذا الحكم النادر العجيب الجرىء وإنما دهش غير المسلمين أولئك الذين عاشوا في ظلال العبودية وظلام الكفر والظلم والاستبداد ومن هؤلاء أهل سمرقند الذين فكروا وقدروا فرأوا أن العدل سينتصر وأن أمّة قوية تخضع لحكم يصدره فرد من أفرادها لم يراع غير الحق والعدل لن تغلب.

وآثر أهل سمرقند أن يستظلوا براية الإسلام وأن يلجأوا إلى حماه الأمين وأن يكونوا من رعايا الإمام العادل.

وظن المؤرخون أن أهل سمرقند كرهوا الحرب ولكن هيهات «إنّ أهل سمرقند لم يكرهوا الحرب بقدر ما أحبوا هذه الروح الإسلامية وهذه المعاني السامية.. وهذا الإيمان العميق».

أيتها المدنية الغربية المسيحية طأطئي رأسك إجلالاً لمحمد نبي البشرية وطأطئيه مرة أخرى للتابعين من أتباع محمد:

«عمر بن عبدالعزيز» و«جميع بن حاضر الباجي».

وأنتم يا شبان العروبة وفتيان الإسلام هذه صفحة ناصعة من تاريخكم اقرأوها بقلوبكم وعقولكم وأرواحكم لتعرفوا مكانكم في الركب واذكروا قول خالق الكون وبارىء السموات ﴿كنتم خير أمّة أخرجت للناس﴾.

لقاء... كل أسبوع (*)

كان خادمًا يعمل في مدرسة وكان رابع أربعة ولكنه كان يمتاز على الآخرين بميزتين فلقد كان الأول من زملائه رجلًا طويل القامة كبير السن واهن العظم ولذلك فقد كانت الفائدة منه محدودة رغم حرصه على أن يبدو نشيطًا وكان إلى ذلك رجلًا أميًا.

أما الثاني فقد كان كزميله في السن والأمية ولا يتفوق عنه إلا بقصر القامة غير أنه يمتاز بأنه يجيد الطبخ ونظرًا لأنه لا يوجد بالمدرسة «قسم داخلي» فقد أصبحت هذه الميزة عديمة الجدوى.

أما الثالث فهو شاب من حيث السن إذ لم يتعد الخامسة والعشرين ولكنه لا يختلف عن زميله من حيث العمل فهو مصاب بمرض السمنة وإذا مشى فكأنه تل صغير يتحرك.

أما رابعهم فهو خادم شاب خفيف اللحم متوسط القامة نشيط الحركة يقرأ ويكتب.

ولذلك فقد كان الوحيد الذي يصلح لنقل البريد، وحمل الرسائل بين المدرسة وخارجها. والمرور على الطلاب للتعقيب على الغائبين[1] إلى آخر هذه الأعمال التي تستدعي إلمامًا بالقراءة والكتابة، وكان إلى ذلك يملك دراجة يركبها برشاقة وخفة وهذه وحدها ميزة لا يستهان بها وخاصة بالنسبة لهذه المدرسة التي تقع في مكان قصي.

(☆) نشر بمجلة الرائد.

(١) من واجبات المدرسة كتابة إخطار عن كل طالب أو تلميذ يتغيب عن المدرسة ويقوم أحد عمال المدرسة بتسليم هذا الإخطار لوالده أو ولي أمره.

وقضى الخادم النشيط في خدمة المدرسة عامًا يقوم بعمله على أكمل وجه ولم يحدث منه ما يلفت النظر إلى أن انتهى العام ثم عرض أمر لا علاقة له بالعمل استدعى إجراء التحقيق معه ويبدو أنه خاف مغبة التحقيق ففر من البلد الذي يعمل فيه إلى جهة غير معلومة.

وبدأ العام الدراسي الجديد وحضر الأساتذة جميعًا ولكن الأساتذة من غير الوطنيين يفاجئون مدير المدرسة بشكوى غريبة وهي أن جميع الخطابات التي كانت ترسل إليهم طوال العام الماضي من أهليهم وأقاربهم كانت تختفي بسبب غير معروف، واهتم المدير بهذه الشكوى الغريبة وقام ببحث دقيق ظهر منه أن الخادم الهمام كان يصادر كل خطاب مرسل من امرأة أما كيف كان يعرف أنه مرسل من امرأة فذلك سر يعرفه الخادم وحده وإن كان من الواضح أن كتابة الاسم خلف الظرف من دواعي المعرفة.

ولم يستطع المدير أن يعاقب هذا الخادم العجيب إذ إنه فر من البلد قبل بداية العام الدراسي الجديد بوقت طويل.

ولا أدري ما الحكمة التي دفعت الخادم الفاضل إلى مصادرة هذا النوع من الخطابات؟ هل سر ذلك يكمن في أن هذا الخادم نشأ يتيم الأم فاكتوى بنار زوجة الأب حتى أصبح لا يطيق جنس النساء ولا رؤية أسمائهن؟ أم أنه بحكم بيئته البدوية كان يعتقد أن محل المرأة الطبيعي هو البيت حتى ولو عن طريق كتابة رسالة لزوجها أو ابنها أو أخيها يجب أن توقف عند حدها ولو بمصادرة رسائلها.

أو أنه كان يشعر بمتعة وهو يتعرف أسرار الناس وخاصة أسرارهم العائلية عن طريق التجسس ومصادرة الخطابات.

ربما كان السبب واحدًا مما ذكرنا وربما كان شيئًا آخر.

على أنه مهما كانت الأسباب فإن الأمر الجدير بالذكر هو أن النفس الإنسانية لغز عميق لا يستطاع حله أو فهمه.

وحَسْب الباري الخالق المبدع عظمة وجلالًا أن يخلق هذه الملايين التي لا يعلم عددها إلا هو، ثم لا يتفق اثنان في الخلْق «بسكون اللام» ولا في النوازع البشرية.

وصدق الله العظيم القوي المتعال الذي يقول في محكم كتابه ﴿**بلى قادرين على أن نسوي بنانه**﴾.

مع الأيام

الموتوسيكل مطية إبليس

في ندوة لبعض أعضاء الجمعية الطبية البريطانية أقترح جراح كبير تحريم صناعة الموتوسيكل نهائيًا لأن الأخطار والحوادث التي تنجم عنها أكثر من مثلها في سائر وسائل النقل» وهذه حقيقة يؤيدها الواقع في كل مكان.

ولو سألت مراكز الشرطة في بلادنا لأيدت ذلك تأييدًا كاملًا، فأكثر الحوادث ناشئة من الموتوسيكل أو أنه طرف في الموضوع على أقل تقدير.

أما سائقو السيارات فإن مشاكلهم مع الموتوسيكلات وراكبيها لا نهاية لها ولا أعتقد أنه يوجد سائق واحد سلم من مداعباتهم الثقيلة أو الخفيفة.

وأكثر راكبي هذه الموتسيكلات من الشبان المراهقين، والمراهقة في حياة الشباب فترة عصيبة قاسية إذ هي مرحلة انتقال بين الطفولة والرجولة وفيها تظهر بعض تغيرات جسمية ونفسية لا يفطن لها الشاب ولكن يفطن لها أهله ومعلموه وفيها يسيطر عليه نـــوع من الاعتزاز بالنفس يدفعه في كثير من الأحيان إلى التمرد إذا ما اصطدمت رغباته بما يعوق تنفيذها.

كما تتميز هذه الفترة بنشاط جسمي ملحوظ ورغبة عارمة في الظهور فإذا ركب سيارة مثلًا ليقودها سار بها بسرعة جنونية يدفعه إلى ذلك نشاطه المتزايد للظهور فهو حريص على أن يلفت أنظار الناس إليه وهذه السرعة في نظره وسيلة هامة إلى لفت هذه الأنظار.

ونظرًا لأنه ليس من الميسور لكل شاب شراء سيارة وتحمل نفقات صيانتها ووقودها فقد وجد المراهقون في هذه الموتوسيكلات ما يرضي غرورهم.

إذ أنها - أي الموتوسيكلات - بأصواتها المرتفعة المزعجة وبسرعتها الكبيرة وبنورها القوي العالي في الليل تثير في راكبها كثيراً من النشوة والبهجة والحبور فيشعر وهو يمتطي ظهورها كأنه يركب «النفاثة» أو «يسابق الريح» وكثيرًا ما يدفعه التحدي - وهو من مميزات المراهقة - إلى أن يسابق سيارة تجري ولا يهدأ خاطره إلا إذا لحقها وسبقها غير عابىء بالأخطار مهما يكن نوعها فهو كما قلت لا يركب «موتوسيكل» ولكنه يركب «النفاثة» أو «بساط الريح».

كما قد يدفعه التحدي إلى أن يعاكس السيارات التي تسير في طريقه فهو يتقدمها أحيانًا ويظل يتراقص أمامها معجبًا بشبابه ويميل ذات اليمين مرة وذات الشمال مرة أخرى، وهو ينظر إلى سائقيها وراكبيها نظرات السخرية والتشفي وإذا كان سائق السيارة «مراهقًا» هو الآخر أو كان يتميز بالحمق والاندفاع وعدم تقدير العواقب.. فلك أن تتصور الكوارث التي تنجم عن هذا العبث.

لقد وجد شبابنا المراهق في هذه «الموتوسيكلات» وسيلة هامة من وسائل إزجاء الفراغ.

ومن العجيب أن بعض الآباء يستكثر دفع عشرين ريالًا مقابل اشتراك ابنه في مركز من مراكز خدمة الشباب يجد فيها الثقافة والنشاط الهادف والرعاية الخلقية والاجتماعية والحماية من الأخطار الجسمية والمعنوية ولكنه لا يرى مانعًا من دفع ألف أو أكثر من الريالات لشراء «مطية إبليس» يركبها ابنه ويتعاجب بها ويعرّض نفسه والآخرين لأخطارها الجسيمة وغير الجسيمة.

هذه المطية التي يقترح الجراح البريطاني الكبير في ندوة الجمعية الطبية البريطانية تحريم صناعتها نهائيا.

وما أعتقد إلا أن جميع القراء - باستثناء راكبيها من المراهقين - يؤيدون الجراح الكبير كل التأييد.

لقاء... كل أسبوع (*)

كثير مما ينشر القراء في صحفنا غث وغثاء ورغوة حبذا لو غربل قبل نشره لاستخراج الصالح منه وما ينفع الناس.

وإن كانت العين الفاحصة تستطيع أن تلمح أحيانًا بين الركام الكثير قطعًا نادرة من الاحجار الكريمة ونعني بها الأفكار الصالحة والمعلومات القيمة.

نذكر هذا بمناسبة ما قرأناه أخيراً في صحيفتين من صحفنا صدرتا في أسبوع واحد لقارئين كريمين من القراء.

كتب أحدهما في اليمامة كلمة عن مدينة من مدننا في الجنوب وكتب الآخر كلمة عن مدينة أخرى في الشمال.

وبين الكلمتين ارتباط وثيق جاء عفوًا ومصادفة ومن غير قصد.

فقد تحدث القارىء الأول عن مدينة نجران وهي مدينة تقع في أقصى الجنوب على حدود اليمن.

ومعلوماتنا عن هذه البلدة ضئيلة غامضة وربما كان أكثرها يتصل بالقديم أكثر من اتصاله بالحديث.

ولكن الكلمة التي نتحدث عنها أعطتنا فكرة طيبة عن هذه البلدة أو إن شئنا الحقيقة فقد وضعت في يدنا مفاتيح نستطيع استعمالها فنفك الأسرار والرموز المحيطة بهذا البلد وبتاريخه القديم والحديث.

(☆) نشر بمجلة الرائد في يوم الاثنين ١٣٨١/١١/٥هـ الموافق ١٩٦٢/٤/٩م العدد (١٠٨).

لقد اعطانا القارىء الفاضل فكرة عن موقعه الجغرافي وسكانه وقبائله وقراه والمسافة بين القرى المختلفة والزراعة فيه.

وكل هذه المعلومات ذات قيمة مافي ذلك شك ولكن القيمة الحقيقية تتجلى في المعلومات التي قدمها لنا عن «نجران والتاريخ» فهو يقول «إن نجران مدينة عامرة بالآثار التاريخية ومن آثارها الاخدود.

وقد ورد ذكره في القرآن وقد عمله أحد أقيال اليمن لحرق من تنصر من أهل نجران، وكان به من الديانات اليهودية والنصرانية واليوم يرفرف عليه علم الإسلام.

وبه سد وادي نجران وربما كان متصلًا بوادي سبأ كما تدل الآثار الحالية وهذا السد متصل بالأخدود إلا أنه تهدم من زمن طويل.

وبالاخدود مدينة انقرضت وقوضت بيوتها إلا أن أساساتها لا تزال باقية ناطقة بحضارة القوم وبها كتابات منقوشة على الجدران كما أن طريقة البناء تدل على تقدم حضاري عمراني هائل: وهي من الحجارة الكبيرة المنحوتة نحتًا فنيًا رائعًا بحيث لا نجد له مثيلًا في أرقى مدننا حضارة في زماننا هذا وهي محلاة برسوم لا تقل روعة عن طريقة البناء، كالأفعى والغزال.

وتوجد به آبار مطوية طيًّا جيدًا بالجص والحجارة.

وأكثر هذه الآبار مدفونة ولكن هناك علامة تدل عليها وهي ارتفاع التراب فوق فوهتها المدفونة.

رأيت رحى يبلغ قطرها متراً ونصف المتر ولا أظن أحدًا يستطيع إدارتها باليد بل ربما كانت تدار بواسطة الحيوانات ورأيت هاونًا في ضخامة هذه الرحى.

أما البنيان فربما كان تم بعمل ردم حتى يتساوى مع البناء ثم يرفع بالحبال.

وبنجران قلعة رعوم وهي قلعة عالية لاتزال صالحة تتحكم في مدينة نجران.

وهذا كلام يستدعي التأمل والتفكير، فنحن لسنا أمام قرية تافهة ولكننا أمام تاريخ حي طويل من الواجب أن نوليه الكثير من عنايتنا واهتمامنا.

ولقد آن الوقت لأن نعيد دراسة التاريخ العربي دراسة علمية منهجية وألا نعتمد على الكتب فقط كمصادر لهذا التاريخ، بل لا بد من العودة إلى النقوش والرسوم ولا بد من القيام بحفريات تكشف لنا الكثير من عبقرية العقلية العربية وتبين لنا إلى أي مدى وصل العرب القدامى في حضارتهم وعلمهم.

وقد تحدث القارىء الثاني عن مدينة في الشمال هي «مدائن صالح» وقال في كلمته: «هي سبع مدن أثرية تاريخية وفيها موعظة للنفس، يقدم إليها عدد كبير من جميع أنحاء العالم لزيارة آثارها، فكل من زار تلك الأرض اتعظ وخشع قلبه وتساقط الدمع من عينيه لشدة عظمتها وكيفية سقوط العذاب عليها، ولكن يا للأسف إن هذه الآثار لم تجد من يحفظها من البدو الذين شوهوا منظر أبواب تلك القصور المزخرفة الشاهقة المنحوتة من الجبال الصماء فما رأي المسؤولين عن هذه الآثار وقد مر عليها زمن طويل من عهد سيدنا نبي الله صالح إلى عصرنا الحاضر مع العلم بأن هذه الآثار لم يحدث فيها أي تلاعب إلا في السنين الأخيرة كذلك آثار الخريبة الواقعة شمال العلا وهي مدينة قوم هود عليه السلام التي دمرت على أهلها، مع العلم بأن كنوزها مدفونه بها حتى الآن فنرجو الاهتمام بالاثار القديمة وستكون عند العناية مصدرًا للثروة السياحية».

وهذا كلام قيم مافي ذلك شك فهذه المدائن عبارة عن جزء من التاريخ العربي يجب ألا نغفل عنه ولا ننساه بل يجب أن ندرسه دراسة علمية وافية وأن نوفد له المختصين وأن نهيىء لهم كل الوسائل التي تمكنهم من القيام بدراساتهم العلمية.

وقد أتيح لي أن أزور مدائن صالح أكثر من مرة وأشهد أن ما كتبه القارىء الفاضل يعبّر عن الواقع تمامًا.

ومن المؤسف أن بعض البدو قد قام بعمليات تخريبية في بعض الآثار النادرة التي لا يوجد لها مثيل في العالم ومن الواجب وضع حد لهذا العبث والتخريب ومن الواجب حماية هذه الآثار بكل وسائل الحماية.

وأنا أؤكد أن بلادنا تحفل بطائفة من الآثار الإنسانية العظيمة تفوق بمراحل كثيرة من الآثار المنتشرة في العالم كالأهرام مثلًا في مصر، وليعرف القارىء أن لا مبالغة في هذا الحديث عليه قراءة هذا المقال.

على أن الغريب أن الأجانب قد اهتموا بآثارنا اهتمامًا كبيراً فقد قام بعضهم بزيارة هذه الآثار وأخذ لها صورًا فوتوغرافية وكتب عنها دراسة لم نطلع عليها بعد واذكر من الباحثين «الحاج عبدالله فليبي» «سنت جون فلبي» كما أذكر أن أحد أساتذة جامعة لندن حاليًا يقوم بدراسة واسعة لآثار مدائن صالح كما أخبرني شاب نابه من أبناء العلا هو الأستاذ سالم محمد الحداد.

إن هذه الآثار قطع غالية من تاريخنا وهي في نفس الوقت كنوز ستدر علينا دخلًا كبيراً لو قمنا بصيانتها وأعددنا دراسات عنها ومهدنا الطرق المؤدية لها وقمنا بتنظيمات سياحية تجلب الرواد والزائرين من هواة الآثار وعلماء التاريخ والراغبين في المتعة والمغرمين بالرحلات.

لقد قمت بدراسة لبعض المناطق الآثرية في منطقة المدينة، ولكنها دراسة ناقصة بسبب كثرة المشاغل وقلة الإمكانيات فلعل وزارة المعارف تحتضن فكرة القيام بدراسات واسعة عن المناطق التاريخية في المملكة.. ولعلها تعتبر ذلك من مهمات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

وشكرًا للقارئين الفاضلين محمد الهلالي ومراسل جريدة المدينة في العلا.

المزاج الدموي.. بين الشرق والغرب
الحجاج بن يوسف.. وارنست همنجواي
في ضوء هذه الظاهرة

الحلقة الأولى

استلفت نظري وأنا أدرس تاريخ أوروبا، ظاهرة عجيبة، جديرة بالبحث والفكر والتأمل، وربما صلحت لأن تكون فارقا واضحا بين المزاج الشرقي بكل خصائصه، والمزاج الغربي بكل مميزاته.

وهذه الظاهرة التي تفرد بها التاريخ الأوربي، ظاهرة يمكن أن نطلق عليها ظاهرة التلذذ برؤية الدماء المسفوكة، لا في وقت الحروب فقط، بل وفي أزمنة السلام.

ولن نتحدث الآن عن الحروب في أوروبا، فلنا عودة إلى هذا الحديث لأن له بعض العلاقة بموضوعنا، ولكننا نتحدث عن الدماء المسفوحة في أزمنة السلام، وهي ظاهرة تفردت بها أوروبا في العصور القديمة والحديثة.

وسنتابع التاريخ في سيره، وسنجد في انتظارنا طائفة من الأحداث المثيرة، وبرزت بوضوح في الدولة الرومانية..

فلقد كان من المناظر المألوفة في الدولة الرومانية، أن يُقْذَف بشخص في حلبة سباق الخيل إلى الأُسُود الضارية، كما كانت أعظم تسلية لأهالي مدينة القسطنطينية، مشاهدة الصراع مع الحيوانات المتوحشة في السرك أو ميدان السباق صباحا ومساء، وكان هذا الميدان واسعا، وبه مبان تتسع لجلوس ما يقارب الأربعين ألف شخص، والغريب أن مشاهدة هذه الألعاب كانت مجانية تدفع الحكومة أثمانها.

وكان يشترك في حلبة السباق حزبان هما حزب السرك الأخضر، وحزب السرك الأزرق، وكثيرا ما سبب انفعال المشاعر بين الحزبين فتناً واضطرابات سياسية، تترك آثاراً بعيدة المدى، ولكن برغم ذلك ظل السرك قائما زمنا طويلا جداً. وكان ذا أثر عميق في حياة الشعب فقد كان الامبراطور، والامبراطورة ملزمين بالحضور إلى حفلات الصراع الدامي، وتقديم الجوائز، بل لقد تطور الأمر بالنسبة لحلبة السباق هذه أن أصبحت المكان الذي يتوج فيه الامبراطور، ويخاطب فيه شعبه وتنعقد فيه أجل الشؤون وأعظمها، وظل الحال كذلك أكثر من سبعة قرون.

أما في روما فقد كان أقصى درجات الاستخفاف لدى الرومان، مشاهدة العبيد الأرقاء المدربين يتصارعون بالسيوف والخناجر والمديات، والسلاح الأبيض يقطع بعضهم رقاب بعض، ويستنزفون دماءهم ويبذلون في سبيل ذلك كل براعتهم من أجل إدخال السرور على نفوس ساداتهم الذين يجدون في هذه المتعة «الوحشية». أقصى ما تطمح إليه نفوسهم من مباهج.

وكانت هذه المشاهد الوحشية، تتكرر يوميا، وبصور مستمرة ويذهب ضحيتها الآلاف من هؤلاء الأرقاء الأغبياء الذين ظلوا يمارسون هذه العمليات البالغة أقصى درجات الوحشية من أجل ساداتهم اللاهين الفارغين المترفين.

لقد اعتبر هذا اللون من الترف «الدامي» مميزا للحضارة الرومانية في قلب أوروبا، وظل مصاحبا لهذه الحضارة الماجنة الداعرة حتى انهارت تحت وطأة الهجمات التي قامت بها شعوب بربرية كما يسميها المؤرخون الأوروبيون، ثم انتقلت هذه اللعبة العفنة الدامية إلى الدولة الرومية في بيزنطة أو القسطنطينية التي سميت باسم أوروبا الجديدة.. ومع أن هذه الدولة قامت في جزء من قارة آسيا، فإنها في الحقيقة دولة أوروبية بكل سماتها، وقد ورثت الحضارة الرومانية بكل ما فيها من خير أو شر، وبكل نقائصها وعيوبها وانحطاطاتها النفسية والخلقية.

وانتقل هذا اللون الدامي من الشرق إلى الغرب، حيث مارس الأسبانيون صنوفا من التعذيب، واجهها المسلمون في الأندلس، وهي صنوف ستظل أبد الدهر مثلا خالداً لما يمكن أن يصل إليه انحطاط الإنسان.

ومن الغريب حقا أن هذا الجزء من تاريخنا القومي الإسلامي، قد أعفى عليه النسيان، فلا يعرفه أحد من شبابنا، أو ناشئتنا ولا يحفل به واضعو المناهج، أو دارسو التاريخ.

لذا فإنني أرى من واجبي أن أذكّر أمتى الإسلامية، وأبناء عشريرتي بهذا الجزء من التاريخ، وهو الذي اصطلح المؤرخون على تسميته «بديوان التحقيق» أو «محاكم التفتيش» وسأنقل إليهم مجلسا من تلك المجالس العجيبة الفريدة التي كانت تعقد في أسبانيا الإسلامية لتنفيذ الأحكام في «الكفرة المسلمين» كما ورد في كتاب «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى».

«في يوم الأحد ١٨ أكتوبر سنة ١٥٥٩م أقيمت حفلة كبرى لأعمال الإيمان (الأوتودافيه) في بلد الوليد «فلد وليد» وأعد للملك «فيليب الثاني» ملك أسبانيا في الساحة الكبرى التي نصبت فيها المحارق أمام كنيسة القديس «مارتين» عرش فوق منصة فخمة، وأحاط بالعرش قضاة الديوان المقدس، وهو يحث الجموع من كل حدب لتشهد المنظر الفخم، الرهيب معا.

ولما تكامل الجمع، وانتظم الاحتفال، نهض «فيليب الثاني» من فوق عرشه، وأقسم أنه يحافظ على نقاء الدين ونصرة الديوان المقدس، ثم أُتي بالمحكوم عليهم، فمروا بمنصة العرش، وسلم الديوان إلى السلطة المدنية في ذلك اليوم اثنتي عشرة ضحية بشرية، لإجراء قضاء الديوان فيها».

وأرجو أن يثق القارئ بأننا لم نخرج عن طبيعة الموضوع الذي نتحدث عنه، وهو تسجيل ظاهرة يمتاز بها المزاج الأوروبي، تلك هي تلذذه من رؤية الدماء البشرية المسفوحة، والأشلاء الآدمية المبعثرة، وانتشاؤه الانتشاء الذي يبلغ أقصى درجات اللذة.

وقد كانت الحفلات الملكية الأسبانية - وقد ذكرنا أنموذجا منها - من هذه الحفلات الترفيهية المتوارثة.

وتأييداً لذلك ننقل من كتاب «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى» هذه السطور التي كتبها المؤلف تعليقا على الحفلة الملكية التي تصدرها «فيليب الثاني» والتي أوردناها فيما سبق.

يقول المؤلف الكبير: «ولم تكن مثل هذه المناظر الرهيبة مما يروع الأسبان يومئذ، أو يثير اشمئزازهم، أو يذيب عواطفهم، بل يلوح أنها كانت بالعكس تمثل اتجاه نفسيتهم، كما كانت تمثل اتجاه نفسية ملوكهم، وأحبارهم، فكانت هذه الحفلات للشعب الأسباني أعياداً يهرع إليها من أقاصى البلاد لشهودها، والتمتع بمناظرها».

ويقول فولتير في وصف هذه الإجراءات والمشاهدات المروعة: (ولكن هذه النتائج المحزنة التي أدت إليها أعمال ديوان التحقيق ليست شيئاً إذا قيست بضحايا السياسة التي تعرف بأعمال الإيمان «أوتودافيه» وبما تقترفها من الفظائع، ذلك أن رجل الدين، أو نفس الراهب الذي وقف حياته على بث التواضع والبر، هو الذي يطبق على الأسرى في أعماق السجون أروع صنوف العذاب، ثم يعد بعد ذلك مسرحا في ساحة عامة، ويقاد المحكوم عليهم إلى المحارق، وراء ركب من الرهبان والإخوة، ثم يرتل هولاء ويتلون القداس، ثم يقتلون الناس، ولو أن مشرقيا وفد على «مدريد» يوم ينظم هذا التنفيذ، لما عرف.. أهو يشهد حفلة طرب؟ أو حفلة دينية؟ أو مذبحة؟

لقد أخذوا على آخر ملوك المكسيك القدماء أنه يضحي الأسرى للآلهة، فماذا كان يقول لو شهد حفلة «الأوتودافيه» وقد استمرت هذه الحفلات الترفيهية الدامية قرابة قرن ونصف القرن تعرض فيه ثلاثة ملايين أكثرهم من العرب المسلمين، وقليل منهم من اليهود إلى العراء والعسف والقسوة بلغت أقصى درجات الخسة والدناءة والانحطاط.

وقضي على المسلمين في الأندلس، ولم يبق فيها مسلم أو غيره، وانطفأت كل المشاعل التي أوقدها الفكر العربي المسلم المنير، فأضاءت أسبانيا، أما أوروبا فأضناها الجهل

والتعصب والبلادة والحقد والرغبة في مشاهدة الدماء وهي تذهب هدرا في سبيل رغبة عارمة مجنونة تلذ وتنتشي من آلام الآخرين.

وتلفتت أوروبا تبحث عن ألهية جديدة، فقد تخلص الأرقاء من قبضة سادتهم الحديدية، وأصبحوا هم أنفسهم مصدر خطر على الحضارة الرومانية وغيرها من حضارات أوروبا. وتخلص الأسبان من كل عربي مسلم، ولكن المزاج الأوروبي الذي يظل في حالة متوترة لا تزول إلا برؤية الدماء تندفع كالنوافير، فتصبغ الساحات والميادين بلون قرمزى يرضي النفوس المريضة، ويخلق فيها ألوانا من السرور والسعادة.! هذا المزاج الأوروبي المريض تلفت يبحث عن ألهية دموية جديدة وساحات تعرض فيها مسرحيات يقدم فيها أبطالها أنفسهم ضحايا وقرابين لطائفة مريضة من البشر.

وما عتمت أوروبا. إذ سمعت صيحة خافتة من امبراطور القسطنطينية يستنجد فيها بالبابا من تهديد المسلمين وهم السلاجقة، ومع أنها كانت ضجة خافتة، فقد كان لها في نفوس الأوروبيين دوي الرعد فها هي الظروف تتيح للمزاج الأوروبي المريض، ميادين جديدة تروي ظمأه إلى الدماء، وشره إلى الضحايا من بني الإنسان.

صحيح أن هذه الميادين بعيدة، ويتطلب الوصول إليها الكثير من الجهد والنصب، ولكن ماذا يتم؟ أليس في الوصول إليها إسكان لهذا الذنب الكامن في أعماق النفس الأوروبية؟

وانطلقت الجموع في اتجاه الشرق وكلها قرم لرؤية الفرائس الشرقية تتخبط في آلامها، وتتشحط في دمائها، ووجدت هذه الجموع بعض الفرص فاهتبلتها أحسن اهتبال، ففتكت بالآمنين والأسرى ولم ترحم صغيراً أو كبيراً، وتنكرت لكل القيم، وتجاهلت كل العهود والمواثيق، وضربت بكل الارتباطات الأدبية والذوقية عرض الحائط، وكتبت فصلا مجللا بالسواد.

ولم تتحق من الغايات الظاهرة لهذه الحملات المسعورة أي غاية على الإطلاق، وإن كانت قد حققت هدفاً مستورًا هو الهدف الحقيقي لهذه الحملات، وهو إرواء ظمئها اللاهف إلى الدماء مسفوكة مستباحة.

وإن كانت هذه الحملات الصليبية قد أكسبت هؤلاء الأوروبيين مكاسب لم تكن في حسبانهم، ولم تخطر لهم على بال، فتعلموا فنونا من المعرفة واطّلعوا على صفات خلقية سامية من الوفاء والإيثار، والتجاوز عن السيئات، والعفو عند المقدرة إلى كثير من المزايا التي يتحلى بها الشرقيون وخاصة العرب والمسلمين، بالإضافة إلى ما اقتبسه هؤلاء الصليبيون من جميل العادات، ووسائل الترف، وفنون الذوق الرفيع.

وقد كان لهذا الاحتكاك أثره في تنشيط مداركهم، وصقل أذهانهم وتهذيب وجداناتهم، وكان كل ذلك أساسا لهذه النهضة الأوروبية الحديثة.

وقد اشتركت في هذه الحروب أكثر الشعوب الأوروبية، ولكن بعضا من الشعوب التي لم تشترك عز عليه أن تقف الظروف دون مقاسمة زملائه تلك المتعة الدموية التي عرضت على مسارح الشرق العربي، فنقم على تلك الظروف وعمل الحقد عمله في إثارة أفراده، فأخذ يتربص الدوائر بأولئك الذين وقفوا في طريق متعته حتى سنحت الفرصة.

وانتهى عهد الأرقاء، وتوقفت الحملات الصليبية، وانتصر الجهل والجهد في التعصب في أسبانيا على العلم والحلم، والتسامح في الأندلس، ولم يبق فيها مسلم يوحد الله، أو عربي ينتسب إلى قريش أو مضر، وبدأت عصور الظلام تزحف على شبه جزيرة «ايبيريا» وثار الشعب الأسباني المسيحي المتعصب يطلب حفلات دموية ترفيهية، وقد كان من جراء طول الفترة التي قضاها مستمتعا بمشاهدة الضحايا من المسلمين أن أصيب بنوع من الشبق الدموي - إن جاز هذا التعبير - أو بعبارة أدق، نوع من السعار الذي يصيب بعض الحيوانات المفترسة حين تلتذ من الولوغ في الدماء.

واهتدى القادة إلى نوع من المصارعة تبدو في ظاهرها كأنها لون من الفروسية، بينما هي في دوافعها تسلية دموية فيها إرضاء للنفوس المتعطشة إلى الدماء، ونعني بها مصارعة الثيران، ولن نطيل عليها الحديث، فهي مصارعة معروفة، لا يكاد يجهلها أحد، ولا يزال لها ساحاتها وميادينها، وأبطالها المرموقون.

ولندلل على أن هدفها الحقيقي ترفيهي بحت، نذكر أن ضحايا هذه المصارعة من الآدميين بلغ كل يوم رقما كبيرا، ولا ننسى أن إعداد بطل للقيام بمهمة مصارعة ثور هائج يتطلب كثيراً من الجهد، وكثيرا من المال. فضحية من هذا النوع تساوي واحدة في العدد، ولكنها تساوي الكثير في الحقيقة، ومع ذلك لم يرتفع صوت يطلب إلغاء هذا النوع من المصارعة.

على أن الذي أحب أن أوجه إليه الأنظار هو أن المؤرخ الألماني الكبير يتحدث عن الرومان في ضوء مجدهم الحربي، وأنا لا يهمني هذا بصورة مباشرة في بحثي، فأنا أتحدث عن الأعمال الوحشية الدموية في أزمنة السلام كظاهرة تنبئ عما أسميته بالمزاج الدموي، وإن كانت بعض هذه الأعمال الذي يتحدث عنها المؤرخ الكبير تصلح شواهد تؤيد ما أذهب إليه. ثم إن المؤرخ الكبير يحكم على الرومان حكما منصفا على ضوء أعمالهم فيقول: «وهكذا أثبت الرومان أنهم من البرابرة، ويصف خصمهم الآسيوى العنيد «هانيبال» بأنه أكثر إنسانية منهم، وحسبه فخراً في نظرنا أنه أبطل القرابين البشرية».

ظاهرة شاذة.. في تاريخ أوروبا

الحلقة الثانية☆

مع البيزنطيين.. في رومة الجديدة

قامت الدولة البيزنطية أو الدولة الرومية وعاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية أو رومة الجديدة في الطرف الأقصى لأوروبا.

وقد قامت في هذا الجزء من أوروبا حضارة جديدة دامت عدة قرون وورثت حضارة الإغريق والرومان وظلت تتبوأ مركز الصدارة حتى قضى عليها الخليفة الإسلامي العظيم محمد الفاتح.

وليس من همنا أن ندرس تاريخ هذه الدولة ولا الحضارة التي قامت فيها وإنما نريد أن نبحث عن هذه الظاهرة التي أسميناها بالمزاج الدموي في تاريخ هذه الحضارة.

ولن يطول بنا البحث فإن من الصورة البارزة في هذه الحضارة «الهيدروم» حتى لقد أصبح من الأقوال المأثورة «إن كانت أيا صوفيا لله وكان القصر للإمبراطور فإن الهيدروم كان ملكًا للشعب».

والهيدروم ملعب كبير تحتشد فيه الألوف من سكان عاصمة الدولة الرومانية الشرقية لمشاهدة ما يقدم فيه من ألوان اللعب وكانت التسلية الوحيدة لهؤلاء السكان.

وقد كان أبرز أنواع اللعب التي تقام في هذا الملعب المصارعات مع الحيوانات المتوحشة، ولن نسهب في وصف هذا الصراع ولا في النتائج المروعة التي ينتهي إليها.

(☆) نشرت في العدد (٣٥٠) بتاريخ ٣ من المحرم ١٣٨٥هـ واسم الصحيفة غير واضح في الأصل.

ولقد بلغ من اهتمام سكان العاصمة بهذا الملعب أن أصبح حراس اللعب ومرافقو الحيوانات المتوحشة في مكان مرموق حتى لقد أصبحت ابنة حارس دب امبراطورة بينما كانت ابنته الثانية ممثلة مهرجة.

وكان بالهيدروم أو ميدان السباق مبانٍ تتسع لحوالي أربعين ألف شخص.

ومن الغريب أن مشاهدة الألعاب في هذا الميدان مجانية تدفع الحكومة أثمانها.

وكان يشترك في حلبة السباق فريقان هما الفريق الأخضر والفريق الأزرق يتقابلان على جانبي الملعب ويتقاذفان بألوان السلاح، وكثيراً ما سبب انفعال المشاعر بين الفريقين فتنًا واضطرابات تترك آثارًا بعيدة المدى، ولكن رغم ذلك ظل الهيدروم قائمًا زمنًا طويلًا جداً وكان ذا أثر عميق في حياة الشعب.

حتى لقد أصبح مكانًا تعرض فيه الانتصارات الامبراطورية كما كان محكمة جنايات فإذا قضت بإدانة أحد نفذ فيه الحكم فورًا وغالبًا ما يكون ذلك الحكم حرق المتهم حيا أمام الجماهير.

بل لقد تطور الأمر بالنسبة لحلبة المصارعات هذه حتى أصبحت المكان الذي يتوج فيه الامبراطور ويخاطب فيه شعبه وتُعقد فيه أجلُّ الشؤون وأعظمها وظل الحال كذلك أكثر من سبعة قرون.

البحث عن الضحايا.. في الشرق

لقد انهارت الحضارة في الدولة الرومانية الغربية وتقلصت في الدولة الرومانية الشرقية.

وتخلص الأرقاء من قبضة سادتهم الحديدية وأصبحوا هم أنفسهم مصدر خطر على الحضارة الرومانية وغيرها من الحضارات الأوروبية.

ولكن المزاج الأوروبي الذي يظل في حالة نفسية متوترة لا تزول إلا برؤية الدماء تندفع كالنوافير فتصبغ الساحات والميادين بلون قرمزي يرضي النفوس المريضة وينعشها بألوان من السرور والسعادة.

هذا المزاج الأوروبي المريض تلفَّت عن ألْهية دموية جديدة ومساحات تعرض فيها مسرحيات يقدم فيها أبطالها أنفسهم ضحايا وقرابين لطائفة مريضة «مزاجيًا» من البشر.

حروب... من أجل المزاج لا من أجل الصليب

وما عَتَمَتْ أوروبا أن سمعت صيحة خافتة من امبراطور القسطنطينية يستنجد فيها بالبابا من تهديد السلاجقة المسلمين.

ومع أنها كانت صيحة خافتة فقد كان لها في نفوس الأوروبيين دوي الرعد، فها هي الظروف - بعد تشوق وطول انتظار - تتيح للمزاج الأوروبي المريض ميادين جديدة تروي ظمأه إلى الدماء وشرهه إلى الضحايا من بني الإنسان.

وصحيح أن هذه الميادين بعيدة يتطلب الوصول إليها الكثير من الجهد والنَّصَب ولكن ماذا يهم؟ أليس في الوصول إليها إسكات لهذا الذئب العاوي الكامن في أعماق النفس الأوروبية؟!.

وانطلقت الجموع في اتجاه الشرق - عن طريق القسطنطينية - وكلها قرم لرؤية الفرائس الآدمية الشرقية تتخبط في آلامها وتتشحط في دمائها.

ووجدت هذه الجموع بعض الفرص فاهتبلتها أحسن اهتبال ففتكت بالآمنين والأسرى ولم ترحم صغيراً أو كبيراً وتنكرت لكل القيم وتجاهلت كل العهود والمواثيق وضربت بكل الارتباطات الأدبية والذوقية عرض الحائط وكتبت فصلًا مجللًا بالسواد يفيض بالخسة والحيوانية وما شئت من ألوان الانحطاط.

ومن الطريف أن القسطنطينية نفسها لم تسلم من السطو والاعتداء من هؤلاء المحاربين القادمين لنصرة المسيحية وإعلاء شأن الصليب، فتعرضت لألوان من

الجرائم ضج منها سكان العاصمة وكادت تحدث فتن لا يعلم إلا الله مداها لولا وصول السفن التي قامت بنقلهم إلى الشرق.

أهداف الحملة ونتائجها

ولم تحقق هذه الحملات الصليبية شيئًا من الغايات الظاهرة لهذه الحملات المسعورة وإن كانت قد حققت هدفًا مستورًا هو الهدف الحقيقي لهذه الحملات وهو إرواء ظمئها اللاهث إلى الدماء مسفوكة مستباحة.

وإن كانت هذه الحملات الصليبية قد أكسبت هؤلاء الأوروبيين مكاسب لم تكن في حسبانهم ولم تخطر لهم على بال.

فتعلموا فنونًا من المعرفة واطلعوا على صفات خلقية سامية من الوفاء والإيثار والتجاوز عن السيئات والعفو عند المقدره إلى كثير من المزايا التي يتحلى بها الشرقيون العرب المسلمون.

بالإضافة إلى ما اقتبسه هؤلاء الصليبيون من جميل العادات ووسائل الترف وفنون الذوق الرفيع، وقد كان لهذا الاحتكاك أثره في تنشيط مداركهم وصقل أذهانهم وتهذيب وجداناتهم وكان كل ذلك أساسًا لهذه النهضة الأوروبية الحديثة.

مع الظاهرة الدموية.. في غرب أوروبا

اشترك في الحروب الصليبية - كما سُميت خطأ - أكثر الشعوب الأوروبية ولكن واحدًا من الشعوب الأوربية التي لم تشترك عزَّ عليه أن تقف الظروف دونه ودون زملائه، فتمنعه من تلك المتع الدموية التي عرضت على مسارح الشرق العربي، فنقم على تلك الظروف وعمل الحقد عمله في إثارة أفراده، فأخذ يتربص الدوائر بأولئك الذين وقفوا في طريق متعته حتى سنحت الفرصة. حيث مارس الأسبان صنوفًا من التعذيب

واجهها المسلمون في الأندلس وهي صنـــوف ستظل أبد الدهر «أمثلة» خالدة لما يمكن أن يصل إليه انحطاط الإنسان.

ومن الغريب حقًا أن هذا الجزء من تاريخنا القومي الإسلامي قد عفى عليه النسيان فلا يعرفه أحد من شبابنا أو ناشئتنا ولا يحفل به واضعو المناهج أو من درسوا التاريخ، ولذا فإنني أرى من واجبي أن أذكّر أمتي الإسلامية وأبناء عشيرتي بهذا الجزء من التاريخ وهو الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بديوان التحقيق أو محاكم التفتيش.

ديوان التحقيق الأسباني والكفرة المسلمون!!

وسأنقل إلى القراء مجلسًا من تلك المجالس الفريدة التي كانت تعقد في أسبانيا المسلمة لتنفيذ الأحكام في «الكفرة المسلمين» كما ورد في كتاب «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى».

«في يوم الأحد ١٨ من شهر أكتوبر سنة ١٥٥٩ أقيمت حفلة كبرى لأعمال الإيمان «الاوتودافيه» في بلد الوليد «فلاووليد» وأُعد للملك «فيليب الثاني ملك أسبانيا في الساحة الكبرى التي فيها المحارق أمام كنيسة القديس مارتين عرشٌ فوق منصة فخمة وأحاط بالعرش قضاة الديوان المقدس، وهرعت الجموع من كل حدب لتشهد المنظر الفخم الرهيب معا.

ولما تكامل الجمع وانتظم الاحتفال نهض فيليب الثاني فوق عرشه وأقسم أن يحافظ على نقاء الدين ونصرة الديوان المقدس ثم أتى بالمحكوم عليهم فمروا بمنصة العرش وسلم الديوان إلى السلطة الحديثة في ذلك اليوم اثنتي عشرة ضحية بشرية لإجراء قضاء الديوان فيها.

وأرجو أن يثق القارىء بأننا لم نخرج عن طبيعة الموضوع الذي نتحدث عنه وهو تسجيل ظاهرة يمتاز بها المزاج الأوروبي تلك هي تلذذه حتى الثمل في رؤية الدماء المسفوحة والأشلاء المبعثرة وانتشاؤه إنتشاء يبلغ أقصى درجات اللذة.

وقد كانت الحفلات الملكية الأسبانية ـوقد ذكرنا نموذجًا منها- من هذه الحفلات الترفيهية الدموية.

وتأييدًا لذلك ننقل من كتاب «ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى» هذه السطور التي كتبها المؤلف تعليقًا على الحفلة الملوكية التي تصدّرها فيليب الثاني والتي أوردنا وصفًا لها فيما سبق.

يقول المؤلف الكبير «ولم تكن مثل هذه المناظر الرهيبة مما يروع الأسبان يومئذ أو يثير اشمئزازهم أو يذيب عواطفهم بل يلوح أنها كانت بالعكس تمثل اتجاه نفسيتهم كما كانت تمثل اتجاه نفسية ملوكهم وأحبارهم فكانت هذه الحفلات للشعب الأسباني أعيادًا ومواسم يهرع من أقاصي البلاد لشهودها والتمتع بمناظرها ويواصل المؤلف الكبير حديثه: «ويقول فولتير» في وصف هذه الإجراءات والمشاهد المروعة «ولكن هذه النتائج المحزنة التي أدت إليها أعمال التحقيق ليست شيئًا إذا قيست بالضحايا العامة التي تعرف بأعمال الإيمان «أوتودافيه» وبما يتقدمها من الفظائع.

وذلك أن رجل الدين أو نفس الراهب الذي وقف حياته على بث التواضع والبر هو الذي يطبق على الأسرى في أعماق السجون أروع صنوف العذاب ثم يعد بعد ذلك مسرح في ساحة عامة ويقاد المحكوم عليهم إلى المحارق وراء موكب من الرهبان والأخوة ثم يرتل هؤلاء ويتلون القداس ثم يقتلون الناس.

ولو أن مشرقيًا وفد على مدريد يوم ينظم هذا التنفيذ لما عرف أهو يشهد حفلة طرب أو حفلة دينية أو تضحية أو مذبحة أو كل ذلك.

لقد أخذوا على «نتروما» آخر ملوك المكسيك القدماء أنه يضحي الأسرى للآلهة فماذا كان يقول لو شهد حفلة «الأوتودافيه».

وقد استمرت هذه الحفلات الترفيهية الدامية قرابة قرن ونصف تعرض فيه ثلاثة ملايين غالبيتهم العظمى من العرب المسلمين وقليل منهم من اليهود تعرضوا إلى ألوان من العسف والقسوة بلغت أقصى درجات الخسة والدناءة والانحطاط.

ظاهرة شاذة.. في تاريخ أوروبا

الحلقة الثالثة ☆

البحث عن ألهية دموية جديدة

قُضي على المسلمين في الأندلس ولم يبق فيها مسلم عربي، وانطفأت كل المشاعل التي أوقدها الفكر العربي المسلم النير فأضاءت أسبانيا ثم أوروبا وأطفأها الجهل والتعصب والبلادة والحقد والرغبة في مشاهدة الدماء وهي تذهب هدرًا في سبيل رغبة عارمة مجنونة تلذ وتنتشي وتثمل من آلام الآخرين.

وتلفتت أوروبا تبحث عن ألهية جديدة، فقد تخلص الأرقاء من قبضة سادتهم الحديدية وأصبحوا هم مصدر خطر على الحضارة الرومانية وغيرها من حضارات أوروبا.

وتخلص الأسبان من كل عربي ومسلم ولم يستطع الصليبيون من المقام في الشرق بعد أن منوا بخسائر فادحة.

تلتفت أوروبا تبحث عن ألهية دموية جديدة لأن المزاج الأوروبي يظل في حالة نفسية متوترة لا تزول إلا برؤية الدماء تندفع كالنوافير فتصبغ الساحات والميادين بلون قرمزي يرضي النفوس المريضة يخلق فيها ألوانًا من السرور والسعادة.

(☆) نشر في العدد (٣٥٥) بتاريخ ١٣٨٥/١/٩هـ واسم الصحيفة غير واضح في الأصل.

ولم تعثر أوروبا على هذه الالهية إلا بعد زمن طويل، عندما أتاحت لها الظروف استعمار الشعوب الأسيوية والأفريقية ووجدت فيها ميادين جديدة تمثل عليها أبشع الجرائم من أجل ارواء ظمئها الشديد إلى الدم.

ولن نعرض لقصة هذا الاستعمار في هذه الدراسة فذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة.

ثيران ودماء

هناك شعب من شعوب أوروبا لم يطق طول انتظار أُلْهية دموية جديدة فإن طول الفترة التي قضاها مستمتعًا بمشاهدة الضحايا أصابته بنوع من الشبق الدموي - إن جاز هذا التعبير - بل أصابته بنوع من السُّعار الذي يصيب الحيوانات المفترسة حين تكثر من الولوغ في الدم.

لم يستطع الشعب الأسباني المتعصب أن يطيق الانتظار فهو في شوق عارم إلى حفلات دموية ترفيهية، ومن أجل ذلك ثار وأخذ يطالب بحقه في هذه المتعة وأخيراً وجد القادة نوعًا من المصارعة تبدو في ظاهرها كأنها لون من الفروسية بينما هي في واقعها تسلية دموية فيها إرضاء للنفوس المريضة المتعشطة إلى الدماء ونعني بها مصارعة الثيران.

ولن نطيل الحديث عنها فهي مصارعة معروفة لا يكاد يجهلها أحد ولا يزال لها ساحاتها وميادينها وأبطالها المرموقون.

ولندلل على أن هدفها الحقيقي ترفيهي بحت نذكر أن ضحايا هذه المصارعات من الآدميين بلغ ضحية كل يوم.

وهو رقم ضخم إذا أخذنا بعين الاعتبار أن إعداد بطل للقيام بمهمة مصارعة ثور هائج يتطلب كثيراً من الجهود وكثيراً من المال، فضحية من هذا النوع تساوي واحداً في العدد ولكنها تساوي الكثير في الحقيقة.

ومع ذلك فلم يرتفع صوت أوروبا بطلب إلغاء هذا النوع من المصارعة بينما ارتفعت أصوات لا عداد لها مطالبة بالاستغناء عن بعض الألعاب الشعبية كالملاكمة والخطرة كالشيش.

أدب الثيران

قلت إنه لم يرتفع صوت يشجب هذا النوع من الصراع المصطنع بين الإنسان والحيوان ولكن الحقيقة أن أصواتًا كثيرة ارتفعت مهللة ومحبذة.

ولقد كان هذا الصراع المفتعل محورًا دارت عليه مقالات وقصائد وقصص وروايات ومؤلفات حيث لو جمع ما كتب من أدب حول هذا النوع من المصارعة لألّف مكتبة كبيرة ضخمة.. ولم يقتصر أدب الثيران هذا على الأدباء الأسبان بل تعداه إلى كثير من الأدباء الأوروبيين والأمريكيين نذكر منهم على سبيل المثال أديبًا أمريكيًا واسع الشهرة ذائع الصيت.

ديفاليرا.. وجون كندي

ونحب بهذه المناسبة أن نوضح نقطة ربما احتاجت في أذهان بعض القراء نوعًا ما من التوضيح، فالأمريكيون أوروبيون أصلًا وأصولهم الأوروبية واضحة ومعروفة، ولعل القراء يذكرون الرحلة التي قام بها الرئيس الأمريكي الراحل جون كندي قبل اغتياله إلى بعض دول أوروبا وكان في مقدمة البلاد التي زارها دولة إيرلندا الشمالية وقد قابله زعيم إيرلندا المعروف ديفاليرا عند نزوله من الطائرة وحيَّاه بكلمات من لغة إيرلندا القديمة ثم قال له: إن من الواجب أن تكون لغة أجدادك الإيرلنديين القدماء هي أول ما يطرق سمعك وأنت تضع أقدامك على أرض وطنك الأول.

همنغواى والظاهرة الدموية

ونحن نختار أديبًا أمريكيًا للتدليل على أن المزاج الدموي الذي يُعتبر الفارق الأكبر بين الأوروبي وغيره يظل مسيطرًا على الأوروبيين حتى ولو ابتعد عن أوروبا آلاف الأميال حتى ولو عاش في بيئات غريبة عن بيئتهم.. فالمزاج الدموي متأصل في الأوروبيين وخاصة أولئك الذين احتفظوا بأصولهم الأولى ولم تمتزج بدمائهم فصائل أخرى قوية كشعوب وسط أوروبا وغربها.

الهنود الحمر والزنوج ضحايا الظاهرة الدموية

والعجيب أن الأمريكيين رغم ما وصلوا إليه من حضارة باهرة وتقدم مادي مدهش لازالوا يمارسون لونًا من هذه التسلية الدموية الفظيعة ذهب ضحيتها بالأمس الهنود الحمر سكان البلاد الأصليون ويذهب ضحيتها اليوم الزنوج الأمريكيون، ومن الأمور العادية المألوفة أن ينقضَّ جماعة من الشباب على شاب أو كهل من الزنوج ثم يوسعونه ضربًا بالمدي أو يلقونه على جذع شجرة ليموت موتًا بطيئًا وهم يتمتعون بأقصى ضروب اللذة وهي نفس العملية التي كان يمارسها أجدادهم في روما والقسطنطينية وأسبانيا وبلاد الشرق أثناء الحروب الصليبية.

ميراث كئيب لم يستطع الأمريكيون رغم كل ما حققوه من حضارة - هي امتداد للحضارة الأوربية - التخلص منه أوبعبارة أدق هو مزاج دموي له قوة قاهرة لا يستطيع صاحبه إلا الخنوع له والاستسلام.

هذا هو التفسير الصحيح لما يسمونه اليوم «التفرقة العنصرية».

الجنة في رأي همنغواي

ونعود إلى أديبنا الأمريكي الكبير ذائع الصيت وهو «ارنست همنغواي» وقد شغف بأسبانيا شغفًا لا حدَّ له شغفًا مبعثه وجود حلقات مصارعة الثيران فيها وقد أتى

عليه حين من الدهر في «غبطة» وهو يعتقد - كما يقول أحد مترجمي حياته - «أن الجنة حلقة كبيرة لصراع الثيران له فيها مقعدان»!.

وقد ألَّف طائفة من كتبه وأقاصيصه عن أسبانيا وخص موضوع صراع الثيران بكتابه «موت بعد الظهيرة» وقد قيل في وضعه، أنه خير كتاب بالإنجليزية عن مصارعة الثيران.

تأثير المصارعة على أدب همنغواي

وقد شغلت هذه المصارعة همنغواي وسيطرت على ذهنه فترة طويلة من الزمن وألقت ظلالاً قوية على مدى تراثه الأدبي في الفترات الأخيرة من حياته.

وليس من غرضنا أن ندرس بكثير من التفصيل أثر المصارعة في أدب - همنغواي - ولكننا نريد أن نؤكد اعجاب الكاتب العظيم بهذه المصارعة الوحشية بين البشر والثيران.

ولقد بلغ به الإعجاب بهذه المصارعة أن عقد صلات من الود والصداقة مع بعض هؤلاء المصارعين.

بل إنه ليقول بصريح العبارة في كتابه «موت بعد الظهيرة»: «حيث يثور الإنسان ضد الموت فإنه يجد لذة في انتحال صنعة ألهية وهي منح الموت لغيره وهو يمنح الموت في خيلاء - والخيلاء خطيئة مسيحية وفضيلة وثنية - ولكن هذه الخيلاء هي التي تخلق فن المصارعة كما أن الذي يخلق المصارع العظيم هو الاستمتاع الصحيح بالقتل».

ويقول في موقع آخر من كتابه «أن جمال لحظة القتل يتمثل في تلك الوقعة الخاطفة التي يصبح الثور والرجل فيها جسمًا واحداً وقد غار السيف كله في جسم الثور وانحنى الرجل فوقه ووحد الموت بينهما في ذروة عاطفية جمالية فنية من مراحل الصراع غير أن الرقصة لا تتم إذا غرس المصارع بعض شفرة السيف في الثور غرسًا لبيقًا».

وهذه عبارات تبين بوضوح مدى إعجاب الكاتب الأمريكي بهذه اللعبة الوحشية ومدى تمجيده لها وتلذذه من مشاهدة هذه المأساة الدامية العنيفة وقد شاهد الكاتب الكبير مصرع ألف وخمسمائة ثور في مدى عشر سنوات ومع ذلك فلم تهزه كل هذه المصارع ولم تثر فيه روح الحنق والسخط والثورة بل كانت تبعث في نفسه شعورًا باللذة والمتعة.

رسول العنف

وقد قال بعض النقاد عن همنغواي أنه «رسول العنف» ورد آخرون بأن أقاصيصه لا تؤيد هذه الضعة وانطلقوا يؤيدون بطائفة من الأدلة.

والواقع أن وصف همنغواي بأنه رسول العنف وصف صحيح ودقيق إلى أقصى حد وأي عنف أكثر من عنف هذه المصارعة وأي عنف أكثر من تمجيد هذه المصارعة تمجيداً يصل بالكاتب إلى أنه يقول «إن مصارعة الثيران هي الشعيرة الأسبانية الوحيدة التي انحدرت من الماضي على حالها إذ أستتبت الشعائر الكنسية».

ظاهرة شاذة.. في تاريخ أوروبا
الحلقة الرابعة☆

الشرق والظاهرة الدموية

والآن وبعد أن بلغنا هذا المبلغ في وصف هذه الظاهرة الشاذة نرى استكمالاً للبحث أن نعرج على الشرق.

والشرق الذي نعنيه هنا هو الشرق الأوسط أو الشرق العربي، وعندما يبحث الباحث عن هذه الظاهرة في تاريخ العرب الذين صقلهم الإسلام لا نجد لها أثرًا.

من أوائل ما يطالعنا في هذا التاريخ وصية الخليفة الأول أبي بكر الصديق فقد خرج يودع أول جيش يخرج في عهده وهو جيش أسامة فكان مما أوصاه «**لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لأكله**» فالخليفة العظيم يخشى على جيشه من أن تجره نشوة النصر إلى أن يسرف في ذبح الماشية وهو لايريد أن يعوِّد جنده على الإسراف في القتل، ولو كان في الماشية، وهي نظرة بعيدة تدل على الفهم العميق والنظرة النافذة.

والعفو عن المذنبين من الصفات التي سيطرت على تاريخ العرب المسلمين حتى ليقول أحد خلفائهم وهو المأمون «لقد حبب إلى العفو حتى خفت ألا أؤجر عليه».

وحتى في تاريخ الحروب الصليبية حفل سجل الشرق بمئات الحوادث التي ترفع رأس الشرق عاليًا بما اتسم به من كريم الصفات وجميل المبادىء.

(☆) نشر في العدد (٣٦٣) بتاريخ ١٣٨٥/١/١٨هـ واسم الصحيفة غير واضح في الأصل.

ومما يذكر في هذا المقام أنني كثيراً ما نقمت على صلاح الدين وغيره من أبطال الإسلام في الحروب الصليبية كثيراً ما نقمت عليهم تمسكهم بالمثل والمبادىء السامية مع خصوم لا يتورعون عن ارتكاب أشنع الجرائم واستغلال تسامح خصومهم أسوأ استغلال، وكثيراً ما جر عليهم هذا التسامح كثيراً من المصائب والويلات ولكنهم رغم ذلك لم يتخلوا أبدًا عن مُثُلهم السامية.

ولو أراد باحث أن يجمع ما سجَّلته كتب التاريخ من حوادث حفل بها تاريخ المسلمين في الشرق الأوسط طول مدة الحروب الصليبية وهي حوادث ينحني لها الجبين إكبارًا وإعجابًا.

لو أراد باحث أن يجمع ذلك لكتب عددًا من المجلدات.

وهذا ماسجله التاريخ وهناك مئات أخرى من الحوادث فاتها التاريخ ولم يحفظها الزمن.

الحجَّاج.. والمزاج الدموي

ولا نريد أن نكثر من ضرب الأمثال في هذا المجال ولكننا سنختار شخصية من الشخصيات البارزة في دنيا الشرق المسلم أصبحت مضرب المثل في القسوة والعنف والجبروت وأصبح اسم هذه الشخصية في أذهان الغالبية العظمى من الناس في الشرق والغرب مرادفًا للظلم والشدة المتناهية وسفك الدماء.

تلك هي شخصية الحجاج بن يوسف.. سنختار هذه الشخصية ونتتبع تاريخها ونضعها في مجال المقارنة.

وندرس تاريخ هذه الشخصية دراسة طويلة فلا تهدينا هذه الدراسة إلى أن الحجاج بن يوسف كان يتلذذ لسفك الدماء.

صحيح أنه قتل الكثير ولكن قتلهم كان لهدف حماية الدولة وتدعيمها في منطقة قلقة حساسة بالنسبة للدولة الإسلامية.

ورغم السمعة القاتمة التي تحيط باسم الحجاج فإنك واجد شخصية إنسانية تنفعل لآلام الناس وتتأثر بالكلمة المشرقة وتطرب للفتة الذهنية البارعة وتهتز لمكارم الأخلاق وهو في كل ذلك سريع النجدة لا يبخل بالعفو حتى على أشد أعدائه في مواقف لا سبيل فيها إلى العفو.

ولعل إيراد طائفة من الأمثلة في هذا المقام أبلغ في الدلالة على ما نقول:

١- كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج يأمره بقتل أسلم بن عبد البكري لشيء بلغه عنه، فأحضره الحجاج فقال أسلم: أمير غائب وأنت حاضر والله تعالى يقول: ﴿**يائيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا....**﴾.

والذي بلغه عني باطل فاكتب إلى أمير المؤمنين أني أعول أربعًا وعشرين امرأة وهن بالباب.

فأحضرهن الحجاج وكان فيهن أمه وعمته وزوجه وكان في آخرهن جارية صغيرة أنشدته شعرًا فبكى الحجاج وقال والله لا أعنت الدهر عليكن ولا زدتكن تضعفًا وكتب إلى الخليفة عبدالملك بخبر الرجل والجارية فكتب إليه عبدالملك يقول: إن كان الأمر كما ذكرت فأحسن صلته وتفقد الجارية.

٢- لما ضرب الحجاج رقاب بعض أصحاب ابن الأشعث الذي ثار عليه أتى رجل من بني تميم فقال له: والله ياحجاج لئن كنا قد أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو.

فقال الحجاج: اف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا؟ ثم عفا عنه وخلّى سبيله.

٣- جلس الحجاج يومًا وجيئ إليه بأحد أصحاب عبدالرحمن بن الأشعث الذي ثار عليه ليقدم بين يديه فقال له الرجل: أصلح الله الأمير إن لي عليك حقًا.

قال: وما حقك؟

قال: سبك عبدالرحمن يومًا فرددت عليه.

قال: من يعلم ذلك؟.

قال: أنشد الله رجلًا سمع ذلك ألا تهذبه.

فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذلك أيها الأمير.

قال: قالوا عنه ثم قال للشاهد فما منعك أن تنكر كما أنكر؟

قال: لقد يم لنفسي إياك.

قال: حلوا عنه فصدقه.

رجولة.. وبطولة

وقد عثرنا في تاريخ الحجاج على قصة طريفة لها علاقة بموضوع البحث ومن الواجب ألا نغفلها ففيها مجال طيب للمقارنة بين مزاج ومزاج وبين اتجاه واتجاه.

روي أن لصًا من لصوص العرب يسمى جحدر بن ربيعة كان يُغير على الأحياء فينهبها وربما فتك بمن يتعرض له.

واشتد شره في أيام خلافة الوليد بن عبدالملك حتى أباد خلقًا كثيراً.

ولما بلغ الحجاج خبره كتب إلى عامله في اليمامة يؤنبه لعجزه عن القبض على ذلك الفتاك وأمره أن يجدَّ للإيقاع به وأن يحمله إليه أسيرًا فأوطأ العامل جماعة من فتية بني حنظلة وجعل لهم أجرًا عظيمًا إن هم أتوا به مغلولًا أو مقتولًا فأرسلوا إليه يقولون إنهم يريدون الانقطاع إليه والخضوع لأمره فاخلد جحدر إلى قولهم وأدخلهم في صحبته فأخذوا ينهبون تحت لوائه إلى أن صادفوا منه غرة، فشدوا وثاقه وقدموا به إلى العامل الذي وجههم به إلى الحجاج.

ولما مَثُل بين يديه دارت بينه وبين الحجاج المحادثة الآتية: الحجاج: أنت جحدر؟ جحدر: نعم.

الحجاج: وما جـــراك علـــى ما بلـغـنـــي عنـــك؟ جحدر: جرأة الزمان وجرأة الجنان.

الحجاج: وما بلغ من أمرك؟ جحدر: لو ابتلاني الأمير وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه.

الحجاج: يا جحدر إني قاذف بك إلى حفرة بها سَبْع شَرس، فإن قتلك كفانا مؤونتك وإن قتلته عفونا عنك لشجاعتك.

جحدر: أصلح الله الأمير لقد قرب الفرج.

مصارعة بين أسدين

وأمر الحجاج بحبسه وكتب إلى العامل أن يرتاد له سبعًا عتيا ويحمله إليه فارتاد له أســـدًا خبيثًا كـــريـــه المنظـــر وقد أفنـــى أكثر ما في اليمـــامـــة من حيوان ووضعه في قفص من حديد وأنفذه إلى الحجاج فأمر أن يلقى في الحفرة ولا يطعم شيئًا ثلاثة أيام حتى إذا ما اشتد به الجوع أخرج إليه جحدر وما أُعطى إلا سيفًا والحجاج مشرف على الحفرة والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بفريسته.

فلما رفع له جحدر نهض وزأر زئيراً رجّ المكان وأراع الحاضرين فأنشد جحدر.

ليـــث وليـــث في مكان ضنك

كـــلاهـــمـــا ذو قـــوة وسفك

وصولة وبطـشـــة وفـتـــك

أن يكشف الله قناع الشـــك

فأنت لي في قبضتـــي وملكـــي

ثم أدنى به فوقع عليه وقوع الصاعقة فصرخ الأسد عند رؤيته صرخة عظيمة فأجابه جحدر بأعظم منها فضربه بسيفه ففلق هامته فكبّر الناس وأُعجب به الحجاج وقال: لله درك ما أنجدك.

ثم خيَّره بين أن يقيم عنده مكرمًا أو يلحق ببلاده على ألا يؤذي أحداً ولا يُحدث حدثًا.

إنسانية الحجاج وبربرية الرومان

هذه قصة الحجاج «الظالم الطاغية» على جحدر ونستطيع أن نضعها في مجال المقارنة بجانب ما أوردناه في بداية هذا البحث مما كان يحدث في الدولة الرومانية حيث يرمى أشخاص سيئو الحظ في حلبة سباق الخيل إلى الأسود الضارية فتمزق جلودهم وتقطع أوصالهم وتلغ في دمائهم.. استغاثاتهم كانت تهز قلوب اعتى الجبابرة وصرخاتهم ترتج لها الأرض والسماء ولكن المشاهدين من الرومان ينظرون إلى هذه الصرخات وتلك الاستغاثات كما ينظرون إلى تمثيلية تعرض على المسرح، فضحكاتهم المجلجلة وحركاتهم الكثيرة تعبّر عن فرح جنوني طاغٍ.

أما الحجَّاج فقد كان في عمله منطقيا إلى أقصى حد، وزعم له جحدر أنه يتمتع بجرأة فائقة فأراد أن يمتحن هذه الجرأة فاحضر له هذا الاسد الكريه المنظر ولم يقذف به إلى الأسد الضاري كما كان يفعل الرومان بل انزله إليه مزودا بسيف وبذلك تكافأت الفرص بين الأسد وجحدر وخرج الأخير من الامتحان ناجحا. ولو أن الحجاج يرتاح لرؤية الدماء المسفوكة ويتلذذ بها لرمى بجحدر إلى الأسد مجردا من أي سلاح مع أن جحدر يستحق القتل لما ارتكب من جرائم عقوبتها القتل.

ومع ذلك فقد عفا عنه الحجاج، فما يجوز أن تضيع هذه الجرأة التي تثير الدهشة والاعجاب.

أما بعد: فما رأي صديقي الدكتور إبراهيم؟ نعم ما رأيك أيها الصديق لقد ظللت أكثر من عام تناقشني في العرب كأمّة وكنت مقتنعًا بأنهم أمّة تافهة وأن تاريخهم عبارة عن سلسلة من الحروب الكبيرة والصغيرة وحلقات من المنازعات والفتن.

وكنت ولا تزال معجبًا بالأوروبيين وتاريخهم إعجابًا ملك عليك أقطار نفسك ولم أفلح في إقناعك لأن معلوماتي عن التاريخ الأوروبي وأصوله كانت غير وافية.

ولقد دفعتني مناقشاتك إلى أن أتوفر على دراسة التاريخ الأوروبي.

وقضيت عامًا في دراسة هذا التاريخ وخرجت بنتيجة تناقض ما ذهبت إليه وتؤيد إيماني بالعرب.

ولم أحدثك في بحثي هذا عن تاريخ أوروبا ولكنني كنت أتحدث عن ظاهرة لفتت نظري وأنا أدرس هذا التاريخ.

وأنا على استعداد لأن أحدثك الان عن هذا التاريخ حديثًا مفصلًا مدعمًا وسترى أنه ليس كما تصورت وأن عليك أن تعيد النظر في كل ما وصلت إليه من نتائج.

ولك حبي وعليك سلامي.

تعليق.. على كلمة مخلصة

نشرت جريدة المدينة المنورة في عددها الصادر في ١٤ جمادى الأولى من عامنا الحالي كلمة للكاتب الفاضل حسين علي حسين استهلها بقوله «في بلادنا الآن عدد ليس بالقليل من الكتّاب والمثقفين الذين حتى الآن لم يجدوا من يهتم بإبراز إنتاجهم من خلال طبعه وتسويقه ومناقشته حتى يأخذ المكانة التي تليق بقوته وتجدده.

وهي كلمة مخلصة نابعة من شعور نبيل يشكر عليها الأستاذ الفاضل.

ونظرًا لأن أكثر من عرض لهم الكاتب في كلمته وحددهم بالاسم هم من أبناء المدينة المنورة فقد رأيت من الواجب أن أضع أمام القراء الحقائق الآتية:

١- تحدث الكاتب عن الأستاذ إبراهيم العياشي وقال عنه «ولعل من أبرز هؤلاء المؤرخ الشيخ إبراهيم العياشي الذي لم يسبق للأسف أن قرأت له إنتاجًا مطبوعًا وإن كنت قرأت أكثر من مقابلة معه منها مقابلة جيدة أجراها معه معد برنامج «نور على نور» في القاهرة، وغير ذلك من المقابلات الصحفية التي وضعتنا إزاء رجل جيد في مجاله وفوق ذلك كله فهو لا يسعى إلى جاه أو نعيم مما يسعى إليه أغلب الكتّاب ولذلك مثل هذا الرجل بحاجة إلى عناية أكبر وإلى اهتمام بنتائجه «ولعلها بنتاجه» من خلال طباعته وتوزيعه».

ونحب أن نطمئن الكاتب الفاضل بأن الأستاذ العياشي قد أصدر منذ سنوات قليلة وفي عام ١٣٩٢هـ بالتحديد كتابًا ضخمًا عن المدينة سماه «المدينة بين الماضي والحاضر» وقامت بنشره المكتبة العلمية بالمدينة في عهد مؤسسها وصاحبها المرحوم الشيخ محمد سلطان نمنكاني الذي توفي منذ فترة قصيرة يرحمه الله.

والكتاب متوفر في مكتبات المدينة ولعله غير موجود في مكتبات الرياض ومكة وجدة وتلك مشكلة يعاني منها الكتاب الوطني فهناك كتب تصدر في المدينة ولا تصل إلى مكتبات المدن الأخرى وهناك كتب تصدر في الرياض فلا يصل شيء منها إلى المكتبات الأخرى وهكذا الحال في بقية المدن وكثيراً ما أفاجأ وأنا أمر ببعض المكتبات في مكة أو جدة أو الرياض فأجد كتبًا لم تصل إلى مكتبات المدينة رغم مرور وقت ليس بالقصير على صدورها.

ونعود إلى المؤرخ الأستاذ إبراهيم العياشي فنذكر أنه كتب عددًا كبيراً من المقالات التاريخية والاجتماعية نشر أكثرها في مجلة المنهل ونشر بعضها في جريدة المدينة وفي الصحف الأخرى.

هذا ما يتصل بنتاجه المطبوع، أما نتاجه المخطوط فأحب أن أذكر للقراء أن نادي المدينة المنورة الأدبي قد اتفق مع الأستاذ الفاضل إبراهيم العياشي قبل مدة قصيرة على طبع كتابين من كتبه هما «أشباح في غرفة العمليات» وهو كتاب يعالج فيه المؤلف بعض المشكلات الاجتماعية، أما الكتاب الثاني فهو «في رحاب الجهاد المقدس - غزوة بدر»[(١)] وعنوانه يعطي فكرة واضحة عن موضوعه، والكتابان في طريقهما إلى الطبع بعد أن وافقت اللجنة الثقافية في النادي على طبعهما وبعد أن انتهت كل الإجراءات النظامية الأخرى التي لا بد أن يمر بها كل كتاب قبل أن يأخذ طريقه إلى المطابع والمأمول ألا يمضي طويل وقت حتى يكون الكتابان في أيدي القراء.

وبالمناسبة فقد سبق للأستاذ الجليل إبراهيم العياشي أن ألقى محاضرة في الموسم الثقافي لنادي المدينة المنورة الأدبي وستطبع في القريب العاجل إن شاء الله ضمن المجموعة التاريخية من سلسلة محاضرات النادي.

(١) صدر هذا الكتاب ضمن إصدارات نادي المدينة المنورة طبعة أولى في عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م وصفحاته (٢٣٢) صفحة.

وقد أشار الكاتب الفاضل في كلمته إلى الأستاذ الأفغاني وسماه محمد سعيد الأفغاني واسمه الحقيقي محمد عالم الأفغاني لا كما ورد في الكلمة المشار إليها.

والأستاذ محمد عالم هو كما قال الكاتب عن نتاجه ونتاج زملائه الراحلين من كتَّاب القصة «يمثل مرحلة مهمة من حياتنا الثقافية» بل إن الأستاذ الأفغاني يعتبر رائداً من رواد القصة القصيرة في بلادنا وقد أصدر قبل وفاته بفترة طويلة مجموعة قصص له سماها «قصص مختارة» وكتب بعد ذلك عددًا كبيراً من القصص كان ينشرها في مجلة المنهل.

وقد فكر النادي في إعادة نشر مجموعته القصصية بعد أن يضم لها قصصه الأخرى التي لم تنشر وبعد أن يتولى أحد أصدقائه من النادي كتابة مقدمة لها يتعرض فيها لذكرياته معه وللحديث عن اتجاهاته وآرائه في القصة وسبب ميله إلى هذا اللون من ألوان التعبير في مرحلة مبكرة.

ولكن النادي اصطدم بعقبتين أولاهما أنه لم يستطع بعد البحث الطويل العثور على مجموعته «قصص مختارة» وإن كان قد عثر على نسخة مبتورة.

أما العقبة الثانية فهي عدم وجود نسخة كاملة من مجلة «المنهل» في أي مكتبة من مكتبات المدينة المنورة العامة، ومن المؤسف حقيقة عدم وجود مجموعة كاملة من مجلاتنا وجرائدنا في المكتبات العامة في المدينة ومن الواجب تدارك ذلك بصفة مستعجلة وتزويد كل مكتبة بمجموعة أو أكثر من صحفنا ومجلاتنا.

وقد اتصل النادي بالأستاذ الجليل صاحب مجلة «المنهل» مبديًا رغبته في شراء مجموعة كاملة من المجلة، وقد تفضل بإرسال بعض السنوات واعتذر عن إرسال السنوات الأولى لعدم توفرها لديه.

كما اتصل النادي بمؤسسي جريدة المدينة الأستاذين علي وعثمان حافظ في محاولة للحصول على مجموعة كاملة من جريدة المدينة ولكنهما اعتذرا لعدم توفر ذلك لديهما.

ونفس الوضع حدث بالنسبة لمجلة «الرائد» وصاحبها الأستاذ الكبير عبدالفتاح أبو مدين.

ولا ندري إلى من نتوجه من أجهزة الدولة.. نتوجه إلى وزارة الإعلام أم إلى وزارة المعارف أم إلى وزارة الحج والأوقاف أو نتوجه إليهم جميعًا برجائنا الحار وباسم الباحثين والمثقفين لتتبنى - مشكورة - مشروعًا لتزويد المكتبات العامة في المملكة بمجموعة كاملة أو أكثر من مجموعة من كل ما صدر من صحفنا ومجلاتنا.

وقد هيأت المخترعات الحديثة الوسائل لتحقيق ذلك في سهولة ويسر.

إن ماصدر من مجلات وصحف ونشرات منذ بداية النهضة الحديثة في مملكتنا العزيزة هي السجل الحافل الدقيق لكل ما تحقق من إنجازات في شتى المجالات ولا بد للباحث أو الدارس من الرجوع إليها والتنقيب بين صفحاتها.

ولكن عدم توفرها في المكتبات العامة يكلف الباحث من أمره عسراً ويشكل في طريقه عائقًا حقيقيًا لأنه يكلفه جهداً ووقتًا ومالاً وقد يصرفه عن متابعة البحث وخاصة إذا كان مرتبطًا بالتزامات وظيفية أو غيرها من الالتزامات.

إنه رجاء نتقدم به وما نشك في أنه سيلقى من أجهزة الدولة المسؤولة - كما تعودنا ذلك منها - كل عناية واهتمام.

ونعود إلى كلمة الكاتب الفاضل فقد وردت الاشارة فيها إلى اسم شيخنا العالم الشاعر الأديب الأستاذ المرحوم محمد سعيد دفتردار.

ولشيخنا الدفتردار وضع خاص بالنسبة لنا في نادي المدينة.

فلقد كان زميلًا كريمًا في أسرتنا الأدبية الصغيرة «أسرة الوادي المبارك» وكان عضوًا مواظبًا وعنصرًا فعالاً له اسهاماته الكبيرة في كل لقاء أسبوعي «ليلة الثلاثاء من كل أسبوع».

وقد حرص النادي على طبع تراثه الشعري وعلى طبع كتابه «أعلام المدينة» وحاولنا الحصول على مجموعته الشعرية فلم نوفق إذ يبدو أنه لم يجمعها قبل وفاته ولا بد والحالة هذه من الرجوع إلى المجلات والجرائد التي كان ينشر فيها وقد أشرنا إلى العقبات التي تحول دون الرجوع إلى تلك الصحف والمجلات.

أما كتابه «أعلام المدينة» وكان محتفلًا به في السنوات الأخيرة من حياته حريصًا عليه مهتمًا به وقد بذل في تأليفه جهودًا لا يقدر عليها إلا أولو العزم من العلماء الباحثين.

أما كتابه «أعلام المدينة» فله قصة ولكن هل أستطيع الحديث عنها بحرية في ضوء ما أعرف؟ يبدو لي أنني لا أستطيع على الأقل في هذا الوقت.

وكل ما أستطيع أن أقوله أن أتوجه بصادق الرجاء إلى أسرته وأبنائه أن يجمعوا أمرهم على استنقاذ تراث أبيهم الأدبي والعلمي من الإهمال والضياع وأن يعلموا أنهم بمبادرتهم إلى طبعه سيقدمون للناس ما يُنتفع به وذلك نوع من الوفاء لوالدهم الجليل ما أشك في أن كل الأبناء البررة حريصون عليه وفيه بالاضافة إلى ذلك تخليد لذكراه وخدمة للفكر والثقافة.

وكل واحدة من هذه ميزة باهرة وكسب كبير فما بالك إذا اجتمعت جميعًا.

وقد نشر الفقيد الجليل قسمًا كبيراً من كتابه في مجلة المنهل وجريدة المدينة فإذا لم يُطبع الكتاب بالصورة التي تركها عليه المؤلف فلا مناص من العودة إلى البحث والتقصي في المجلة والجريدة.

وبالمناسبة فقد سبق لي أن أبديت رأيًا في هذا الكتاب في حياة مؤلفه الجليل - رحمه الله - نشرته في جريدة المدينة أيام أن كنت أكتب فيها بانتظام وقد أثنيت على الكتاب ثناءً عاطرًا ولكن الذي أخذته على المؤلف أنه حرص على تسجيل حسنات من ترجم لهم وأغفل سيئاتهم إغفالًا تامًا فلم يعرض لها من قريب أو بعيد.

والمؤلف بعمله هذا قد أغفل نصف الحقيقة دون مبرر.

والسيئات جزء من حياة البشر ولكي يكون التاريخ صادقًا فلا بد فيه من عرض الوجهين المشرق والمظلم، وقرأ الأستاذ الجليل المقال ولم يرد عليه ولكنه ناقشني في إحدى لقاءات أسرة الوادي المبارك وأصرَّ على وجهة نظره ولم يستطع أن يقنعني بها رحمه الله وغفر له.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإنني أذكر أنني طلبت منذ مدة باسم النادي الأدبي من أستاذنا الشاعر العالم الأديب الشيخ عبدالحق النقشبندي حفظه الله وأمد في حياته النافعة أن يتفضل فيقدم شيئًا من إنتاجه إلى نادي المدينة المنورة الأدبي ليقوم بطبعه، ومنذ أسابيع قليلة قدم للنادي قسمًا من إنتاجه الشعري ولاحظت وأنا أتصفحه قلة القصائد التي يحتويها الديوان ولاحظت بصفة خاصة قصيدة من مطولاته حفظتها أيام أن كنت طالبًا بالمدرسة الابتدائية لاحظت أن ماكتب منها في الديوان - وقد سماه الشاعر الكبير النقشبنديات - لا يبلغ الثلث.

وفي إحدى زياراتي له بمنزله العامر أثرت الموضوع وأبديت له ملاحظتي فعلمت أنه اعتمد في ما جمع على ذاكرته لأنه لم يكن يحتفظ بمسودات قصائده أو بصور منها ومن الواضح أنه لم يستطع استنساخها من الصحف والمجلات التي نشرت بها لصعوبة ذلك أو تعذره.

وكان يحضر حديثنا أستاذ جليل يعمل في جامعة الرياض وينزل ضيفًا على أستاذنا عبدالحق فتدخّل - مشكورًا - في الحديث ووعد مشكورًا لذلك بأنه سيبحث عن قصائد الشاعر ويوافينا بها بعد عوته إلى الرياض ونحن في الانتظار.

وإذا كان الأحياء من الأدباء يعانون جمع تراثهم فما بالك بجمع تراث الراحلين في ضوء الظروف التي أشرت إليها.

هذه بعض الحقائق رأيت أن أضعها أمام القراء بمناسبة الكلمة المخلصة التي أشرت إليها في بداية هذا الحديث وفي أثنائه والتي يعود إليها الفضل في كتابة هذا المقال.

ابنتي العزيزة هناء

سلام الله عليكِ وتحياته وبركاته.

وبعد: فقد سعدت بتلقي رسالتك الكريمة وأحب في البداية أن أشكر لك حماسك لوالدك أستاذنا الجليل وشيخنا العلامة محمد سعيد دفتردار لأن الأدباء في الشرق في حاجة إلى هذه الحماسة من أبنائهم في هذا الزمان العجيب.

ولا شك أن من سعادة أستاذنا ووالدنا - رحمه الله وغفر له - أن تكون له ابنة تتحمس لمجده الأدبي وتراثه الفني.

وأحب ثانيًا أن أوضح نقطة تتصل بمؤسسي «أسرة الوادي المبارك» وكانت تسمى في بداية عهدها «أسرة العهد الجديد» وهؤلاء المؤسسون هم الأساتذة محمد هاشم رشيد ومحمد العامر الرميح وحسن صيرفي وكاتب هذه السطور.

وقد انضم لها بعد ذلك طائفة من كرام الإخوة في طليعتهم وعلى رأسهم أستاذنا الجليل والدك العزيز.

ومنذ سنوات قلائل سمح رسميًا بإقامة الأندية الأدبية وكان منها نادي المدينة.

وقد تأسس في عام ١٣٩٥هـ أي بعد وفاة والدنا العلامة بثلاثة أعوام تقريبًا ولذلك فلم يكن لنا شرف إسهامه معنا في تأسيس النادي.

وقد أردت بكلمتي أن أقول إن هناك أعضاء ساروا مع الأسرة منذ تأسيسها وأن هناك زملاء آخـــرون انضموا إليها بعد ذلك وعلى رأسهم كما قلت أستاذنا الدفتردار الذي كان عطاؤه أكبر بكثير من كثير من أعضاء الأسرة حتى من بعض الأعضاء المؤسسين.

هذه هي الحقيقة فيما يتصل بالنادي الأدبي وبأسرة الوادي المبارك.

وبالمناسبة فأنا أوافق تمامًا على جميع ماورد في رسالتك من جهود أستاذنا والدك رحمه الله في خدمة العلم والثقافة والأدب والفكر وهي جهود مشكورة مقدَّرة لا سبيل إلى نكرانها أو نسيانها ومن تلك الجهود استضافته «أسرة الوادي المبارك» في منزله العامر مرات كثيرة أضفى فيها على الأسرة الكثير من علمه وفضله وأدبه بالإضافة إلى كرمه وأريحيته وحسن استقباله.

وأحب ثالثًا أن أؤكد أن أستاذنا الشيخ الدفتردار هو دائمًا ملء القلب والنفس والشعور وأننا نذكره دائمًا وقد اتخذنا قرارًا في النادي الأدبي بطبع مؤلفاته المخطوطة بمجرد الحصول عليها وإعادة ما طبع منها مع دراسة حولها.

وبالمناسبة فإنه يطيب لي باسمي واسم مجلس إدارة النادي الأدبي أن أدعوك إلى الإسهام معنا في طبع ما تركه الوالد العزيز من مؤلفات ودواوين شعرية وخاصة كتابه عن أعلام المدينة حيث أن طبع هذا الكتاب يتفق مع المناسبة العظيمة التي يحتفل بها العالم الإسلامي وهي استقبال القرن الخامس عشر الهجري.

وأنا في انتظار جهودك في هذا المجال وننتظر أن نتلقى منك مؤلَّفه عن أعلام المدينة ومؤلفاته الأخرى.

تحياتي لأسرة شيخنا العلّامة، ويسعدني أن أقوم بأية خدمة لها ولأبنائها الكرام.

وشكرًا مرة أخرى لابنة الرجل العظيم.

مع خالص تحياتي،،،

الفراغ المسدود بين الصحافة.. والأندية

الرياضة البدنية قديمة قدم الإنسان عرفها منذ هبط إلى الأرض لأنها تتصل بتكوينه وطبيعته وظروف حياته.

وإذا قلت الرياضة البدنية فإنما أعني الرياضة البدنية بمعناها الأوسع.

كانت طبيعة الإنسان تفرض عليه أن يتحرك للبحث عن الغذاء.

ولم يكن الحصول على الغذاء سهلًا ميسورًا دائمًا فكان البحث عنه يقتضي جهدًا ومشقة ومشيًا مستمرًا وجريًا طويلًا.

وكان تكوينه الجسدي يدفعه منذ الطفولة إلى الحركة الدائمة الدائبة لأنه بغير هذه الحركة لا ينمو ولا يتقدم نحو اليفاعة ثم الشباب والرجولة.

وكانت ظروف حياته شديدة وقاسية فكان مضطرًا إلى وقاية نفسه من أخطار الطبيعة، شمسها المحرقة وأمطارها الغزيرة وبردها القارس، وكانت هذه الوقاية تتطلب منه أن يقيم من المباني والحواجز ما يحميه من أخطار الطبيعة، وكان بالاضافة إلى ذلك في حاجة إلى مقاومة الحيوانات المفترسة والدواب الزاحفة مما يدفعه إلى أن يكون دائمًا يقظًا خفيف الحركة سريع الوثوب أو التقهقر.

وعندما كثر النوع الإنساني وبدأت المنازعات القبلية والعصبية زادت الحاجة إلى النشاط الإنساني وأصبح كل فرد مضطرًا إلى أن يعتمد على نفسه في مقاومة أعدائه بالاشتراك مع أفراد أسرته أو عشيرته أو قبيلته.

وكل ذلك يحتاج إلى طاقات من النشاط.

وحتى عندما اهتدى الإنسان إلى استخدام الحيوانات في الركوب ظل مضطرًا إلى النشاط وخفة الحركة فإن ركوب هذه الحيوانات كان يستلزم استعدادًا خاصًا للصعود على ظهرها ثم الثبات عليها أثناء الجري أو المشي.

فكان ركوب هذه الحيوانات رياضة عنيفة يجد الصغير والكبير والشاب والشيخ نفسه مضطرًا إلى ممارستها واحتمال متاعبها.

ولم تَخِف هذه المتاعب عندما اهتدى الإنسان إلى اختراع «العجلة» وهو اختراع يعتبر من الاختراعات الخطيرة في التاريخ.

لم تخف متاعب الإنسان لأن ركوب المركبات التي توصل إلى اختراعها كانت مقصورة على فئة قليلة جدًا هي فئة المترفين.

وحتى هذه الفئة لم تكن تستمتع بهذه المركبات كما يجب لأن الطرق لم تكن معبدة بل كانت صعبة السبل عسيرة المسالك كثيرة العقبات وظلت الإنسانية تعتمد على رياضة المشي على الأرجل والركوب على الحيوانات حتى جاء عصر السيارات فقلب الأوضاع.

أذكر أنني كنت وأنا طفل صغير أرافق أبي - رحمه الله - ومعه ثلة من أصحابه في زيارة ضواحي المدينة أكثر من مرة في الأسبوع كما كنت أرافق أمي - حفظها الله وأطال حياتها ومعها عدد من صديقاتها في زيارات لمسجد قباء أو غيره.

وكنا نقطع الطريق في سهولة ويسر لا نشعر بأي ألم ولا بتعب ولا بفتور.

وكانت الطرق إلى هذه الضواحي تغص بجماعات الذاهبين والآيبين وهم في نشاط واغتباط ونشوة.

وكان لكل ذلك أثره في نشاط الأجسام ومقاومة الأمراض ومكافحة البدانة والسمنة رغم الشهية المفتوحة والأطعمة الدسمة وكثرة المشروبات.

أذكر أن الصديق العزيز والشاعر الرقيق السيد ماجد الحسيني دعاني وأنا طالب في المرحلة الثانوية في بستانه اللطيف بالسحيمي وحضرت بعد المغرب فوجدت الصديق الكريم قد أعد لنا مجلسًا حول البركة ومعنى هذا أنه لا يوجد خلفنا جدر نستند إليها ولا عندنا إلا الوسائد متكأ.

ووجدت في المجلس رجلًا بين الستين والسبعين من العمر يلبس جبة وعمامة يجلس متربعًا وأخذ الرجل يتحدث، وجلسنا حواليه نستمع ومرت ساعة والرجل في جلسته تلك هادىء مطمئن لا يتحرك منه غير لسانه.

وكان يستعين بيديه في أحوال نادرة.

وكان حديثه مسليًا رائعًا خلابًا ولم يكن في المجلس ما يضايق إلا شيئًا واحدًا هو هذه الجلسة المتعبة، ولم تستطع الوسائد الموضوعة على يمين كل منا وشماله أن تخفف من صعوبة الجلسة بالنسبة لي ولصديقي الداعي.

ولكن صديقي وجد الحل فقد كان يقوم بين آونة وأخرى بحجة إحضار الشاي أو القهوة أو بحجة أنه يشرب أو يقدم الماء لأضيافه.

أما محدثنا «الشيخ» فلم يكن بحاجة إلى هذه الوسائد فقد كان متربعًا مطمئنًا في جلسته مستمرًا في حديثه الذي كان يتدفق كأنه النهر الجاري.

وبقيت أنا أسيرًا لهذه الجلسة التي لم ينقذني منها إلا القيام لأداء فريضة العشاء.

وعدنا.. فعاد الشيخ إلى جلسته المريحة مستغنيًا عن الوسائد والمتكآت والجدر.

وعدت إلى جلستي وأنا أتململ فقد كان حديث الشيخ جديرًا بالاستماع ولم يكن من الهينِّ التضحية بهذا الحديث من أجل جلسة متعبة.. وجاء الفرج فقد جلس صديقي الداعي بعض الوقت وشعر بقسوة الجلسة.

فقد كان يباريني نحافة وخفة وضعفًا.

وبجرأته المعهودة استأذن الشيخ المتحدث في أن نأخذ حريتنا في الجلوس والتمدد وأذن الشيخ فأخذ صديقي حريته وظللت أنا بحكم طبعي الذي يميل إلى المجاملة والتزمت في جلستي ورآني صديقي ورأى أن يمكر بي ليعطيني درسًا في الجرأة والانفلات من القيود السخيفة.

فأغضى عني فترة من الوقت ولكنه أشفق عليّ وقد شعر بمدى ما أشعر به من إحراج فصاح بي قائلًا «تمدد خذ حريتك البساط أحمدي» وكنت بحاجة إلى هذه الكلمات فقد انصعت إلى رأي صديقي بعد أن تمنعت قليلًا وبعد أن أسمعني كلمة من قوارس كلمه. المهم في الموضوع أن «الرجل الشيخ» ظل على جلسته تلك ما يزيد عن أربع ساعات لم يشعر بملل أو تعب حتى انفض المجلس وهذا الشيخ المفضال مثلٌ لأبناء جيله.

ذلك الجيل الذي كان يعتمد على رجليه في المشي وعلى خفته ومرونته في الركوب.

قبل أن يطل علينا العصر الحديث بهذه الوسائل الحديثة التي قضت على الإنسان أن يعيش في رفاهية لا حد لها ولكنها جلبت مع هذه الرفاهية ألوانًا لا تحصى من المتاعب النفسية والجسمية فتصلبت الشرايين وتكورت البطون وثقلت الأبدان وضعفت المقاومة.

وأصبحت الأدوية على اختلافها جزءًا من غذاء الإنسان.

وقد استطاع الأوربيون أن يحدّوا من الآثار السيئة لهذه المخترعات كالمصاعد الكهربائية والسيارات والطيارات بأن جعلوا الرياضة جزءًا هامًا من حياة كل فرد منذ أن يدخل في طور الطفولة إلى أن يصل إلى مرحلة الشيخوخة.

فهو يمارسها وهو تلميذ أثناء اليوم المدرسي ثم يمارسها بعد ذلك في النوادي الرياضية ولا يوجد طفل ولا شاب ولاشيخ إلا وهو عضو في نادٍ رياضي يمارس لونًا من ألوان الرياضة يناسب سنه وصحته وبهذه الرياضة تمكنوا من التغلب على ثورة الوسائل الحديثة من أمراض وأسقام وأوجاع.

بل الغريب أنهم لم يغفلوا عن كبار الموظفين ورجال البحث ممن تضطرهم ظروفهم إلى البقاء مدة طويلة يقرأون ويكتبون ويفكرون.

فإن جلوسهم الطويل سيؤثر على أرجلهم وأعصابهم وربما ترك لهم بمرور الأيام عاهات مستديمة ولذلك لجأوا إلى طريقة طريفة.. فبجوار مكتب رجل الأعمال غرفة واسعة.. بما يشبه السرير - يستلقي عليه رجل الأعمال كلما أحس بالتعب، يضغط على زر خاص فيتحرك هذا السرير حركات متصلة يكون فيها رأس رجل الأعمال منحدرًا ورجلاه مرتفعتان والهدف من ذلك تحريك الجسم كله وتزويد النصف الأسفل من جسم الإنسان بالكميات الضرورية من الدم.

كما اهتم الغربيون بالعطلة الأسبوعية عطلة نهاية الأسبوع «الويك إند» اهتمامًا بالغًا فهم يستيقظون منذ الصباح الباكر ويلبسون أجمل ملابسهم ويذهبون أفرادًا وجماعات إلى البساتين والأماكن الخلوية حيث يقضون اليوم كله في مرح ورياضة وسعادة.

ثم هناك الاجازة السنوية وهذه يحرص كل موظف أو عامل على الاستمتاع بها ففيها تجديد لنشاطه وتزويد لطاقاته المختلفة، بزادٍ قوى يجعله يقبل على عمله بروح جديدة تساعده على العمل والإنتاج والابتكار.

وهناك بعض الشركات تلزم موظفيها إلزاما لا بأخذ اجازاتهم فحسب بل بقضائها خارج البلدة التي يقع فيها مقر العمل رغبة منها في تجديد المناظر والمرائي في عين موظفها ففي هذا التجديد آثار رائعة في نفس الموظف بالاضافة إلى ما يكسبه من خبرات نتيجة تعرفه على بلاد أخرى واحتكاكه بأناس آخرين.

أما في أكثر بلاد الشرق فالأيام تمر رتيبة متباطئة لا تجديد فيها ولا تغيير وأيام العمل تدفع بعضها دفعًا وأيام الاجازات الأسبوعة فرصة للنوم والكسل وملازمة الفراش.

وقد أخذنا في حياتنا نستغل المخترعات الحديثة استغلالاً كبيراً ولكننا لم ننتبه إلى ما تخلفه من آثار سيئة ولذلك فلازلنا نعادي التربية الحديثة.

ولازلنا نخاصم الرياضة البدنية ولازلنا نحارب كل نشاط رياضي ونفضل جلسة المقهى بما فيها من كسل وتراخٍ على جلسة النادي بما فيها من نشاط وحيوية وتغيير.

ومن العجيب بعد ذلك أن تقرأ في الصحف كلامًا مكرورًا معادًا عن الفراغ ومشكلة الفراغ.

وتسأل عن هذا الفراغ وكيف يمكن أن يحدث في الوقت الذي تشكو فيه كل الأندية من فراغها هي الأخرى من الزائرين واللاعبين والقارئين.

فتشك في جدية الكاتبين في الصحف أو فى شكوى المشرفين على هذه الأندية أو في عقلك أنت كما يقول الأستاذ الزيات.

من مكتبة الإسكندرية.. إلى مكتبة الجزائر(*)

تثار بين الحين والحين بسوء نية وبقصد الإساءة إلى العرب المسلمين وإلى النَّيل من دينهم والإساءة إلى سمعتهم واتهامهم بالجهل والتعصب.

تثار قصة عجيبة بين المؤرخين تعرف بقصة حرق مكتبة الإسكندرية وهي قضية وجدت فيها الصليبية والصهيونية المجرمة مجالا للكيد للإسلام والتنديد بعقلية زعماء المسلمين من العرب في صدر الإسلام.

ومكتبة الإسكندرية أسسها بطليموس الأول وكانت تشغل حيزا كبيرا من السرابيوم حيث يوجد هيكل سيرابير القريب من عمود السواري.

وأول من ذكر قصة الحريق هذه هو الرحالة عبداللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩هـ الذي زار مصر بين سنتي ٥٩٥ و ٥٩٨ في كتاب الإفادة والاعتبار وذكر أنه استقى هذه القصة من الأقوال المتواترة والأحاديث العامة ولم يذكر أي مصادر أخرى، كما أنه لم يُعطِ أي تفاصيل عن قضية الحرق هذه.

بل إنه لم يقصدها بالحديث وإنما ذكرها عرضا أثناء كلامه عن عمود السواري.

ثم جاء بعده مؤرخ آخر هو وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم والمشهور بين المؤرخين بابن القفطي نسبة إلى البلدة التي ولد فيها وهي «قفط» من بلاد الصعيد وقد توفي هذا المؤرخ في حلب سنة ٦٤٦هـ وقد عرض هذا المؤرخ لهذه القصة عرضا عابرا في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء».

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة بتاريخ ١٣٨٢/١٠/٢٢هـ العدد (٢٩٧).

ثم أتى بعده مؤرخ ثالث هو أبو الفرج بن اهروم المعروف بابن الصبري المتوفى سنة ٦٨٥هـ وقد أورد قصة هذا الحريق في كتاب تاريخ مختصر الدول وقد كتبه بالسريانية وعندما ترجم هذا الكتاب إلى العربية اختصره وأغفل ذكر قصة هذا الحريق.

وأكتفى بذكر مقدمة القصة ونحن ننقلها عن كتاب «تاريخ مختصر الدول» المطبوع سنة ١٨٩٠م يقول في سياق حديثه عن عمر بن الخطاب «وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أي النحوي وكان إسكندريا يعتقد اعتقاد النصارى اليعقوبية ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه فلم يرجع فأسقطوه عن منزلته وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ودخل عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها أنس ما هاله ففتن به.. وكان عمرو عاملا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه».

هذه هي المقدمة التي أوردها ابن الصبري في كتابه «تاريخ مختصر الدول» الذي كتبه بالعربية ولهذه القصة تكملة وردت في كتابه المطول المكتوب بالسريانية وهي «ثم قال يوحنا لعمرو في يوم من الأيام: «إنك قد أحطت بحوامل الإسكندرية وختمت على ما فيها ولست أطلب لك شيئا مما تنتفع به بل شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع فقال عمرو: وما الذي تقصد؟ فأجاب يوحنا: «كتب الحكمة الموجودة في خزائن الروم» فأجاب عمرو بأن ذلك أمر ليس له فيه رأي قبل استئذان الخليفة وكتب إلى عمر بن الخطاب يستفتيه في المسألة فأجابه عمر: «وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنه وإذا كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا أرب لنا فيه وتقدم بإعدامها فأمر عمرو بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية فما زالوا يحرقونها في مواقدها فاستنفدت في ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب».

هذه هي القصة كما رواها أبو الفرج ابن الصبري وقد عرض لها بالنقد والمناقشة طائفة من المؤرخين الأوروبيين نذكر منهم المؤرخ الإنجليزي «ادوارد جيبون» فقد ناقش هذه القصة في كتابه الضخم عن «تدهور الدولة الرومانية وسقوطها» وقد انتهى من تأليفه سنة ١٧٨٧ وانتهى من مناقشته لهذه القصة بنفيها واستنكارها.

وقد تحدث المستشرق الفرنسي العلامة لويس اميال في كتابه «تاريخ العرب العام» عن هذه القصة فقال: «روى أبو الفرج الذي عاش سنة ١٢٢٦ - ١٣٨٦هـ من الميلاد وأبو الفداء الذي عاش بين سنة ١٢٧٣ وسنة ١٣٣١ من الميلاد ان حرق مكتبة السرابيوم تم على أثر استيلاء العرب على الإسكندرية بيد اننا إذا فكرنا في أن انتهاب الإسكندرية لم يقع في أثناء صولة النصر الاولى تعذر علينا أن نعتقد صدور أمر يمثل هذا العمل الهمجي ولا يسعنا على ذلك أن نمر صامتين على قصة تمسك بها كثير من مؤرخي الزمن الحاضر فعدت ثابتة عند أول وهلة من الناحية التاريخية فمما افترض أن عمرو بن العاص سأل الخليفة عن مصير الكتب التي وجدت في الإسكندرية فكان جواب عمر بن الخطاب الاتي «وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء فيها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به وإذا خالفه فلا أرب لنا فيها وأحرقها» مع ان الحق هو انك لا تجد مؤرخا معاصرا لفتح الإسكندرية يروي هذا الخبر الذي إن صح لا يشمل غير عدد يسير من الكتب بعد أن اتلفت في زمن قيصر سنة ١٣٩٠هـ واتلف بعض آخر منها في زمن تيودوز».

وعرض لهذه القصة العلامة الفرنسي الدكتور غوستا فلوبود في كتابه حضارة العرب الذي أصدره عام ١٨٨٤ فقال عنها «وأما حرق مكتبة الإسكندرية فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب فتجعل المرء يسأل كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمنا طويلا وهذه القصة دحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها ولا شيء أسهل من ان نثبت ما لدينا من الادلة الواضحة ان

النصارى هم الذين حرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل فلم يبق فيها ما يحرق».

وقد تصدى الدكتور الفرد بتلر مؤلف كتاب فتح العرب لمصر لهذه القصة وناقشها مناقشة طويلة وأثبت أن أحد أبطال هذه القصة بل بطلها الرئيسي يحيى النحوي مات قبل غزو العرب لمصر بزمن طويل.

وهذا السبب وحده كاف لهدم القصة من أساسها فما بالك وهناك عدد آخر من الأدلة أوردها المؤرخون الأوربيون والعرب يمكن تلخيصها في الآتي:

١- ان القصة تحمل عوامل تكذيبها فبينما يذكر ابو الفرج الملطي ان عمرو بن العاص كان معجبًا بيوحنا النحوي ويصغي إلى أقواله ويعجب بآرائه الفلسفية ويكرمه كل الإكرام يعود فيذكر أن عمرو بن العاص قام بإعدام الكتب بناء على أمر عمر بن الخطاب.

٢- أن التعاليم الإسلامية تدعو إلى عدم التعرض لكتب أهل الكتاب.

٣- أن هذه القصة لم يتعرض لها أحد من المؤرخين القدامى من المسلمين والمسيحيين ولم تذكر هذه القصة إلا بعد مرور ستة قرون، فكيف أمكن السكوت عن هذه القصة طوال هذه المدة وإذا اتهمنا المؤرخين المسلمين بالتعصب والتحيز والسكوت عن الحق فبماذا نصف سكوت المؤرخين المسيحيين وبعضهم حريص كل الحرص على الإساءة إلى تاريخ المسلمين واستغلال كل حادثة من هذا النوع لتشويه سمعة الإسلام والحط من شأن العرب.

٤- إن مكتبة الإسكندرية تعرضت للحريق في سنة ٤٨ق.م فحين قامت الحرب بين يوليوس قيصر واهل الإسكندرية اشعل قيصر النيران في السفن الموجودة في الميناء كي لا تقع في قبضة العدو وارتفع اللهب بشدة حتى وصل إلى رصيف الميناء واحرق المكتبة الكبرى.

كما أحرقت مكتبة السرابيوم سنة ٣٠١م حين اشتد النزاع بين المسيحيين والوثنيين واعتبر الأولون هذه الكتب وثنية يجب القضاء عليها كما أكد ذلك المؤرخ اليوناني نلوتارك.

٥- ان توزيع الكتب على الحمامات طريقة لا تتفق مع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب - كما زعم الرواة - لأن ذلك سيطيل امد بقائها وربما اتاح الفرصة لشراء هذه الكتب واخفائها.

وبذلك تنتفي الغاية من حرقها.

٦- كانت الكتب تكتب على المركون وهو أنواع من الجلد لا تصلح لاستغلالها وقودا للحمامات أو غيرها.

٧- كان من شروط الصلح ان تترك للمسيحيين الحرية الدينية وحرق هذه المكتبة يعتبر خرقًا لهذه الشروط.

٨- ان بقاء الكتب ستة أشهر وقودا لأربعة آلاف حمام أمر غير مقبول ولا يرضاه العقل.

٩- ولو افترضنا أن هذه المكتبة كانت موجودة عند فتح عمرو بن العاص فلماذا لم يبادر المسيحيون إلى نقلها إلى القسطنطينية في أثناء الهدنة وعهد الصلح يسمح لهم بحمل كل ما يقدرون عليه ولديهم من الوقت ما يسمح لهم بنقل عشرات المكتبات لا مكتبة واحدة إذا رغبوا.

١٠- هذه هي الادلة التي اوردها المؤرخون المحدثون وهي أدلة قوية واقعة ولكن لفت نظري وأنا أدرس هذه القضية أن راوي القصة وهو غريفوريوس أبو الفرج بن هرون المعروف بابن الصبري كتب هذه القصة في تاريخه الذي الفه بالسريانية ثم طلب إليه ان ينقله إلى العربية فنقله ويحسن أن ننقل نص العبارات التي كتبها «الواقف على طبع الكتاب» «الاب انطون صالحاني اليسوعى» في هذا العدد يقول الاب المذكور «اما تأليفه لكتاب تاريخ الدول فروى «هذه برصوما ما معناه انه لما فشت التعديات في

نواحي نينوي أشير عليه في الانتقال إلى مراغة. ومن حيث انه كان هناك مكرما من خاصة الناس وعامتهم تقدم إليه بعض الوجهاء في أن ينقل إلى اللغة العربية كتاب التاريخ الذي ألفه بالسرياني فلبى طلبتهم واقبل على العمل فأتمه إلا بعض صفحات في نحو شهر بانشائه على جانب من التهذيب والفصاحة. وكان نقله لهذا التاريخ في أواخر حياته وقد ضمنه أمورا مثيرة لا توجد في المطول السرياني ولا سيما فيما يتعلق بدولتي الإسلام والمغول وتراجم العلماء والاطباء».

اقول انه لفت نظري ان ابن الصبري أغفل قصة حرق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية في ترجمته العربية واكتفى بذكر العلاقة التي قامت - في زعمه - بين يحيى المعروف بغراما طيقوس أي النحوي - وبين عمرو بن العاص وقد نقلنا كامل النص في بداية البحث.

فهل نستطيع أن نستنتج من هذا التصرف ان ابن الصبري رجع عن رأيه في اتهام عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص بحرق مكتبة الإسكندرية.

ام انه خشي أن ينقل هذه القصة إلى الترجمة العربية فيتيح للمؤرخين العرب والباحثين على اختلافهم فرصة تفنيد رأيه وتكذيب وتزييف روايته.

مع أن الاب صالحاني يذكر في تاريخه العربي بأنه «قد ضمنه أمورًا كثيرة لا توجد في المطول السرياني ولا سيما في ما يتعلق بدولتي الإسلام والمغول».

ان هذا الموقف من جانب ابن الصبري يدعو إلى التأمل والمناقشة.

على أن من المؤكد أن قصة حرق مكتبة الإسكندرية من الصفحات التي أغفلها ابن الصبري ولم ينقلها إلى العربية اذ ان الأب صالحاني يذكر في مقدمته «واقبل على العمل فأتمه إلا بعض الصفحات».

كما أن أمرا آخر يجب ان لا نغفل عنه هو تحديد صاحب المقدمة للوقت الذي نقل فيه ابن الصبري كتابه بالسريانية إلى العربية وقد حدد صاحب المقدمة ذلك بقوله «وكان

نقله لهذا التاريخ في أواخر حياته» فهل أوصلته أبحاثه ودراساته وعلاقاته الطويلة بالمسلمين إلى انكار هذه القصة ولكنه بحكم مسيحيته ومركزه الديني الكبير في المسيحية لم يستطع أن يعلن رأيه صراحة ولذلك لجأ إلى هذا الأسلوب وهو تجاهل هذه القصة في الترجمة العربية.

مهما يكن من شيء فإن اغفال نقل هذه القصة من الأصل السرياني إلى الترجمة العربية أمر يجب ألا نمر به مرورا عابرا وهو - في نظري - ذو دلالة عميقة ودليل جديد هام يضاف إلى الأدلة السابقة.

وبعد.. فلست أدري لماذا أذكرتني هذه القصة بالفرات بين آونة وأخرى مع أن لها مناسبة في التاريخ القديم والحديث - مع أن المؤرخين الإفرنج قد انتهوا من بحثها وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تهافت هذه الرواية وعدم استنادها إلى دليل مقبول أو منطق معقول.

يبدو أن السبب هو كما ذكرنا في بداية البحث يكمن في الرغبة العارمة التي تسيطر على الصليبية الحاقدة والصهيونية المجرمة والتي تهدف إلى الإساءة لسمعة العرب والتهوين من شأن الإسلام.

وإلا فالتاريخ حافل بكثير من الجرائم التي ذهبت ضحيتها كنوز من التراث الإنساني لا تعوض ولا نريد في هذا البحث أن نستقصي كل الحوادث من هذا النوع ولكن نكتفي بذكر حادثتين من التاريخ الأدبي وقعت إحداهما في الأزمنة القديمة ووقعت الأخرى في هذا العصر الذي نعيش فيه.

ومع ذلك فلا يكاد يذكر أحد هاتين الحادثتين.

اما الحادثة الأولى فقد وقعت سنة ١٤٤٩ عندما اشتد لدى المسيحيين حمى تنصير المسلمين في الاندلس وخاصة غرناطة وقد استجاب لحملة القيصر هذه عدد كبير من الخاصة «اغتناما للحظوة أو اتقاء للاضطهاد» وتبعهم عدد كبير من العامة ولكن فريقا آخر حاول الاحتجاج بأن هذه الأساليب لا تتفق وبعض العهود المقطوعة فهدد

الكن ذيال الكنيس - نعم اذكر هذا الاسم - هدد باتباع الشدة والعنف وبدأ ذلك بأن «جمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداسا في أكبر ساحات المدينة وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب القصة والكلام ومنها أيضا كثير من كتب الأدب والعلوم - أضرمت فيها النار جميعا ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب في الطب».

وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد جميع المخطوطات التي أحرقت فقدرها بعضهم بمليون كتاب وقدرها بعضهم بثمانين الفا ويميل المؤرخ المعروف الأستاذ أحمد عبدالله عنان إلى التقدير الأخير، وسواء صح هذا التقدير أو ذاك فإنه لن يخفف من بشاعة هذه الجريمة التي يجب أن يذكرها المسلمون وأن ينقشوها في أذهان أبنائهم.

أما الحادثة الثانية فقد وقعت قبل عامين[١] فقط وارتكبها فرنسيون مثقفون متنورون من الفرنسيين الذين يفخرون بأنهم جاءوا لتحرير العالم هم أعضاء منظمة الجيش الفرنسي السري فقد احرقوا بكل صفاقة ووقاحة مكتبة جامعة الجزائر.

ولم تقم الدنيا يومها ولم يثر أحد حتى ولا العرب على هذا الاعتداء الهمجي الوحشي الذي يذكر بأيام هولاكو وجنكيز خان بل مرت المسألة بسلام ولم تزد الصحف العربية على أن نشرت الخبر في قالب رصين كما تنشر أي خبر عادي لا يثير الغضب ولا يهز المشاعر ومن يدري فربما اعتبرت منظمة الجيش الفرنسي السرية حرق مكتبة جامعة الجزائر من أمجادها ومفاخرها.

هذان حادثان من حوادث كثيرة ربما عرضنا لها في مناسبة خاصة وقع احدها في الزمن القديم ووقع الاخر في العصر الحديث وهما حادثان بشعان مجرمان يمقتهما كل ضمير حي منصف نظيف ومع ذلك فهما لا يذكران أبدا وربما لا يعرف أحد غير المتخصصين في التاريخ الاندلسي شيئا عن الحادث الأول.

(١) ربما يكون ذلك قد حدث بين عامي ١٣٧٩/١٣٨٠هـ انظر هامش المقال ص١١٦.

كما أن الحادث الثاني قد طوي في ضمير النسيان.

أما حرق مكتبة الإسكندرية المزعوم في عهد عمرو بن العاص فحديث يجب ان يذكر في كل مناسبة ومهما طال الزمن فهو عاجز عن أن يسدل عليه ستار النسيان!.

ولعلي بعد هذه الجولة الطويلة قد استطعت ان اجيب على سؤال القارئ الفاضل الذي كتب يلفت نظري إلى ما نشرته إحدى المجلات الكبرى حول هذا الموضوع ويسألني الرأي فيه.

نظرات وتعليقات

مصحف عثمان... في المتحف البريطاني..

الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار يكاد ينفرد بين أدبائنا بحرصه الشديد على التراث العربي المخطوط، يتابع تنقلاته من مكان إلى آخـــر ويدعو المسؤولين والقادرين إلى لـمّ شعثه وتجميعه والبذل السخي في سبيله، وله في ذلك حوادث وأحاديث وجهود مشكورة مقدورة.. وكان آخر ما قرأنا له في هذا الصدد مقاله القيم عن «مصحف عثمان» في العدد الصادر في ١٩/٣/١٣٨٤هـ من جريدة البلاد وقد تحدث في المقال عن توحيد الخليفة الراشد عثمان للمصاحف وكتابته «ست نسخ منها احتفظ بواحدة في المدينة المنورة وبعث بخمس النسخ الاخريات إلى الامصار».

ثم تحدث عن اختفاء «هذه المصاحف الامهات على مر الأيام» وقال انه يعلم «أن واحدة منها كانت لمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة مكتوبة على رق غزال».

وذكر بعد ذلك أن في العالم مصحفين غير مصحف المدينة، واحد في تركستان الواقعة تحت يد الاحتلال الشيوعي والمصحف الثاني في أفغانستان.

وبعد أن تحدث عنهما بشيء من التفصيل دعا وزارة الحج إلى إقامة متحف في مهبط الوحي لكتاب الله.

وهو اقتراح قيّم ووجيه، وما نشك في أنه سيلقى الاستجابة والقبول من وزارة الحج ومن كافة المسلمين في أقطار الأرض على أن الأمر الذي دفعني إلى كتابة هذه الكلمة ليس مجرد الرغبة في الاشادة بجهود الأستاذ ولا من أجل تدعيم اقتراحه وإنما

أحببت بالإضافة إلى ذلك أن أوجه الأنظار إلى مصحف آخر لعله أهم المصاحف العثمانية جميعا لانه المصحف الذي احتفظ به الخليفة عثمان لنفسه واستشهد وهو يقرأ فيه..

فقد أذكرني مقال الأستاذ العطار عن مصحف عثمان بمقال كنت قرأته عن أحد مصاحف عثمان رضي الله عنه في إحدى المجلات نسيت اسمها فعدت إلى البحث والتنقيب حتى عثرت عليها.

وهي مجلة «الأديب» البيروتية.

والمقال الذي أشير إليه مقال كتبه الأستاذ «أبو طالب زيان» وذكر فيه أن أسرة في قرية «البهنسا» من قرى مقاطعة المنيا بمصر هي أسرة الأحدق كانت تحتفظ بمصحف عثمان الشهيد «رضي الله عنه» وعليه دمه الزكي الذي سقط على المصحف عندما قتله المارقون وهو يقرأ فيه.

أما كيف آل هذا المصحف إلى هذه الأسرة، فإن الكاتب الفاضل يوضح ذلك بقوله: «في عام واحد وثمانمائة للهجرة تنزلت من مجلس القضاء الأعلى من مكة وثيقة تحمل نسب أسرة الأحدق إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، وتصف قضاء شرعيا لجد هذه الأسرة الأعلى بدار الرصافي مما جعل «أبان بن عثمان» يفد إلى البهنسا ويطلب ميراثه عن أبيه من أشياء هذه عدتها:

ألف ومائة ناقة وجمل ومئتان وستون دينارا وعبدان سودانيان وجارية حبشية ومصحف مخطوط عتيق.

على أن أسرة الأحدق قد أعطته نصيبه من الميراث وعوضته عن مصحف أبيه الذي تعهدته بالرعاية».

ثم تحدث الكاتب عن هذه الأسرة وكيف أنها كانت تعتمد في حياتها على ما تحصل عليه من ضريبة نظير المشاهدة والتبرك بهذا المصحف الكريم وكان بيت هذه الأســـرة مقصداً للزائرين من أقطار الأرض وكان المصحف معروضا للجماهير وقد فتح على الصفحة التي بها الآية القرآنية الكريمة ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾.

وهي الصفحة التي تخضبت بدماء ذي النورين عثمان رضي الله عنه.

ويذكر الكاتب أن بعض الظروف القاسية دفعت هذه الاسرة إلى بيع هذا الأثر التاريخي النادر باقل ثمن ولقد وفق الكاتب في التعبير عن فقد هذا التراث العظيم عندما قال «وفقـــد مصحفنـــا التالد كما فقد خليفة المسلمين من قبل هذا بيد آثمة وذلك بيد ناهمة». إذ انتقل المصحف إلى يد الحكومة البريطانية حيث وضعته في المتحف البريطاني وقام المتحف بعرضه للناس في إطار من الفن يهز ويثير المشاعر. ويخلب الألباب.

وهذه الطريقة في عرض هذا الأثر النفيس تصلح لأن تكون نبراسا نهتدي به في عرض ما لدينا من آثار تاريخية مخطوطة وخاصة بالنسبة للمتحف الذي يقترحه صديقنا الكاتب البليغ الأستاذ العطار.

ويقول الأستاذ أبـــو طـــالـــب في وصف طريقة عرض هذا المصحف في المتحف البريطاني.

«يشهد الزائر لهذا المتحف عن يمينه منظرا عجيبا كله السحر بما عكس عليه من أضواء وما أحيط به من رموز هي غاية ما يتمنى المرء ان يستأنى أمامه ساعة أو بعض ساعة، متكأ مستطيل تحيط به زخرفة مسطرة تجمع آيات مذهبه تضرب إلى الحمرة إشارة إلى الدم الفوار الذي سال فوق هذا الورق العتيد وتلك الصفحة بعينها التي حفظت دم الشهيد وهو يتلو آيات الله.

على أن المتأمل في هذه الطنافس التي فرشت بها أرض الحجرة يرى الفن العربي الأصيل يشع من خلال هذا التناسق الذي ازدان به المكان.

فالأشعة البنفسجية التي تفنن فيها الصناع وما تعكسه من انفعال تثير في النفس مختلف الاسئلة وشتى الأحاسيس.

أما المصحف الذي يشير إليه الأستاذ العطار في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت فلم اعثر عليه عند زيارتي لمكتبته وإنما وجدت مصحفًا كتب على طريقة الرسم العثماني وهو حديث نسبيا إذ إن حروفه معجمة واعجام الحروف إنما بدأ في عصر عبدالملك وانه أمر به كما هو معروف.

نظرات وتعليقات

بين باحث وناقد:

كتب الأستاذ العلامة عبدالله عبدالجبار مقالين مطولين في جريدة البلاد في العددين الصادرين في ٢٥و٢٦/٢/١٣٨٤هـ استعرض فيهما البحث القيم الذي كتبه الشاعر الفلسطيني الأستاذ «كامل السوافيري» والذي تقدم به لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ونال به درجة الماجستير في الأدب العربي بتقدير جيد جداً.

وهو يبحث عن «مأساة فلسطين في الشعر العربي الحديث» وقد وفق الأستاذ العلامة - كعادته دائما - في استعراض ما ورد في رسالة الأستاذ السوافيري وألقى أضواء قوية على الجهود الكريمة التي بذلها الباحث وعلى نهجه في البحث وطريقته في معالجة الموضوع.

ثم ابدى الأستاذ العلامة بعض ملاحظات على هذا البحث وكان مماأخذه على الأستاذ السوافيري انه لم يتخير في رسالته نصوصا من الشعر الحر «بحجة أن ما اطلع عليه منه تنقصه القوة والجودة».. ومن رأي الأستاذ عبدالله عبدالجبار أنه كان الأجدى - في نظره - أن يأتي بنماذج له.. ولو لتأكيد رأيه في هذا الشعر على الاقل «على أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن تخلو الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٥ من نص أو بضعة نصوص من الشعر الحر تتوافر فيها عناصر الإشراق الفني مع الجودة في طريق التناول إلا أنه التحيز الذي كنا نود لو تجرد منه الباحث في هذا المجال».

وارجو أن يسمح لنا الأستاذ العلامة بان نخالف رأيه في هذا المجال، فالشاعر السوافيري «يكره الشعر الحر» كما يقرر الأستاذ الكاتب في مقاله القيّم ومن المؤكد أنه كره قائم على أساس من الدرس الواسع والبحث المتعمق.

وليس من المعقول أن يكون كرهه لهذا اللون الغريب الشاذ اعتباطا من غير سبب أو دليل. وهو الشاعر المثقف الباحث.

وما دام الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى ذكر نصوص من هذا اللون المنطلق، فتجاهله في بحث جامعي جاء هو الأفضل والأولى.

هذه واحدة اما الثانية فإن موضوع البحث هو «مأساة فلسطين في الشعر الحديث» وهو موضوع فيه كل عوامل الثورة والإثارة والغضب والحنق والاستفزاز والعنف والشعر الذي يعالج موضوعات من هذا النوع هو الشعر الحماسي الذي يعتمد على البحور القوية والقافية الموحدة والجرس الموسيقي الرنان وهذه كلها لا تتوافر في الشعر الحر أو الشعر المرسل او الشعر المنثور أو أي نوع من هذه الأنواع الدخيلة إذا صح أن ندخلها في نطاق الشعر.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما قرره الشاعر الباحث من أن ما اطلع عليه من هذا الشعر الحر تنقصه القوة والجودة وهو قول صحيح لا داعي لاتهام كاتبه بان دافعه إليه هو مجرد كرهه له إذ لو كان الأمر مجرد كره لتجاهله ولم يشر إليه من قريب أو بعيد.

نقول إذا اضفنا ذلك إلى ما سبق فإننا نستطيع أن نقرر أن الشاعر الباحث الأستاذ السوافيري قد أحسن كل الإحسان في استبعاد هذا اللون الدخيل من رسالته العلمية القوية الجادة.

ونذكر بهذه المناسبة ان الامير مصطفى الشهابي سأل الأستاذ عباس محمود العقاد في التعقيب على بحث له القاه في مجمع اللغة العربية في القاهرة عن «الشعر العربي والمذاهب الغربية الحديثة» ساله عن رأيه في ما ينشر في بعض المجلات الأدبية «من شيء يسمونه شعرا لا وزن له ولا قافية وعمود الشعر احيانا مقتصر على كلمة أو

كلمتين بعدها اداة تعجب وتوضع نقط فما هي الموسيقى الشعرية في ذلك؟ وهل يسمى هذا الشعر شعرا أم يسمى نثرا ام ماذا يجب أن نسميه؟. هذا مع العلم بان له انصارا من الناس يمكن ان يقال انهم أدباء وشعراء.

وقد ردَّ الأستاذ العقاد على هذا السؤال بقوله «إذا جاءنا شيء من هذا مما لا وزن فيه ولا قافية - في المجلس الاعلى للفنون والآداب - أحلناه إلى زميلنا الدكتور مهدي علام رئيس لجنة النثر لينظر فيه إذا شاء أن يعتبره نثرا، وغاية ما هنالك أنه ليس لنا ولا يجب ان نحجر على أحد يختار لنفسه منهجا لكتابة يسميه ما يشاء ولكن الحرج في أن نحكم أنه عاجز عن أداء الافكار الشعرية.

إن لهم أن يكتبوا ما يشاءون ولكن ليس لهم أن يحكموا على الأوزان أو المعاني الشعرية.

وأجاب الأستاذ العقاد على سؤال مماثل للأستاذ محمد فريد أبو حديد بالجواب الآتي «اما عن الشعر الذي لا تتوافر له المصاريع التقليدية مثل الآنسة نازك العراقية.

فنحن نقرأ لها ما تكتب ولكن لا نصنفه شعرا.

وقد يكون كلاما بليغا او نثرا شعريا وبهذا نفرق بينه وبين غيره من الفنون» انتهى.

فهذه الالوان الشعرية الدخيلة تعتبر في رأي العقاد وغيره من كبار الباحثين عجزًا عن أداء الأفكار الشعرية.

ولهذا فنحن نؤيد مرة أخرى الأستاذ السوافيري في استبعاده هذا الشعر الحر.

ونختم هذه الكلمة بقول الشاعر العربي الشهير الأستاذ محمود غنيم من قصيدة طويلة في رثاء العملاق العظيم عباس محمود العقاد يقول فيها عن هذا الشعر الدخيل.

رب نظم ما له من هدف ... ليس يدري ناظموه موقعه
ومن الشعر غث فاتر ... تأنف الأذان من أن تسمعه
ما له من ابحر أو ترع ... أو عيون .. لست تدري منبعه

لـــفـــقـــتـــــه عـــصـــبـــة مـــا وردت ... بـــحـــره بـــل وردت مـــســـتـــنـــقـــعـــه
(هـــل درى الـــشـــمـــاخ في حـــجـــرأتـــه ... أن قـــومـــا ألـــبـــســـوه قـــبـــعـــه
يـــا دعـــاة الـــشـــعـــر مـــاذا قـــلـــتـــمـــو؟ ... أنـــا لا أســـمـــع إلا جـــعـــجـــعـــة
أيها الـــذؤبـــان قـــد حـــل الـــثـــرى ... واســـتـــبـــيـــحـــت حـــرمـــات المـــســـبـــعـــة
(فـــأحـــلـــوا) الـــشـــعـــر مـــن أوزانـــه ... واقـــطـــعـــوا كـــل لـــســـان قـــطـــعـــه

نصوص من التوراة

على هامش النقد:

المتأمل في أمر هذا الدين دين محمد سيد ولد آدم - صلى الله عليه وسلم - تتفتح أمامه أسرار وتتجلى رموز لا يكاد يقضي منها عجبا.

وعجيب أن تغفل الإنسانية عن حقيقة الإسلام بعد أن تفتحت الأذهان وانتشر العلم وحقق العقل البشري انتصارات ضخمة هزت العالم ونقلته من حال إلى أحوال.

عجيب أن تغفل الإنسانية عن الإسلام دين الحق والعدل والمساواة دين الفطرة السليمة دين العقل والقلب.

عجيب أن تستطيع ظلمات المادية والوثنية والجهالة أن تحجب هذا النور الوهاج فتحول بينه وبين أن يعمر القلوب بالإيمان والنفوس بالتوحيد والوجدان بالحب.

عجيب أن تغذ الإنسانية السير نحو المجهول وتتعرض من جراء ذلك للهجير اللافح والظمأ القاتل ثم تتلفت باحثة عن الماء والري والظل فلا تجده وهو منها قاب قوسين أو أدنى ولكن البصيرة مغلقة والبصر كليل.

وحتى من شذَّ من أفراد القافلة وعثر على الواحة الفيحاء الوارفة الآمنة الخضراء كذّب نفسه وسيطر عليه وهم كبير لم يستطع الانفلات منه ودخل في روعه أن ما يراه سرابا وأن بينه وبين الظل والأمن والراحة آمادًا وآمادًا شأن ذلك المفكر الأوروبي الذي سمع عن بعض حقائق الإسلام فقال وهو في دهشة ملكت عليه أقطار نفسه «اذا كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون».

وكان المأمول أن تكون هذه الصحوة فاتحة طريق يوصل سالكه إلى الأمان النفسي والاطمئنان الروحي.

ولكن سحب الأوهام كانت أقوى من أن تخترقها ومضة خاطفة فاستطاعت أن تلف المفكر الأوروبي وأن تحول بين عقله وبين مصاحبة الحقيقة الموصلة إلى شاطيء السلام.

والحقيقة بلا ريب هي الإسلام الدين القائم على أسس من الحقائق الباهرة تساير العقل وتحقق السعادة للناس في حياتهم الأولى وحياتهم الأبدية.

اكتب هذا الحديث عن الإسلام لا لأنني مسلم فقط نشأت في بيئة إسلامية من أبوين مسلمين كما هو شأن الغالبية العظمى من المسلمين ولكن لأنني فكرت في الإسلام وأطلت التفكير.

وكان أول ما لفت نظري وأنا أخطو خطواتي الأولى في سُلَّم الثقافة أن الإسلام يدعو إلى التفكير ويمجد العلم ويكره التقليد.

وربما عاد الفضل في الدرجة الأولى إلى عالم فاضل توفاه الله منذ سنوات كان يدرس لنا في المرحلة الابتدائية التوحيد وعلوم الدين وكان يحثنا على الاجتهاد في النظر والتفكير وكنا في دهشة من دعوته فقد كان التقليد هو الفكرة السائدة.

وكنا نظن باستاذنا الظنون، حتى تكشفت لنا الحقيقة اخيرا فعلمنا ان استاذنا كان رجلا ناهيك من رجل.. رحمه الله وغفر له.

ولا أريد في هذا المقال القصير أن أعدد مزايا الإسلام ولكنني أحب أن أتحدث عن ميزة واحدة هي نظرة الإسلام إلى الرسل والأنبياء وهي نظرة فيها سمو وفيها الدليل أعظم الدليل على أن الإسلام دين السماء لم تدنسه الأغراض ولم تعبث به الشهوات ولم يتطرق إلى الباطل من قريب أو بعيد.

والإسلام هو الدين الوحيد بين أديان العالم الذي يجل الرسل قاطبة ويقول في صراحة ووضوح على لسان أتباعه ﴿**لا نفرق بين أحد من رسله**﴾.

ويرى أن الرسل على اختلاف عصورهم وأجناسهم رجال مكرمون لا يجوز الإساءة اليهم أو الحط من شأنهم بل يعتبر المسلم الذي يخرج عن نطاق التمجيد لهم والتقديس لمكانتهم خارجًا عن الإسلام.

ومع كثرة الفرق في الإسلام فجميع المنتسبين إليها متفقون على هذا المبدأ لم يشذ منهم أحد.

وإن كان من الغريب حقا أن بعض أتباع المسيح مثلا يقولون عن المسيح مقالة لا يرضاها أتباع محمد ويقولون وهم يسمعون ﴿**سبحانك هذا بهتان عظيم**﴾.

وفي الوقت الذي يهاجم فيه أتباع موسى عيسى رسول الله ويقابلهم أتباع عيسى بالمثل فيهاجمون نبي الله موسى ويتفق الجميع على مهاجمة محمد - صلوات الله عليه - نجد القرآن يقول ﴿**واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا**﴾.

ويقول عن عيسى: ﴿**قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا**﴾.

ذكرت هذه الحقائق وأنا أقرأ مقالا في إحدى المجلات العربية عن البحر الميت وقد تعرض لقصة نبي الله لوط فنقل عن سفر التكوين في التوراة نصوصًا «فظيعة» - إن صح هذا التعبير - ولوط عليه السلام ابتلي في قومه فقد كانوا كما ذكر القرآن يأتون الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين.

وابتلي في اسمه فقد صار علما على أولئك المنحرفين الذين يسلكون الطريق المعوج ويؤثرونه على الطريق السوي السليم.

إليه ينسبون ومنه تشتق جميع الألفاظ التي تعبر عن هذه العملية الشاذة حتى لقد بلغ الأمر بكثير من العامة أن يرسموا على وجوههم صورًا من الاشمئزاز والتقزز

وهم يسمعون اسم نبي الله لوط وكثيرا ما ينطقون بألفاظ تعبّر عن سخطهم واستيائهم جاهلين الفرق بين لوط نبي الله وآله الصالحين وبين قومه المنحرفين الضالين.. وابتلي في شخصه بهذه القصة المكذوبة التي نُجل ُعنها رجلا عاديا فاضلا أمّا نبي من أنبياء الله اختصه الله برسالته فذلك الأمر الفظيع والبهتان الكبير، وحسب التوراة أن تذكر فيها هذه القصة لتعطي الدليل الباهر على أن يد المسخ والتحريف عبثت بالكتاب الذي انزل على موسى.

يقول النص «فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء تكوين ١٩:٢٤ فهدمت مدن الدائرة بالقرب من عمق السديم وأصبحت البلاد خالية خاوية من أهلها ومن سمار لياليها.

إلى أن كانت ليلة خالدة في التاريخ وقفت فيها ابنة لوط البكر تفضي لشقيقتها الصغرى بسر كامن في قلبها... وقالت الكبرى للصغرى: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض «تكوين ١٩:٣١»... وفي تلك الليلة وفي كهف مظلم بقرب البحر الميت فسقتا أباهما خمرا تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها - تكوين ١٩:٣٣».

وفي الليلة التالية فعلت الصغرى ما فعلته أختها في الليلة السابقة وبعد هاتين الليلتين امتلأت سهول البحر الميت بالسكان ودبت الحياة والحركة في المنطقة فأتاها أناس كثيرون وأقاموا فيها حتى ازداد عدد أهلها وارتفع شأنهم وزادت ثروتهم وكانت أغنى هذه المدن وأكثرها ازدهارا مدينة أريحا مدينة النخيل والواحة الخضراء شمالي البحر الميت.

ومن المشاهد أن كثيرا من الحيوانات تأنف أن يكون بينها وبين أبنائها أو آبائها اتصال من هذا النوع فكيف بنبي وابنتي نبي.. ﴿**سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم**﴾.

وأين هذه الأكـاذيـب المرفوضة شرعـا وعقـلا من قـول القرآن عن لوط في سيـاق حديثه عن ابراهيم **﴿ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾**[1].

وبقوله: **﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾**[2]. صدق الله العظيم..

(١) سورة الأنبياء الآية (٧١).

(٢) سورة الأنبياء الآيتان (٧٤، ٧٥).

لقمان الحكيم والدفاع عن السرطان

لقمان بن عنقاء بن سدون عَلَم بارز في دنيا الحكمه معروف الاسم مجهول اللقب، فمع أن اسمه مشهور في كل مكان وزمان. كعَلَم بارز من أعلام الحكمة فإن قلة من الناس هي التي تعرف اسم أبيه وجده، فهو من أسرة لا مكان لها في التاريخ ولولاه لكانت موجة صغيرة ضعيفة في وسط الخضم البشري يبتلعها القاموس المحيط كما ابتلع ملايين الموجات فذهبت نسيا منسيا لا يحفل بها تاريخ ولا يذكرها إنسان.

ولكن خالق الحكمة ومبدعها ومخرج الحياة من الموت ومولج الليل في النهار ومفجر الماء من الصخر وباعث الأموات من القبر وجاعل الفقير نبيًّا وراعي الغنم رسولًا ويتيم الأبوين سيد ولد آدم.

أراد أن يستخلص من هذه الموجة البشرية التافهة حكيما تعنو له العقول وتصيخ له الآذان وتخضع له القلوب.

فاصطفى منها لقمان وآتاه الحكمة ﴿**ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا**﴾.

نعم اقترن اسم لقمان بالحكمة فهو دائمًا وفي كل الكتب القديمة والحديثة «لقمان الحكيم» وهذا الاقتران بينه وبين الحكمة ثابت في أذهان المثقفين حتى ولو لم تذكر كلمة الحكيم.

وحَسْب لقمان مزية أن يذكر اسمه في القرآن مرتين وأن يختص بسورة من سوره سميت سورة لقمان وفيها يسجل الله العلي القدير أنه وهب الحكمة للقمان ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة**﴾ كما يسجل بعض حكمه ونصائحه وعظاته لابنه.

ويتحدث العلماء عن لقمان الحكيم فيصفونه بأنه كان عبدا حبشيا أسود وكان قصيرا أفطس الأنف غليظ الشفتين ذا مشافر مصفح القدمين مشققهما.

وكان نجارا قضى فترة من حياته يرعى الغنم.

ولكن هذا العبد كان فوق السادة في الأدب والذوق وحسن الخلق، فقد رآه رجل يعرفه وهو في مجلس ناس يحدثهم فقال يا لقمان الست عبد بني فلان الذين كنت ترعى لهم بالامس؟ قال بلى ! قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وتركي ما لا يعنيني.

ووقف عليه رجل آخر فقال: أنت لقمان أنت عبد بني الحسماس قال: نعم قال: أنت راعي الغنم قال: نعم قال: أنت الاسود قال: أما سوادي فظاهر وما الذي يعجبك من أمري قال: وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك قال: يا ابن اخي ان أصغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك قال لقمان: غضي بصري وكفي لساني وعفة طعمتي وحفظي فرجي وقولي بصدق ووفائي بعهدي وتكرمتي ضيفي وحفظي جاري وتركي مالا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى.

ويروى عن الصحابي المشهور أبي الدرداء أنه قال يوما وذكر لقمان الحكيم فقال.

ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال، ولا حسب، ولكنه كان رجلا صمصامة سكيتا طويل التفكير عميق النظر لم ينم نهارا قط، ولم يره أحد قط يبذق ولا يتنخع ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك.

وكان لا يعيد منطقا نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد.

هذا هو لقمان رجل بأكمل معاني الرجولة كل صفة من صفاته تعدل ثروة وهي وحدها كافية لأن تجعله حكيما حقا وأن تجعله مثلا من الأمثلة البشرية السامية، فما بالك وقد ترك ثروة من الحِكَم الغوالي، تحدث عن بعضها القرآن في سورة لقمان كما تحدثت كتب التفسير والحديث والأدب عن طائفة كبيرة منها.

ويبدو أن العرب واليهود يتنازعون فخر انتسابه اليهم فقد زعم «بعضهم» أن لقمان كان من قضاة اليهود ولكني أعتقد أنه عربي بالولاء فهو عبد بني الحسماس وهم قبيلة عربية، ثم إن اسمه عربي الأرومة.

فهو مأخوذ من «اللقم» وهو وضع الأكل في الفم بسرعة كما أن «اللقم» بفتح اللام مشددة مع فتح القاف هو المنهج والطريق، ويقال رجل لقم لهم بفتح اللام وكسر القاف وفتح اللام.. وكسر الهاء في الثانية أي بليغ الحجة قوي العارضه يعلو الخصوم.

وقد اشتق العرب من هذه المادة اللغوية اسمين أحدهما لقيم على وزن سهيل وزبير وثانيهما لقمان على وزن عثمان ولبنان.

على أن الغريب هو ندرة من تَسمَّى باسم لقمان.

فأنا لا أعرف في العصر الحاضر أحداً بهذا الاسم سوى الأستاذ «لقمان يونس» كما أنني راجعت طائفة من المعاجم فلم أقع إلا على نفر لا يبلغ اصابع اليد الواحدة وأشهرهم باستثناء لقمان الحكيم.. هو لقمان بن عاد بن ملطاط من بني وائل من حميد وهو معمر جاهلي قديم من ملوك حمير في اليمن يلقب بالرائشي الأكبر وقد زعم أصحاب الاساطير أنه عاش عمر سبعة نسور.

ويقال إن النسر يعيش الف عام.

وهناك لقمان آخر اشتهر أيام الحملة الصليبية على مصر بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع وقد انتهت المعركة بهزيمة الفرنسيين شر هزيمة وباستسلام ملكهم الذي أسر في المنصورة واقتيد إلى دار القاضي فخر الدين ابراهيم بن لقمان أسيرا وظل مسجونا بها حتى أدى الفرنسيون الفدية عن ملكهم وقدرها ثمانمائة الف دينار، وبقيت دار ابن لقمان على حالتها حتى اليوم وقد زرتها أكثر من مرة.

هذه خواطر آثارها في نفسي الأديب البارع الأستاذ لقمان يونس وهو أديب ظريف خفيف الروح يمتاز أسلوبه بميزات خاصة وبينه وبين الحكمة لقاء أكثر من عابر.

والأستاذ لقمان أديب مجد لا تكاد تنقطع صلاته بالصحف، ولكن آفة هذه الصحف، ولكل شيء آفة - هذه التطبيعات والتصحيفات التي تجني على الأدب أكثر من جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي في رأي أحمد أمين وأكثر من جناية أحمد أمين على الأدب العربي في رأي الدكتور زكي مبارك.

وكثيراً ما تعكر هذه التطبيعات صفو العلاقة بين الأديب والصحف وكثيرا ما تتسبب في قطع العلاقة بين الكاتب وقرائه، وقد ضاق صدر الأستاذ الأديب ذات يوم من كثرة التطبيعات والتصحيفات وتداخل الفقرات فكتب مقالا لطيفا في هذا الصدد ختمه بقوله «ولكن ما علاقة القراء بهذه الخصوصيات؟ علاقتهم الوحيدة هي أنهم كرام وذوو مروءة ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع.

لقد بدأت أفقد أعصابي من شيوع التصحيفات والأدهى تداخل الفقرات في فوضى في كل مقال ينشر لي فرأيت لزاما علي أن أحتج بقوة قبل أن أقدم على الشيء الذي تركته منذ عهد طويل ألا وهو فرد الملاية بالشعر المقزع.

فلا يضطرني إليه صديقنا سكرتير التحرير وقد أُعذر من أنذر.

ونظرا لأنني من قراء الأستاذ المعجبين بأدبه ونظرا لوجود أكثر من رابطة تربطني به وتجعلني صديقا للأستاذ الكريم ولو من بعيد فقد رأيت من واجبي أن أشارك الأستاذ فأواسيه وأسليه وأتوجه له بذكر طرفه.

طريفة في هذا العدد

ذات يوم وضع المراسل على مكتبي رزمة من الصحف المحلية ونظرا لانهماكي في العمل فقد تركتها كما وضعها.

ولكنني لمحت عنوانا كتب في رأس إحدى الصحف هو «دفاع عن السرطان» ونظرا لأن هذا المرض يتصدر قائمة أعداء البشرية من الامراض الخطرة وقد افترس منذ قريب بعض من نحبهم من أعزائنا وله في كل يوم عشرات الضحايا ممن نعرف وممن لا

نعرف فقد لفت نظري هذا العنوان وأخذ فكري يعمل محاولا الوصول إلى ما يمكن أن يكتب في الدفاع عن السرطان، ودهشت من أن توجد منافع للسرطان جديرة بالدفاع عنه.

وقلت في نفسي ما المانع.. فإذا كان الطاعون كذلك قد وجد من ينافح عنه ويؤلف الكتب في الدفاع عن مزاياه، كذلك الكاتب القديم الذي سمى كتابه «منع الماعون في فضل الطاعون» فما الذي يمنع أن يتصدى كاتب اليوم للدفاع عن السرطان والعلم يكشف لنا في كل يوم جديداً ويحقق كثيرا من الامور التي كانت تسمى بالمستحيلات فلعلهم توصلوا بعد البحث الطويل إلى وجود منافع لهذا الداء الخبيث الذي وقفت الإنسانية عاجزة أمام أخطاره، فقد ثبت بالإحصاء أنه يقتل سنويا من الامريكيين سكان الولايات المتحدة وحدها نحو مائتين وستين الفا فقد جاء في تقرير بعض كبار العلماء بأنه ما لم يهب العلم إلى أساليب حديثة للوقاية والعلاج من هذا المرض الخطير فإنه سوف يقضي على حياة واحد من كل أربعة من الامريكيين أثناء حياته.. وهي نسبة خطيرة - كما رأينا - مثيرة للإزعاج الذي لا حد له، والقلق الذي لا يعرف الوقوف عند نهاية.. ومن أجل ذلك جندت كل الإمكانيات لتستطيع الوقوف في وجه هذه الآفة التي تلتهم حياة البشر كما تحطم العواصف الهوجاء أوراق الشجر اليابس دونما رحمة ولا استثناء.

ومشكلة هذا الداء الخبيث كما يقول العلماء - أنه ليس بمرض واحد بل هو أمراض كثيرة.

ثم خطر لي أنه ربما كان المراد هو فصل السرطان، وهو فصل من فصول الصيف تشتد فيه الحرارة وتقسو في بعض المناطق وخاصة المنطقة التي تقع فيها بلادنا.. وقلت لنفسي من يدري؟ فربما اكتشفوا مزايا لهذا الفصل رأوا من الواجب أن يضطلع عليها الناس الذين يصطلون بحرِّ هذا الفصل وتغلي منه جلودهم ورؤوسهم ولعلهم وجدوا في هذا الغليان خيرا كثيرا أو قليلا للجسم فرأوا في ذلك بشرى يجب أن تزف لبعث الطمأنينة وبرد الراحة.

ثم تذكرت سرطانا آخر يسمى عقرب الماء ويكنى «أبا بحر» وهو حيوان يعيش في البر والبحر صلب الظهر سريع العَدْو ومن ينظر إليه يَرَه وكأنه بلا رأس ولا ذنب وعيناه في كتفيه وفمه في صدره وله ثماني أرجل وهو يمشي على جانب واحد.

ويستنشق الماء والهواء معا وقد حرَّم أكله كثير من الفقهاء لاستخباثه وما فيه من الضرر، وإن كان لحمه - كما يقول الأقدمون - نافعًا جداً للمسلولين، فقلت لعل هذا المقال دفاع عن هذا العقرب المائي.

وأنهيت عملي وانطلقت إلى منزلي وكان أول شيء عملته هو قراءة المقال الذي يدافع عن السرطان.

وكم كانت دهشتي بالغة حين اكتشفت أتدرون ماذا؟ لقد اكتشفت أن المقال ليس دفاعا عن السرطان وإنما كان دفاعا عن... «السرحان» عن أديبنا الكبير الأستاذ حسين سرحان ولكن الطابع غفر الله له أبدل الحاء بالطاء فسبب هذا الإشكال الظريف أو العنيف كما أن المحرر لم يخطر بباله أن الطاء ستحتل مكان الحاء - رغما عنه وإلا لوضع أمام كلمة السرحان الأستاذ أو كلمة حسين وإذا لانتفى اللبس وبرح الخفاء وزال العناء.

وكفى الله القارئين البلاء وشر السرطان والدفاع عن السرطان.

خواطر حول الدورة الأولمبية

يعيش عالمنا الأرضي هذه الأيام مشدود الأذهان والآذان والأبصار إلى الدورة الأولمبية في ميونخ بألمانيا وكما هي العادة دائمًا فقد استحوذت كل ناحية من نواحي هذه الدورة على أفكار طائفة من المجموعة البشرية التي تتابع أحداث هذه الدورة عن طريق المشاهدة المباشرة أو بواسطة الأقمار الصناعية أو الصحف أو الإذاعات.

فهناك مجموعة شدّتها إلى الدورة المذكورة التصميم الهندسي الذي تجلى فيه أبدع ما وصل إليه العقل البشري من فن الهندسة والبناء.

وهناك مجموعة أخرى لفتها إلى هذه الدورة دقة التنظيم في الحركة والمسابقات والاتصالات البرية والجوية والهاتفية الداخلية والخارجية.

وهناك مجموعة ثالثة ظلت تحلم أحلاما فلسفية تدور حول ما يمكن أن تحققه هذه الدورة الرياضية من علاقات إنسانية تقوم على الود والاحترام بين أفراد الأسرة البشرية التي تعاني من العداء والفرقة والأنانية بما يهددها بالفناء والدمار وسوء المصير.

وهناك مجموعة رابعة تترقب في لهفة ما ستسفر عنه المسابقات من بطولات أو أرقام قياسية.

وكان للحادث الذي وقع بين الفدائيين والفريق الاسرائيلي أثره الكبير في جذب الناس وتذكيرهم بالمآسي التي تعيشها شعوب مظلومة.

وظل هذا الحادث محورًا تدور حوله كثير من المناقشات بين وجهات النظر المختلفة عن دوافعه وآثاره وعقابيله ومضاعفاته.

وكان هناك مجموعة أخرى شغلت نفسها بالعودة إلى التاريخ تبحث عن هذه الألعاب الأولمبية متى بدأت وكيف تطورت ومن أشهر أبطالها وما تاريخهم وما هي حقيقة هذا الأولمب الذي تنسب إليه هذه الدورات وهذه الألعاب.

وعلى طريقة الشيء بالشيء يذكر فقد ذكرتهم هذه الدورة الأولمبية الحالية التي تقام في ميونخ بألمانيا بدورة أخرى أقيمت في ألمانيا قبل ست وثلاثين سنة على عهد زعيم النازية الكبير أودلف هتلر وقد قادهم هذا الاسم إلى حقبة من أخصب الحقب في تاريخ العالم بما حوته من هزات واضطرابات هزت الدنيا هزًا ورجتها رجًا وقلبت كيانها وغيرت بنيانها وفعلت فيها الأفاعيل.

لقد ارتفعت أصوات الاستحسان في كل مكان تحيي هذه الدورة الأولمبية وترحب بها فكرة وعملا وهدفا، وشغلت أجهزة الإعلام في كل مكان بالحديث عنها، وقبل افتتاحها ووجد فيها الصحفيون والمصورون على اختلاف فئاتهم واتجاهاتهم مادة خصبة لفترة طويلة يملأون منها أنهار الصحف وصفحات المجلات وشاشات التلفزيون.

وكانت البداية مثيرة لأنها بدأت بإيقاد الشعلة من نهر الأولمب في اليونان وصاحب ذلك طقوس خاصة تحدثت عنها الصحف والمجلات ثم انطلقت الشعلة يتناقلها خمسة آلاف من العدائين اخترقوا بها عددًا من الأقطار حتى بلغوا بها القرية الأولمبية في ميونخ وكان ذلك إيذانا بافتتاح الدورة.

لقد تابعت أخبار الدورة الرياضية وأحداثها من غير حماسة لسبب لا أدريه لم يكن يشغل اهتمامي أمر بالذات من أمور هذه الدورة بالرغم من أنني منذ عشر سنوات أو أكثر وأنا موصول الأواصر بالرياضة حتى لقد غدت تحتل جزءًا جوهريا من حياتي وإن كانت العلاقة بيننا قائمة على الاحترام أكثر من قيامها على الحب.. ومن الغريب أن بعض الجزئيات كانت تستأثر باهتمامي وأنا أكتب هذا المقال مدفوعا بجزئية من هذه الجزئيات.

فلقد نشرت جريدة البلاد خبرا جاء فيه «كانت الشعلة الأولمبية هذا الاسبوع محور هجوم حاد من جانب الأسقف «أفغوستنيوس» الذي وصفها والطقوس التي تجرى عند إيقادها بأنها ضرب من الشعوذة الوثنية القديمة».

وتقول الجريدة «وقد شهد الأسبوع الماضي حفلا بمناسبة إيقاد هذه الشعلة على جبل أولمبيا في اليونان حيث سيتناوب على حملها خمسة آلاف عدَّاء إلى أن يبلغوا بها ميونخ المكان الذي ستقام فيه الدورة الجديدة للألعاب الأولمبية هذا الشهر».

وتستطرد الجريدة فتقول «والشيء الذي أثار سخط الاسقف «أفغوستنيوس» هو ذلك الجزء من الاحتفال الذي قامت فيه نجمة سينمائية يونانية بارتداء زي الكاهنة الكبرى في الأساطير اليونانية، وقال الأسقف في رسالة غاضبة بعث بها إلى الصحف أن إيقاد الشعلة الأوليمبية أمام ضريح هيرا «عمل وثني ممقوت».

لقد شد هذا الخبر انتباهي لأكثر من سبب فالأسقف «أفغوستنيوس» الثائر على الطقوس الوثنية التي صاحبت الشعلة يوناني، وربما بدا لأول وهلة أن يونانيته قد تدفعه إلى نوع من التعصب لكل ما هو يوناني كما تعودنا ذلك من كثير من مثقفينا ومفكرينا وأهل الرأي فينا.

وقد علم القاصي والداني بالجهود التي بذلها كثير من هؤلاء في سبيل بعث الأمجاد الفرعونية والفينيقية والكلدانية والآشورية بكل ما فيها من وثنية أو جاهلية أو انحطاط مدفوعين بتعصب ذميم زاعمين أنهم يخدمون الوطنية والقومية.. وبين هؤلاء الذين ضل سبيلهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، عدد كبير من المسلمين الذين انحرفوا عن جادة الصواب وضلّوا عن سبيل الله المستقيم.

ولكن هذا الأسقف كان أبعد نظرًا وأوسع أفقا وأصفى ذهنا من أن يكون عبدًا لهذه القومية الضيقة، وأسيرًا لهذه الوطنية العمياء لأن هنالك ما هو أسمى في نظره هو دينه، ودينه - كما يتصور - هو دين يمقت الوثنية لأنه دين سماوي وهذا الدين في رأيه أحق بالإجلال والإكبار والرعاية من أي أمر مهما بلغ شأنه.

قلت إن دينه - كما يتصور - هو دين يمقت الوثنية لأن النصرانية على حقيقتها دين سماوي بعث به عيسى بن مريم عليه السلام.

وهو دين يدعو إلى الوحدانية وعبادة الله وحده لا شريك له كما جاء في قوله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمّة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾.

ولكن أحبار السوء وأولياء الشيطان عبثوا بهذا الدين وحرفوا الكلم عن مواضعه وأدخلوا فيه ما ليس منه وجعلوا لله ندًا وشريكا وولدا.

وزعموا أن الله ثالث ثلاثة واستطاعوا بمكرهم أن يموهوا على الناس وأن يلبسوا عليهم دينهم. وأن يخضعوا عقولهم لهذه الترهات فآمنوا بالثالوث والصليب وخرجوا بالنصرانية عن أن تكون دينا لتوحيد الخالق إلى أن تكون دينا شبيها ببعض الأديان الوثنية، ولكن الطريف هو اقتناع أتباع النصرانية ولا سيما الأحبار منهم والرهبان بأن دينهم رغم التثليث والصليب وفكرة الفداء هو دين التوحيد الصحيح وهذا هو الذي عنيته بقولي - كما يتصور هو - فهذا الأسقف لم تستطع وطنيته أن تسيطر على دينه ولا أن تحجب عنه الحقائق ولا أن تدغدغ عواطفه فيغفل عما لا يجب لعاقل أن يغفل عنه مع أن وطنه يعتبر مصدر حضارة أوروبا - كما يعتقد الأوربيون - ومع أن دينه ليس بريئا من الوثنية وعبادة الطاغوت.

هذا وجه للمسألة نستطيع أن نضع أمامه وجها آخر، فهناك من المسلمين من لا يتورع عن تمجيد الحضارة اليونانية القديمة وهي حضارة وثنية لا مراء في ذلك بل إنه ليعتز بأربابها ورباتها ويجمّل شعره ونثره بأسمائها ويتصور أن ذلك غاية الغايات في التجديد والرقي العقلي والانفتاح الفكري.

وربما خيل لكثير من القراء أن هؤلاء الأرباب يعيشون في جو من النقاء والصفاء والطهر كما هو المفروض في أمثالهم، ولكن الواقع أنه لا توجد نقيصة من نقائص البشر مهما سفلت وانحطت ولا خلة من خلالهم الهابطة ولا صفة من صفات الشذوذ والضعف والحيوانية والبهيمية إلا وجد مثلها واشنع منها في هؤلاء الأرباب.

ولو كان المجال يسمح لرويت للقراء من حوادثهم وقصصهم ما يندى له الجبين خجلا، ولو كان مرتكبو هذه الموبقات من البشر لتواروا عن الانظار ولاستتروا عن أعين الناس ولأخفوا سوءاتهم وآثامهم.

أما هؤلاء الأرباب فقد تفوقوا على البشر في الخضوع لشهواتهم ونزواتهم وفي المجاهرة بكل معاصيهم لا يردعهم رادع من خلق أو عرف ولا يخفف من اندفاعهم وإرواء ظمئهم وازع من حياء أو خلق.

وأكتفي هنا بذكر نبذة عن «هيبرا» التي أُوقدت شعلة الدورة الأولمبية أمام ضريحها بوساطة النجمة السينمائية اليونانية التي ارتدت ملابس كاهنتها الكبرى.

وهو الأمر الذي أثار ثائرة الاسقف اليوناني «أفغوستنوس».

وهيبرا هذه شقيقة وزوجة «زيوس» أو «زفس» وكانت تعتبر عند اليونان ملكة كهنتهم تجلس مع «زيوس» أو «زفس» على العرش ويبجلها جميع أربابهم.

وكانت في الأصل ربة القمر ومسؤولة عن النساء وتشرف على زواجهن وصيانتهن وقت الأخطار.

ومع ذلك فهي شخصية متكبرة شديدة الحساسية محبة للحسد سريعة الانتقام والغضب أدت منازعاتها ومشاحناتها مع «زيوس» أو «زفس» إلى قسوته في معاملتها فكان يلاكمها ويقيدها بالسلاسل وعندما فشلت هيبرا - الحاقدة في أن تعاقب «زيوس» أو «زفس» انتقمت من عشيقاته ونسلهن.

هذه هي شخصية هيبرا زوجة كبير آلهتهم وهي مجموعة من المعايب والنقائص.

أما أعمالها في الانتقام من عشيقات «زيوس» أو «زفس» ونسلهن فسلسلة ممتدة الحلقات تفيض غدرًا وخسة وحقارة ولا بد أن القراء قد لاحظوا أن «زيوس» أو «زفس» كبيرهم موسوم بالخيانة وكثرة العشيقات.

وليته وقف في انحطاطه عند هذا الحد ولكن شهواته الجامحة التي لا تعرف حداً للارتواء كان لها نصيبها من الجنس الآخر. كما يعرف ذلك كل المطلعين على آداب اليونان وأخبارهم.

بقي بعد ذلك أن يعرف القراء أن الألعاب الأولمبية التي تقام كل أربع سنوات إنما تنسب إلى «أولمبيا» في اليونان وهي مكان فيه مغارة «زيوس» أو «زفس» المقدسة.

وكان يحتفل فيه كل أربع سنوات بالمباريات الأولمبية تكريما لـ «زيوس» أو «زفس».. العظيم.

فهذه المباريات في حقيقتها عمل وثني - وتجديد لذكرى احتفال وثني.

كان يقام تكريما لكبير الأوثان وما الحرص على ايقاد الشعلة من نفس المكان الذي كانت تقام فيه المباريات الأولمبية إلا تأكيد لهذه الحقبة المفزعة في عالمنا الذي ارتد إلى الجاهلية الأولى وذلك ما غفل عنه الأسقف «أفغوستنوس».

تعليق :

الألعاب الأولمبية: هي ألعاب رياضية، كان اليونان القدماء يعقدون لها حفلة كل أربع سنوات بأرض «أولمبيا» بمقاطعة «بلوبونيز» تكريماً للمعبود «زيوس أو رفس» وهو أشهر معبوداتهم.

وكانت تشمل أنواعاً مختلفة من الرياضة مثل: الجري، والمصارعة، ورمي القرص، وسباق الخيل، وسباق العربات.

وقد بعثت هذه الألعاب الأولمبية من جديد سنة ١٨٩٦م.

أما اليوم فقد أصبحت عبارة عن مباريات دولية تقام كل أربع سنوات في إحدى الدول، انظر دائرة معارف الناشئين، تعريب فاطمة محجوب، مراجعة د/ محمد خليفة بركات، سلسلة الألف كتاب (١٤٨) عن دار الهلال.

حديث عن الصهيونية

الضجة التي اثارتها الصهيونية بمناسبة اللوحة التي عرضت في الجناح الاردني بمعرض نيويورك الدولي والتي كتب عليها أبيات من الشعر باللغة الإنجليزية يتحدث فيها لاجئ طرد من بيته وهام على وجهه في الصحراء بعيدا عن نفسه وأرضه.

الضجة التي اثارتها الصهيونية من أجل هذه اللوحة الشعرية. هذه الضجة يجب ألا تمر دون أن يقف عندها الكتَّاب قليلا.

وأنا واقف قليلا لأسأل عن السر في كل هذه الضجة؟ وهل أحدثت هذه اللوحة أو القصيدة - بعبارة أدق - كل هذا التأثير في نفوس الناس مما جعل رجال الصهيونية يقومون ولا يقعدون؟.

لقد نشرت عشرات القصائد بلغات مختلفة فلم تهتز الصهيونية بل كتبت عشرات. بل مئات المقالات منذ حوالي نصف قرن من الزمان إلى الآن عن قضية فلسطين والصهيونية. فلم يحفل بها اليهود ولا مناصروهم فما الذي استجد الآن؟ هل تفتح الوعي؟ هل استيقظ ضمير الإنسانية من سباته العميق؟ هل صحا الضمير الامريكي بعد غيبوبته الطويلة؟ نعم هل حدث شيء من ذلك؟ كل ذلك لم يحدث مع الاسف الشديد.

إذًا لماذا كل هذا الضجيج والعجيج ولماذا كل هذه الجهود المبذولة لدى أكثر من جهة مسؤولة في الولايات المتحدة من أجل هذه اللوحة؟.. السر يكمن في سبب واحد هو الاعتداء على منطقة النفوذ.. والولايات المتحدة عامة ونيويورك خاصة يعتبرها اليهود

والصهاينة منطقة نفوذ «محتكرة» لهم لا يجوز أن يشركهم فيها شريك أو يدخل اليها منافس مهما ضعف شأنه وقل خطره.

وربما استساغ الصهيونيون الاعتداء على جزء من القسم الذي يمثلونه بفلسطين سواء أكان اعتداء ماديا أو معنويا.

ربما استساغ اليهود ذلك بصورة أو بأخرى وربما التمسوا له المعاذر والمبررات.

أما أن يقع الاعتداء على منطقة نفوذهم في امريكا وأمريكا بالذات فتلك الجريمة التي يصعب السكوت عليها والتغاضي عنها والتي لا بد من بذل كل نفيس وغال من أجل ردعها وتأديب متوليها بكل قسوة وعنف.

ومن أجل هذا كانت كل هذه الضجة وكل هذه الجهود.

وقد أسفرت عن صدور قرار من مجلس نيويورك بنزع اللوحة.

ولكن إدارة المعرض رفضت تنفيذ هذا القرار وقالت «ان اللوحة لا تعني الإساءة إلى أحد وأن قرار مجلس مدينة نيويورك يطالب بخنق حرية الكلام.

وأن المعرض لا علاقة له بمشاكل الدول المشاركة فيه.

وطلبت من مجلس مدينة نيويورك «إعادة النظر في قراره لأنه لم يُبنَ على أساس شرعي معقول».

وأثار هذا الرفض ثائرة الصهيونية ووجدت فيه بوادر تنبىء بنتائج خطيرة على مستقبل الصهيونية في أمريكا.

ولذلك جندت الصهيونية قواها ورأت ألا بد من وضع حد لهذه الظاهرة الخطيرة ورفعت الأمر إلى المحكمة لعلها تستطيع الحصول على حكم قانوني تضرب به وجه إدارة المعرض ووجوه كل الخصوم «الوقحين» الذين تجرأوا على دخول منطقة النفوذ!.

ولكن خاب فألهم في هذه المرة أيضًا فقد أصدرت المحكمة حكمها برفض دعوى الصهيونيين وعدم الموافقة على نزع اللوحة.

وجن جنون الصهيونية.. ولا بد أنها جمعت أبالستها لدراسة الموقف واتخاذ الضروري من الخطوات لمنع تكرار أمثال هذه الاعتداءات على منطقة النفوذ.

والقراء يعرفون مدى تقلص نفوذ الصهيونيين في أوربا ولكنني مع ذلك أحب أن أضرب لهم مثلا واحدا يغني عن عشرات الأمثلة ولعلهم يصابون بالذهول وهم يقرأون هذا المثل!.

فقد فرض الصهيونيون في أمريكا على التجار العرب - أجل العرب - ضريبة شهرية يدفعونها لصالح الصهيونية واسرائيل ودفعها بعضهم وحاول البعض الآخر الاحتجاج والتمرد والامتناع عن هذا الدفع الاجباري لخصومهم واعداء أمّتهم.

فهل تدرون ماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن أعلن الصهيونيون على الممتنعين والمتمردين حربا خفية عجيبة انتهت بهم إلى الإفلاس.. والسعيد من اتعظ بغيره.

المؤامرة اليهودية على الشعوب:

وأثناء كتابة هذا المقال وقع في يدي عدد من مجلة الهلال صدر في ١٨ رجب سنة ١٣٤٤هـ أول فبراير/ شباط ١٩٢٦م وعندما كنت اتصفحه وجدت في باب الكتب الجديدة كتابا باسم «المؤامرة اليهودية على الشعوب».

وتقول المجلة في تعريف هذا الكتاب ما يلي «بحث مبسوط في الصهيونية وضررها وأعمال اليهود المالية وتأثيرهم في الحكومات ترجمة: الخوري أنطون في ٢٤٤ صفحة والمؤلف يزعم أن اليهود أصل بعض الاضطرابات القائمة الان عند الأمم وأنهم أصل الحركة الشيوعية وهو يؤيد زعمه بقصاصات من الصحف التي دَأْبُها بها خصام اليهود. وليسمح لنا المؤلف الفاضل أن نقول إنه يبالغ في زعمه كثيرا وروح العصر تتطلب مؤالفة الشعوب والعمل على السلام».

هذا ما قالته المجلة في نقد المؤلف والدفاع عن الصهيونية واليهود.. ترى ما الذي دعا المحرر اليوم إلى نقد هذا الكتاب واستعراض ما فيه ألا يرى نفسه مضطرا إلى

الاعتذار إلى المؤلف وتأييده في كل حرف ورد في كتابه.. لقد كان المؤلف أدق فكرا وأبعد نظرا وأوسع افقا من المحرر.

فاليهود وراء كل الشرور والفتن في العالم وان تاريخهم الاسود لينضح بالإجرام والبغض والفساد وهو عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات بعضها «اسود» تمثل حقدهم على البشرية ونقمتهم عليها ومكائدهم من أجل تحطيمها والقضاء عليها وبعضها الاخر «أحمر» تمثل ثورة البشرية على أعدائها اليهود ومحاولاتها للخلاص من هذا العنصر البغيض الذي يغتال حياتها ويمتص دمها ويقتل مثلها ومبادئها ومقدساتها.

ومن الغريب أن يتخذ اليهود الأفعى رمزًا لامتهم فهم كالأفعى حقيقة لين ملمس ونعومة مظهر ورقة حاشية، ولكن تحت هذه المظاهر الخادعة تكمن أشد الاخطار وأفتك السموم وأخبث الشرور.. يقول الدكتور «اوسكارليفي» أحد زعماء اليهود: «نحن لسنا شيئا إلا مفسدي العالم ومحركي الفتن فيه وجلاديه» ويقول مترجم كتاب «الخطر اليهودي» في مقدمته «ولو توهمنا أن مجمعا من أعتى الأبالسة قد انعقد ليتبارى أفراده أو طوائفه منفردين او متعاونين في ابتكار أجرم خطة لتدمير العالم واستعباده لما تفتق عقل أشد من هؤلاء الأبالسة إجراما وخسة وعنفا عن مؤامرة شر من هذه المؤامرة التي تمخض عنها المؤتمر الأول لحكماء صهيون سنة ١٨٩٧م».

تنصير اليهود في فلسطين:

والرأي السائد أن اختيار فلسطين لتكون وطنا قوميا لليهود كان نتيجة المساعي التي قامت بها الصهيونية والتي أسفرت عن وعد «بالفور» ولكن الحقيقة التي يحتفظ بها التاريخ هو أن الهيئات المهتمة بالتبشير فكرت قبل قرن ونصف في استقلال اليهود لنشر المسيحية بينهم ولمقاومة المسلمين «ففي عام ١٨٠٩ أسس الإنجليز

الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود ولقد كانت آمالهم عند تأسيسها عظيمة جدًا.

كانوا يرون أن العمل يجب أن يبدأ بأن يساق اليهود المتفرقون في الأرض إلى فلسطين وهكذا بدأوا يشجعون اليهود على الهجرة وعزموا على أن يبدأ التبشير بينهم بعد ذلك مباشرة.

إن المبشرين كانوا جد مقتنعين بأن جمع اليهود في فلسطين سيسهل لهم مهمتهم في الوصول إلى المسلمين، من أجل ذلك أرادوا أن يفتحوا أبواب فلسطين على مصاريعها لهجرة اليهود فليس من المستغرب اذن ان تجد سبعا وعشرين جمعية تبشيرية مختلفة الجنسيات كانت تعمل بلا ملل في فلسطين».

ويؤكد مؤلف كتاب «التبشير والاستعمار» إن الأوروبيين لم يكونوا يريدون إنشاء دولة يهودية على النحو الذي حدث الآن، ذلك لأنهم لم يكونوا يريدون أن يهددوا فلسطين» وإنما كانوا يهدفون إلى تنصير اليهود وإلى التخلص من يهود أوروبا ثانيا ووضعهم شوكة في جنب المسلمين ثالثا يثيرون القلاقل السياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية.

وقد أدرك اليهود تلك الرغبة العارمة في الهيئات التبشيرية فتظاهروا برغبتهم في تنفيذها حتى يحققوا أهدافهم التى أتت لهم بما أرادوا وصدق الله العظيم ﴿**ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس....**﴾.

اقتراح:

إنني أقترح أن تجمع كل الكتب التي أُلفت عن اليهود في العربية وفي غيرها من اللغات وان تزود بها المكتبات الكبيرة في المملكة فلعل ذلك يدفع بعض الباحثين إلى دراستها دراسة عميقة والخروج بنتائج ذات فائدة كبيرة في محاربة هذا الشعب والوقوف في وجه عدوانه والتعرف على حقيقته.

أشعة الفجر من غير ثمن!!

كنت نشرت منذ شهور كلمة عن «أشعة الفجر»[1].. وهذه الأشعة عبارة عن مقالات، كنت أنشرها بجريدة المدينة الغراء، بُعَيْد عودتي من دراستي العالية في مصر.. وقد رغبت إلى القراء في أن يتفضلوا بالبحث عنها، وإرسالها إليَّ لأنني لم أحتفظ بصور لها.

وقد قلت يومها - إنني أود أن أحتفظ بهذه المقالات لا لقيمتها الأدبية، ولكن لأنها تمثل مرحلة من مراحل عمر الكاتب.. وقد عرضت يومئذ ثمنا رمزيا هو مبلغ خمسة ريالات لكل مقال.

ولم تمض غير فترة قصيرة، وإذا بخطاب «منتفخ» يحمله إليَّ رسول كريم.

وافتحه لأفاجأ بصور لمقالاتي المشار اليها في بداية الحديث.. تلطف بنقلها وإرسالها إليَّ شاب دمث الأخلاق رقيق الحاشية، نبيل النفس، كريم الأصل، هو الصديق الأستاذ ياسين الخياري نجل العلامة المرحوم الأستاذ السيد أحمد ياسين الخياري.

وقد كتب إليَّ كتابًا يفيض رقة وعذوبة وكرما.. وقال إنه يسعد بتقديم هذه الخدمة الصغيرة إليَّ، وإنه يرجو أن أتقبلها.. وقد أكبرت في صديقي الشاب، أريحيته ونبله وإخلاصه للفكرة الأدبية.. كما وأنني أؤكد له أن «هذه الخدمة» ليست صغيرة بحال من الأحوال.. فهي كبيرة.

(١) نشرت في الأعداد (٤٦٥/٤٦٦/٤٦٩/٤٧٠/٤٩٥) الصادرة عام ١٣٧٢هـ الموافق عام ١٩٥٣م في جريدة المدينة المنورة، انظر الصفحات (٥٩) إلى (٦٩) في أول هذا الكتاب

وكثيرا ما حاولت أن أقوم بالبحث عنها بنفسي، ولكن مشاغل الحياة، وظروفي الخاصة والعامة، كانت تحول بيني وبين الوصول إلى ما أريد.

ولقد وفَّر عليَّ الصديق الكريم، جهدا كبيرا، ووقتًا أكبر.. فله مني أصدق الشكر وأجمل الثناء.. وأصدق الحب وأوفاه.

والأستاذ ياسين ولد بار بأبيه، في حياته وبعد مماته.. أما بره بأبيه في حياته فيعرفه أصدقاؤه وأصدقاء أبيه والمتصلون بهما من قريب أو بعيد.. وأما بره بأبيه بعد وفاته، فيتجلى في حماسه الشديد، لتراث ابيه العلمي والأدبي، ورغبته العارمة وشوقه الملح، في أن يخرجه إلى الناس بعد أن تركه والده مخطوطا في دفاتر وكراريس وأشهد أنه استطاع أن يؤثر في نفسي تأثيرا عميقًا، وهو يتحدث في لهفة بالغة عن هذا التراث، وعن خوفه الشديد من أن تقف العقبات، في طريق إخراجه للناس.

وعجيب أمر هؤلاء العلماء.. فالعلم والثقافة والكتب، تستخوذ على كل تفكيرهم فلا يجدون وقتًا أو مجالا للتفكير في أطفالهم، ومن يخلفونهم من بعدهم.

ولذلك فقلّ أن يدخروا شيئا لذريتهم من مال أو نشب.. وكل ما يخلفونه لهم هو الكتب.. وصدق لطفي المنفلوطي حين قال:

وتراث الأديب في الشرق حزن لبنيه وثروة للرواة

وعلى هذا الأساس سار المرحوم أحمد الخياري.. فقد انتقل إلى جوار الله، دون أن يخلف ما يمكن أن يعتمد عليه أبناؤه من ثروة أو مال مع أنه - غفر الله له - ترك مجموعة كبيرة من الأولاد، أكبرهم ياسين، وأصغرهم في سن الطفولة.. بل وترك - غفر الله له - شيئا آخر، وهو دَيْن ثقيل مبهظ.. مبالغ كبيرة كان قد استدانها قبل وفاته بسبب ظروف مرضية قاسية.

واستيقظ ياسين ذات صباح، ليجد نفسه مسؤولًا عن دين والده الكبير، وعن أسرة كبيرة لا عائل لها سواه.. وعن شيء آخر، لا يقل أهمية عن الدَّين والأسرة، هو جهد أبيه الذي استنفد كل حياته.. هذا الجهد الذي سكب عصارته، في مؤلفاته

التي تركها وراءه في التفسير، وعلم القراءات، وفي التاريخ واللغة والأدب والشعر وفي علوم أخرى.

وشمر ياسين عن ساعد الجد، وتسلح بسلاح الصبر والعزيمة والإيمان.. وقرر أن يضطلع بكل تلك، مستعينا بالله.. وحاول الاتصال بمن يعنيهم الامر، من رجال الحكومة لعلهم يمدون يد العون، إلى أسرة خلَّفها رجل، كان شغله الشاغل، علمه وكتبه.. وحاول في نفس الوقت أن يعرض كتب أبيه، على الاوساط الحكومية ذات العلاقة لعلها تحمل عنه العبء الكبير - عبء النشر.. ولم يكتف بذلك، بل أقدم على خطوة جريئة، فقام بطبع رسالتين من مؤلفات والده الكبير.. ولعله أراد بذلك أن يتعرف على اسرار الطباعة وأسرار السوق..

فإذا نجح في عمله هذا، كان نجاحه دافعًا له إلى ان يدخل في «مغامرة» أكبر.. وبذلك يتمكن من طبع مؤلفات أبيه، وتحقيق أمنية من أمانيه.

ومع أنني لا أعرف حتى هذه اللحظة، النتائج التي وصل اليها، وهل هي مشجعة ومطمئنة، أم أنها دافعة إلى اليأس والتوقف.. فإنني أرى من الواجب وبلادنا تسيطر عليها نهضة شاملة، بفضل رعاية حكومة جلالة الملك وعلى رأسها الفيصل العظيم - أرى وأرجو من بيدهم الأمر ان يمدوا يد العون، إلى أسرة المرحوم الخيارى، وأن يبادروا - مشكورين - إلى تسديد دَيْنه.. وأن يحتضنوا طبع كتبه[(١)]، وحبذا لو الفت لجنة للإشراف على الطبع، وإخراج هذه المؤلفات القيمة، إلى الأسواق في أثواب زاهية من الطباعة والعناية والتصحيح.

والحديث عن الخيارى «الاب» يقودنا إلى الحديث، عن مشروع ثقافي كبير، كان له فيه جهد مشكور.. ذلكم هو مكتبة الحرم.. فلقد تحمس لهذا المشروع عند ولادته قبل

(١) قام النادي الأدبي بالمدينة المنورة طبع كتاب له بعنوان «تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا» بعد وفاة المؤلف - يرحمه الله.

أكثر من عشرين سنة، وقدم للمكتبة بضع مئات من الكتب، كانت اللبنات الأولى، التي قامت عليها المكتبة.. وقد أقترح من ذلك التاريخ، ضم جميع المكتبات الموجودة في المدينة إلى مكتبة الحرم.. يدفعه إلى ذلك سببان كريمان.. أولهما هو أن يجعل من مكتبة الحرم، مكتبة ضخمة. تليق بالبلد الذي شعت منه أنوار الثقافة والإسلام والدين، وتنافس كبريات المكتبات في العالم.. وثانيهما هو أن ينقذ ثروة ضخمة لا يستهان بها من الضياع.. هي تلك المخطوطات التي لا تقدر بثمن، والتي تحفل بها «مدارس» المدينة واربطتها.. وكانت عرضة للتلف والاهمال والتراب والأرضة، بسبب جهل القائمين عليها أو إهمالهم لها، أو انشغالهم عنها.

وقد وافقت الجهات المسؤولة على اقتراحه، وتركت له حرية التنفيذ.. ولكنه - رحمه الله - شأنه شأن كل من تسيطر عليه فكرة، وتملك عليه أقطار نفسه.. فلا يفكر إلا في الهدف، ولا ينظر إلى الطريق وما فيه من مزالق وعثرات.. اندفع في تحقيق فكرته بحماس المؤمن، وشوق صاحب المبدأ، فأثار شكوك الناس وهواجسهم، وظنوا به الظنون.. وبدلا من أن يتعاونوا معه، اصطدموا به.. فزاد ذلك من حماسه، ولم يفطن إلى ضرورة تغيير منهجه وإلى أن يسلك سبيل الافهام والإقناع.. فتكتلت الجهود ضده، ولم يجد مناصا من الانسحاب.. وظل منسحبا أكثر من عشرين سنة بيد أن حماسه لم يفتر، فهو دائم الحديث عن هذه المكتبة، لا يكل ولا يمل.

يخطط.. ويضع المشروعات.. وكان واثقًا ثقة عجيبة من أنه سيعود.. فتحقق أمله في العودة.. بعد تلك السنين الطويلة.. ولكن القدر كان له بالمرصاد، فلم يمهله لينعم بعودته إلى المكتبة، التي أحبها اكثر من أولاده وأهله واصدقائه لم يمهله إلا عاما وبعض عام.. ثم انتقل إلى جوار الله.

لست أدري ما إذا كنت استطيع أن أقترح اقتراحا وأن أوجه رجاء.. أما الاقتراح فهو موجه إلى وزارة الحج والأوقاف، وعلى رأسها أديب وشاعر، من روادنا الأوائل.. ذلك

ان تطلق اسمه على قاعة المطالعة في مكتبة الحرم، أو أن تأمر بجمع ما تبرع به من كتب في قاعة خاصة، تطلق عليها اسمه.

لو استجابت الوزارة إلى هذا الاقتراح.. فإنها بعملها هذا تخلّد اسم رجل، له في قيام هذه المكتبة، جهود جديرة بالتقدير.

أما الرجاء.

فاتوجه به إلى السادة الأفاضل من المواطنين، الذين يشرفون على المكتبات القديمة، وهي تحوي الكثير من المخطوطات الثمينة، ليتفضلوا مشكورين.. بتقديم هذه المكتبات، هدية إلى المكتبة العامة، لتقوم إدارتها بوضع كل مكتبة في خزانة خاصة يطلق عليها اسم صاحبها.. تقوم بالتعريف به.

إن هذا العمل من السادة المواطنين سيسجله التاريخ لهم، وفيه بالإضافة إلى ذلك اسهام كبير مشكور، في حفظ التراث الضخم من الضياع.. وبذلك يساعدون على رفعة بلدهم، ووضعه في المكانة اللائقة به.. وهذا وحده عمل ليس بالقليل كما ان فيه تخليدا لأصحاب هذه المكتبات، واحياء لتاريخ فترة مجهولة، من تاريخ هذا البلد المقدس.

كم اكون سعيدا.. لو عشت حتى ارى هذه الكنوز المطمورة وهي منشورة بعد طي، مذكورة بعد نسيان.

وتحية للرجل الفاضل، الذي خلف الخياري في مكتبة الحرم، فهو لا يقل عنه حماسة ولا رغبة صادقة في النهوض بهذا المشروع العظيم، الذي ترعاه حكومة جلالة الملك.

تحية للأستاذ الشيخ جعفر فقيه.

على الدرب

أثار صديقنا الكاتب الواعي الأستاذ غالب أبو الفرج بمقالة كتبها عن جامعة الرياض أثار سلسلة من المناقشات بين عدد من الكتَّاب وكانت نقطة الخلاف أو الاختلاف - إن شئت - هي فتح باب الانتساب إلى الجامعة وإزالة القيود الكثيرة التي تقف في طريق الكثير ممن يرغبون الدراسة في الجامعة.

يبدو لي مما قرأته من المقالات حول هذا الموضوع - اذ لم أتمكن من تتبع كل المناقشات - يبدو لي أن جميع الكتّاب يميلون إلى فتح باب الجامعة واباحة الانتساب لكل من يرغب وبشروط يسيرة سهلة محتجين بأن بلادنا في حاجة إلى كثير من المتخرجين الجامعيين وبأن هناك طائفة قطعت شوطا كبيرا في الثقافة العامة مما يؤهلها إلى الانتساب إلى الجامعة بعد ازالة القيود المفروضة أو تخفيفها من حيث الشهادات والأزمنة التي لا بد من مرورها قبل السماح للتقدم لشهادات أخرى.

ومحتجين كذلك بأن بعض البلاد فتحت أبواب جامعاتها للراغبين تشجيعا لهم إلى آخر ما أوردوه من حجج ومبررات.

ومع احترامي الكبير لكل هذه الآراء ومع تقديري للدوافع التي أملت هذه المقترحات فإن لي رأيا يخالف ما أورده السادة الكاتبون، ورأيي هو منع الانتساب إلى الجامعة منعا باتا بل وأكثر من ذلك هو زيادة القيود على الراغبين في دخول الجامعة والانتظام في سلكها طلابا نظاميين ويدفعني إلى هذا الرأي أكثر من سبب.

فأنا لا أفهم الجامعة فهما ضيقا ينحصر في أنها مدرسة كبيرة بعد المرحلة الثانوية يدخلها الحاصلون على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، كما يتفهمها كثير من الناس،

ولكنني أفهم الجامعة على أساس أنها مكان تدخله طائفة من الطلاب ليست مؤهلاتها هي نجاحها في المرحلة الثانوية ولكنها تضم إلى ذلك استعدادا خاصا وتكوينا فكريا وثقافيا يجعلها أهلاً لا لتلقي الدروس أو المحاضرات فقط ولكن لابتكار وتقديم أبحاث أدبية وعلمية تضيف إلى تراث الإنسانية العلمي والأدبي جديدا.

وفتح باب الجامعة على مصراعيه سيحول بين الجامعة وبين أداء رسالتها الاساسية وسيجعل منها مجرد مدرسة كبيرة يتلقى الطلاب فيها طائفة من المعلومات يعيدون تسجيلها في أوراق الامتحان فينجحون وتنتهي بذلك مهمتهم ومهمة الجامعة.

ولكي تنجح الجامعة في أداء مهمتها لا بد وأن يكون هناك اتصال شخصي بين الأستاذ وطلبته يعرفهم واحدا واحدا ويشرف على دراستهم بدقة ويوجههم التوجيه الصحيح، ومن الواضح أن قلة العدد تساعد الأستاذ على هذه المهمة وأن كثرة الطلاب تعرقل هذه المهمة إلى أن تصبح الدروس والمحاضرات مجرد معلومات تلقى على الطلاب وإلى أن تصبح الجامعة مدرسة كبيرة عادية.

هذه ناحية وهناك ناحية أخرى لها أهميتها القصوى كذلك وهي مسألة التعليم النظري ومن الجلي أن كل المناقشات كانت تنصب على الكليات النظرية في الجامعة لانه من أصعب الامور الالتحاق بالكليات العملية بدون الحصول على مؤهلات نظامية ومن أصعبها كذلك الاكتفاء بالانتساب اليها دون الحضور باستمرار وبانتظام.

والاتجاه إلى التعليم النظري ظاهرة خطرة من واجبنا ان نبدأ في معالجتها قبل أن تستفحل. وأضرارها واضحة.. تعرضت لها بعض جاراتنا العربيات وأخذت في علاجها والتخفيف منها عن طريق مضاعفة القيود والتشدد في امتحانات القبول وفي امتحانات النقل.

والتوسع في التعليم النظري في الجامعة سيخلق جيشا من الشبان الذين لا يستطيعون العمل إلا في الوظائف.

والوظائف مهما كثرت محدودة والنتيجة الحتمية هي تزايد عدد المتعطلين في الوقت الذي تحتاج البلاد إلى مئات والاف من الشبان الفنيين والصناع المهرة.

هذه بعض الاسباب التي تملي علينا هذا الرأي وهي أسباب كما أعتقد لها وجاهتها ولها خطورتها.

وليس من الضروري أن نسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه بعض من سبقنا من الأمم المعاصرة ولكن الخير كل الخير في ان نستفيد من تجارب الآخرين ونبدأ من حيث انتهوا.

هتلر.. والمنجِّمون.. والشعراء

الإنسان منذ فجر البشرية مغرم باكتشاف المجهول وخاصة ذلك الذي يمس حياته ومستقبله، ولحكمة ربانية سامية حجب الله عن الخلق أمور المستقبل فاصبح الإنسان متشوقا إلى كشف حقيقته.

وقد استطاع بعض الاذكياء من البشر أن يلمسوا مدى تلهف الناس على معرفة ما طواه الغيب عنهم فلجأوا إلى طرق أوهموا الناس بانها تكشف حجب المستقبل واستطاعوا بفراستهم أو عن طريق البحث الخفي ان يعرفوا بعض الوقائع الماضية وان يحدّثوا بها الناس في جو اسطوري مثير فاكتسبوا ثقتهم وانتقلوا من ذلك إلى الحديث عن وقائع المستقبل وكان للمصادفة أكبر الأثر في تصديق الناس لأقوالهم.

كما تمكّن بعضهم من الاتصال بالجن والاستعانة بهم في تحقيق بعض الأمور التي اعتبرت من الأمور الخارقة بالنسبة للبشر.

ولا يكاد يخلو تاريخ أمّة من الأمم من التنجيم وحوادثه وابطاله ولو تفرغ باحث لدراسة تاريخ التنجيم في العالم لتوصل إلى معلومات تعتبر في غاية الطرافة والامتاع.

على أن العجيب حقا هو أن كل ما وصل إليه العالم في العصر الحديث من حضارة وثقافة وعلم لم يستطع أن يقضي على سوق التنجيم ومحاولة التنبؤ بالغيب، فأكثر الصحف اليومية والاسبوعية تنشر أعمدة يومية تحت عنوان «حظك» أو «حظك

اليوم» أو غير ذلك من العناوين.. وكتّاب هذه الأعمدة يستخدمون الأبراج وتواريخ الميلاد.

ويقبل كثير من القراء إقبالا عجيبا على معرفة حظوظهم.. واعرف صديقا مثقفًا متزوجًا من سيدة مثقفة يشتري مجلة اسبوعية معينة لمعرفة الحظ فقط لا لشيء آخر وكثيرا ما ناقشته بقصد إقناعه بما في تصرفه من سذاجة لا تتفق مع عقليته النيرة وثقافته الواسعة ولكنه لم يقتنع.

والعجيب أن رجلا مؤمنا وقف في وجه الالحاد عندما كان الالحاد «موضة العصر» في دنيا المثقفين وقف وحده في وجه الطوفان بإيمانه وقلمه حتى حقق المستحيل، هذا الرجل لم يستطع ان يتخلص من تأثير التنجيم عليه.. وهذا الزيات البليغ يقول عن مصطفى صادق الرافعي:

«ومن شذوذ العبقرية في الرافعي أنه كان يعتز بنفسه إلى حد الصلف ويؤمن بالغيبيات إلى درجة السذاجة».

وحدثنا الأستاذ سعيد العريان في كتابه «حياة الرافعي» حديثا طويلا عن الرافعي المؤمن الذي لم يستطع أن يتخلص من تأثير الغيبيات عليه.

كما أن المنجمين وقارئي الكف وضاربي الرمل وفاتحي فناجين القهوة والكوتشينة والمنومين المغناطيسيين منتشرون في كل مكان.

وهناك أوهام شائعة في كثير من المجتمعات وخاصة في العالم العربي فإذا اهتز جفن العين اليمنى لأسباب عضوية غير إرادية كان ذلك إيذانا بوقوع شيء أما إذا اهتز جفن العين اليسرى فمعناه حدوث شيء آخر.

وحدوث صفير في الأذن اليمنى له تفسير أما إذا كان مصدره الأذن اليسرى فله تفسير آخر.. وهكذا..

وقد شجع الإسلام وهو دين العمل والإنتاج التفاؤل أو الفأل لأنه يدفع إلى العمل والإنتاج.

وحارب بكل شدة التطيُّر لأنه يعوق العاملين ويثبط همة الراغبين في الإنتاج وقد اكد الإسلام على أتباعه ألا يخضعوا لتأثير الطيرة وإذا وقع في نفس أحدهم شيء فليقل اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك.

ولسنا بحاجة إلى أمثلة وإن كان يحضرني الآن قصة ابن الرومي الشاعر الذي عاش حياة بائسة حزينة فلم يهنأ بعيش ولم يلتذ بمتعة، كان ضحية التطير والتشاؤم، فكثيرا ما فتح باب منزله في الصباح ليخرج ولكنه سرعان ما يعود ثانية ويغلق على نفسه الباب لانه رأى منظرا مزعجا او نظر إلى رجل أعور أو وقع نظره على إنسان أحدب أو مصاب بأي عاهة من العاهات أو سمع كلمة تحمل معنى التشاؤم يعتقد أن يومه ذاك غير سعيد، وأن عليه أن يلزم بيته حتى يمر بسلام، ولكن المأساة تتكرر في اليوم الثاني واليوم الثالث وهكذا.. وكان يقضي أيامه في صب نقمته على أولئك البائسين ويصليهم نارا حامية من هجوه وسخريته.

وتحضرني الآن صورة مقابلة لوزير في العصر العباسي نسيت اسمه تغيرت احواله حتى أصبح في حالة من البؤس اضطرته إلى ان ينزوي في بيته حتى لا يقابل أحدا ولما اشتدت به الحال ولم يجد ما ينفقه اضطر إلى الخروج مع صديق له وكان أول ما صادفه نعش عليه إنسان ميت في طريقه إلى المقبرة ليدفن ولو كان ابن الرومي لمات من الفزع أو قتل نفسه، ولكن هذا الوزير نظر إلى صديقه وقال له: لئن صدق ما وقع في نفسي فقد انتعشنا ومضى إلى غرضه.. وفعلا لم تمضِ غير فترة قصيرة واذ بالوزير يصبح في أرغد عيش فالنعش ذكره بالانتعاش ولم يذكره بالموت والنهاية والقضاء على الآمال.

وقضية التنجيم والمنجمين تذكرني بقصتين في تاريخنا العربي أولاهما قصة أبي تمام والمعتصم والمنجمين.. والمعتصم كما هو معلوم الخليفة الثامن من خلفاء بني العباس وكان بلاطه شأن كل ملوك عصره يضم المنجمين والشعراء.

وحدث في عصره أن قام ملك الروم - بإيعاز من بعض الثائرين على المعتصم - بهجوم على الحدود فوصل بلدة زبرطه فقتل الرجال وسبى الذرية.

وصاحت امرأة هاشمية وهي اسيرة في أيدي الروم «وامعتصماه» فبلغ ذلك المعتصم فقرر أن يهب لانقاذها وتأديب ملك الروم، فجمع منجميه وسألهم عما إذا كانت النجوم توافق على القيام بهذا الغزو، فدرسوا واطالوا البحث ثم قالوا له إن هذه المدينة لا تفتح إلا وقت نضج التين والعنب أي في الصيف وكان بينه وبين الصيف وقت طويل، فرمى بكلامهم عرض الحائط وانطلق بجيشه حتى بلغ «عمورية» أمنع بلاد الروم وأحصنها، وافتتحها وقتل من الروم تسعين الف رجل.

وعندما عاد استقبله الشعراء وعلى رأسهم زعيمهم أبو تمام فالقى بين يديه قصيدة ستظل ما بقي العرب والتراث العربي من الذخائر الأدبية.

يقول في مطلعها:

السيف أصدق أَنْباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

عجائبًا زعموا الأيام مجفلة ... عنهن في صفر الأصفار أو رجب

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وصيروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلبًا أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب
لو بينت قط أمرًا قبل موقعه ... لم تخف ما حل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في (أبرادها) القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حُفَّلاً معسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب
لَبَّيْتَ صوتًا زِبَطْرِيًّا هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
تسعون ألفًا كآساد الشرى نضجت ... جلودهم قبل نضج التين والعنب
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نُصِرْتَ بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسِمِهم ... صُفْرَ الوجوه وجلت أوجه العرب

والقارئ لهذه الابيات يدرك ولا شك السخرية المرة التي ضمنها الشاعر ابياته من المنجمين وأقوالهم وادعاءاتهم.

وقد ذكر بعض تنبؤاتهم التي لم تصدق وكيف زعموا أن العالم سينتهي في صفر او رجب عندما يظهر الكوكب الغربي ذو الذنب واقرأ هذين البيتين:

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب
لو بينت قط أمرًا قبل موقعه ... لم يخف ما حل بالأوثان والصلب

وما صنعه المنجمون أيام أبي تمام هو نفس ما يحدث في أيامنا هذه فإن الفلكيين والمتنبئين يقلقوننا في كل حين بقرب قيام الحرب أو فناء العالم وتحين المواعيد التي

يحددونها وتكذبهم الأقدار ومع ذلك لا يرعوون فيعودون إلى أكاذيب جديدة تكذبها الأقدار من جديد.

واقرأ هذا البيت الرائع:

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وقصيدة ابي تمام تحفة رائعة تقف في طليعة النماذج الأدبية الرائعة للأدب القوي الذي ندعو له وندعو إلى اشاعته بين أبنائنا الطلاب.

ويقال إن المعتصم أجاز الشاعر بالف درهم عن كل بيت فيها.. ولكن تلك الآلاف ذهبت وبقيت قصيدة الشاعر قلادة في عنق الزمان تروي قصة من أروع اقاصيص الإسلام وعظمة الإسلام.

اما القصة الثانية فقد حدثت في بداية عهد الحكم الفاطمي بمصر.. أراد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله أن يبني عاصمة جديدة للدولة، وحفر العمال الأساس، ثم علقت الأجراس على طول خطوط الأساس، والغرض من ذلك أن يوضع الأساس في لحظة واحدة عندما تقرع الأجراس معلنة ساعة السعد التي سيقررها المنجمون.

واكب المنجمون على حسابهم يعدون ويحسبون في انتظار اللحظة السعيدة.

ووقف العمال والمهندسون ينتظرون هذه اللحظة وفجأة حدث مالم يكن في الحسبان فقد وقع أحد الطيور الكبيرة على أحد الحبال فاهتزت الأجراس، وقام العمال بإلقاء الأساس ثم اتضحت الحقيقة بعد أن وضع الأساس كله، ونظر المنجمون فوجدوا أن اللحظة التي قرعت فيها الأجراس ووضع الأساس كان فيها برج المريخ واسمه في عرفهم «القاهر» فسميت عاصمة المعز بالقاهرة.

وبالرغم مما يذهب إليه بعض المؤرخين من التشكيك في صحة هذه القصة فإن تسمية العاصمة بالقاهرة أمر يستدعي التفكير فقد اعتاد الفاطميون أن يسموا مدنهم وعواصمهم بأسمائهم كما فعلوا عندما كانوا في المغرب.

هذه طائفة من الخواطر أثارها في نفسي ما قرأته أخيرا من أن هتلر الزعيم النازي الخطير كان لا يأذن بهجوم أو بعملية حربية إلا بعد استشارة خمسة منجمين ملحقين به أشهرهم «أرناس كراف».

هل سمعتم... إنه هتلر... زعيم الشعب الالماني العظيم.

وكم في الحياة من أعاجيب ومتناقضات.!!

لقاء كل أسبوع (*)

منذ ارتباط الإنسانية بالأرض هذا الارتباط المحكم والإنسانية في حرب دائبة دائمة مع نفسها.

لا تقف إلا لتعاود العمل ولا تهدأ إلا لتعود اشد عنفا وفتكا وضراوة وحتى عندما تتعرض الجماعة الإنسانية لأخطار من قوى خارجية عنها وتضطر إلى التكاتف لصد هذه الأخطار الطارئة سرعان ما تعاود سيرتها في الحرب والقتال منذ اللحظة الأولى التي تشعر فيها بالأمان.

ولو جردت تاريخ الإنسانية من أخبار الحروب والضحايا لوجدت ان ما تبقى قدر ضئيل يسير لا يتفق وما ينتظر من هذه الجماعة التي وهبتها الأقدار مزايا لا تقدر بثمن.

صحيح ان بعض هذه الحروب قامت لأغراض سياسية ونبيلة ولكن الكثرة الكاثرة فيها كانت لمجرد الرغبة في الاستعلاء وفرض السيطرة والتلذذ بمناظر الدماء.

وأحب أن أوجه النظر إلى العبارة الأخيرة، فلعل فيها تفسيرًا لهذه المجازر الرهيبة التي وقعت في كل جزء من أجزاء العالم، وإلا فكيف تفسر هذه القسوة التي عامل بها من يسمونهم بالغزاة - والفاتحين سكان المدن والقرى بعد احتلالها؟ وكيف تفسر هذه الرغبة الجامحة التي تسيطر على بعضهم فيصر على أن ينافس بناة الأهرام

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٨/١/١٣٨٣هـ الموافق ١٠/٦/١٩٦٣م العدد (١٦٨).

ولكن بأسلوب جديد فيبني هرمًا لا من الأحجار ومواد البناء ولكن من الرؤوس والجماجم.. رؤوس الناس وجماجم البشر.

كما يصر بعضهم على اقتناء أكبر عدد من البراميل ملئت بآذان النساء والرجال كما فعل القائد الفرنسي الكونت داريسون في الجزائر.

ولو كنت من هواة الأرقام والإحصاءات ورغبت في عمل إحصاء بضحايا الحروب كما وردت في كتب التاريخ لوقعت على أرقام مذهلة قد تصاب على أثرها بالغثيان والدوار ثم الإغماء وقد يشفق عليك أحد محبيك عندما يعرف سر «تعبك» فيقول لك لا تصدق في كلام الكتب فإن بعض المحققين يرى أن هذه الأرقام مبالغ فيها.. ولكن الواقع أنه لا مبالغة في هذه الأرقام بل إن هناك كثيرا من الأرقام قد أغفلها التاريخ لأنها حدثت قبل التاريخ أو لأنها حدثت في ظروف لم يستطع التاريخ متابعتها فيها.

وعلامَ نستبعد هذه الارقام ونحن نشاهد الأرقام المثيرة من عدد الضحايا في عصرنا الحاضر.

هل يذكر الذين عاصروا الحرب العظمى سنة ١٩١٤م عدد ضحاياها وهل يذكر الذين عاصروا الحرب العالمية سنة ١٩٣٩م - وهم كثر - كم عدد ضحاياها؟ وعلامَ نبعد كثيرا وأمامنا حرب الجزائر التي لم تنته إلا في هذا العام[١] فلقد بلغ عدد الضحايا ما يزيد عن المليون شهيد كما مات من الباكستانيين أثناء انتقالهم من الهند إلى الباكستان ما يجاوز المليون من الشهداء وهما رقمان يسيران حقا نستطيع ان نتخذهما قياسا نقيس به او عليه.

ولم يستطع تقدم الحضارة وتقادم الزمن أن يفل من شوكة القتال في الإنسان أو يضعف شوكته.

(١) انتهت حرب تحرير الجزائر في عام ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م وقد نشبت حرب التحرير هذه في أول نوفمبر عام ١٩٥٤م، وقد ظل شعب الجزائر يشن الحرب على الاستعمار الفرنسي الغاشم، وقد ساهم فيها المواطنون جميعًا، وضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والفداء.

بل إن الحضارة بوسائلها الحديثة الكثيرة قد زادت من شناعة الحروب وعنفها وأضافت إلى الحروب الساخنة التي تقصف الأرواح وتمتص الدماء حروبا أخرى باردة تحطم الأعصاب وتأكل النفوس وتعبث بأمن البشرية وسلامها.

ومن العجب أن الذهن الإنساني بما وهب من ذكاء ومقدرة كان يتفنن في ابتكار الحيل واختراع الوسائل التي تحقق له النصر.

ولو تفرغ باحث لدراسة ما سجّل التاريخ من هذه الحيل وتلك الوسائل لطلع بعدد من المجلدات الضخمة.. ونذكر على سبيل المثال قصة حصان طروادة الخشبي فلقد قامت معارك عنيفة بين اليونانيين والطرواديين على ضفة «الدردنيل» الشرقية وقد فصّلها الشاعر اليوناني العظيم هوميروس في الإلياذة ولا تهمنا تفاصيل هذه المعارك بقدر ما يهمنا أن نعرض لقصة الحصان الخشبي.

لقاء كل أسبوع(*)

لقد طالت الحروب بين الطرواديين واليونان واضطر الاخيرون إلى ان يلجأوا إلى الحيلة فصنعوا حصانا كبير الحجم من الخشب أدخلوا فيه نخبة من أبطالهم ورؤسائهم وأغلقوه عليهم ثم انسحبوا من حول طروادة وخرج الطرواديون من حصونهم فوجدوا هذا الحصان وبجواره شخص زعم لهم أنه هرب من اليونان لأنهم كلفوه بعمل لم يقبل القيام به وأقنعهم بأسلوبه الخاص بأن ينقلوا الحصان إلى داخل المدينة تذكارا لهذه الحرب الظالمة وأدخلوه رغم معارضة بعض عقلائهم.

وعندما نامت المدينة خرج أبطال اليونان من داخل الحصان وفتحوا أبواب المدينة وقتلوا الحراس وأشعلوا النيران وعاد الجنود فأخذوا المدينة الحصينة وأعملوا فيها السيف وجعلوها أطلالا.

وسواء أصحّت القصة أم لم تصح فهي قصة معقولة لها مشابه في التاريخ، ونذكر على سبيل المثال القصة المعروفة في التاريخ العربي والتي حدثت بين الزباء ملكة الجزيرة وجذيمة الذي كان يملك ما على شاطئ الفرات.

وقد قتل جذيمة والد الزباء فاحتالت عليه حتى استقدمته إلى بلادها وقتلته ولكن أحد وزرائه وكان يدعى قصير بن سعد اللخمي احتال على الزباء حتى وثقت به ثم استحضر عددا من الرجال الأشداء برئاسة عمر وبن عدي خليفة جذيمة وحملهم على الإبل وتظاهر بأنه يحمل صنفا من البز والأمتعة والعطور والطرائف إلى الملكة ثم دخل عليها مدينتها واقتحم عليها قصرها وقتلها واستولى على ملكها.

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٧/٢/١٣٨٣هـ الموافق ٨/٧/١٩٦٣م العدد (١٧٢).

وأسلوب الزباء في استقدام جذيمة وأسلوب قصير في ادخال عمرو بن عدي ورجاله لا يقلان روعة عن أسلوب الأثينيين في إيصال حصانهم الخشبي إلى طروادة.. ويحسن بالقارئ ان يقرأ تفاصيل القصتين اليونانية والعربية في مصادرهما فسيطلع على تفصيلات مثيرة وسيستمتع استمتاعًا لا حدَّ له.

ويحفل تاريخ صدر الإسلام بالوان من هذه الأساليب الحربية ومما يذكر في هذا المجال فكرة الخندق التي أذهلت المشركين وأثارت دهشتهم وكانت من الأسباب الرئيسية في انتصار المسلمين في تلك الغزوة العصيبة التي سميت باسم غزوة الخندق الحربية الجريئة.

ومما يحسن ذكره كذلك ما تعرض له جند المسلمين في موقعة القادسية بقيادة سعد بن ابي وقاص، فقد نفرت خيول المسلمين من منظر الفيله في جيش الفرس وتعرض المسلمون لمتاعب كثيرة في اليوم الأول من جراء هذا ولكن المسلمين استطاعوا أن يفكروا في حيلة غريبة للتغلب على ذلك فقد جاءوا بالإبل وجللوها وبرقعوها حتى صارت ذات شكل غريب أشبه بالعفاريت أو السعالى وطافت بها خيول المسلمين تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل في اليوم الثاني ما لقيته جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الأول.

لقاء كل أسبوع

منذ فجر البشرية وجميع الخصوم لا يتورعون عن استعمال اي سلاح في سبيل قهر خصومهم حتى ليبدو للمؤرخ الباحث أنه ما من وسيلة تستعمل في العصر الحديث إلا وقد سبق ان استعملت في العصور القديمة بأسلوب أكثر بساطة.

ويكاد يكون من المعروف أن من الأسلحة الفتاكة التي اختص بها عصرنا الحاضر الغازات السامة حتى لقد بلغ من فَتْكِها ان اتفقت الدول على عدم استعمالها في الحروب.. لمنافاتها للإنسانية.

ولكن التاريخ يحدّثنا أن استعمال المواد السامة سبق أن اتخذت كوسيلة من وسائل التغلب على الخصوم، فهذا أبو عثمان الجاحظ عمرو بن بحر يحدّثنا في كتابه «الحيوان» فيقول: «والعقارب القاتلة تكون في موضعين: بشَهْرَ زُور[1]، وقرى الأهواز، إلا أن القواتل التي بالأهواز. (جرارات)[2]، ولم نذكر عقارب نصيبين وهي «مدينة من بلاد الجزيرة» لأن أصلها فيما لا يشكون فيه من «شهر زور» حين حُوصِر[3] أهلها ورُموا بالمجانيق وبكيزان محشوَّة من عقارب شهر زور حتى توالدت هناك، فاعْطَى القومُ بأيديهم»[4].

(١) كورة بين إربل وهوزان.

(٢) ضرب من العقارب صغار تجرر أذنابها.

(٣) حوصرت من قبل كسرى أنوشروان، فاستعصت عليه، فامر أن تجمع له العقارب من قرية تسمى «طير إنشاه»، فرمامهم بها في العرادات والقوارير، فتملأ القارورة وتدفع بالعرادة، فإذا وقعت انكسرت فتخرج العقارب، حتى ضج أهلها وأسلموا له الأمر.

(٤) أعلنوا الخضوع.

وهذا نص صريح بان مدينة نصيبين تعرضت للرمي بكيزان محشوة من هذه العقارب المسمومه القاتلة وأن هذه الوسيلة الحربية أدت إلى استسلام أهلها ولم تكتف بذلك بل ابتليت بهذه الحشرات الضارة القاتلة تساكنها وتعاشرها وتجاورها وبئست هذه الساكنة والمعاشرة والمجاورة.. وصدق أبو الطيب.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًا له ما من صداقته بُدٌّ

وهكذا سبق الاوائل إلى استخدام المواد السامة في الاغراض الحربية ولا جديد تحت الشمس وقد استعملت العقارب في القضاء على الخصوم منذ سنوات وان كان استعمالا فرديا ومن غير قصد.

فقد كانت العقارب منتشرة في قرية من القرى وكانت تشكل خطرا على حياة السكان فرأت وزارة الصحة في ذلك البلد ان تقضي على انتشارها بأن اعلنت انها تدفع «قرشا» عن كل عقرب يحضره واحد من السكان حيا او ميتا واندفع السكان وخاصة الاطفال منهم يجمعون ماقدروا عليه.

ولكن أحد السكان فكّر تفكيرا تجاريا ورأى في هذه العملية صفقة رابحة فاختار مكانا وأعده إعدادًا محكمًا وفتح في أعلاه فتحة ووضع عليه غطاء ثم أخذ يصطاد العقارب ويضعها في هذا «المخزن الذهبي» لتتوالد وتتكاثر ثم يبيعها على وزارة الصحة.

ويضيف في كل يوم عددا حتى أصبحت خلية تموج بالموت العاجل والسر القاتل ويبدو أن أحد اللصوص استطاع أن يتبين اهتمام صاحب المخزن الذهبي بمخزنه وخُيّل إليه أن فيه كنزا فانتهز غفلته في إحدى الليالي وهبط إلى المخزن ليخرج بالكنز.

وأدع للقراء ان يتخيلوا الاستقبال الحافل الذي استقبلت به آلاف العقارب هذه «الوجبة» الدسمة السخية النازلة من السماء.

وفوجئ صاحب المخزن برجال الشرطة يستدعونه لفتح مخزنه لأن رائحة كريهة تنبعث منه فقد كانت رائحة الضحية المسكينة التي ساقها الطمع إلى حتفها.

واكتشف في نفس الوقت انه هو نفسه ضحية من ضحايا الطمع.. وكم للطمع من ضحايا!.

ولميخائيل نعيمة المفكر اللبناني المعروف قصيدة طويلة عن الحرب والسلام ليست تحـــت يـــدي الآن ولكنني اذكر منها هذه الابيات وربما كانت خير ختام لهذه المقالات.

يقول :

قالت متى سحب الوغى تتقشع

ومتى يــذوب عن الوجود المدفع

ومتى حمــام السلم يومًا يسجع

ومتى القلــوب على المحبة تجمع

☆ ☆ ☆

فأجبتها والقـــلب منقطع الرجاء

هيهـــات لا يــرجــى شفـــاء

مـــا بالنفـــــوس مــن العنــاء

فالحــــرب في الإنســــــان داء

والحــــرب تعـــمــل للفنـــاء

كالحــــرب تعـــمــل للبقـــاء

حَتَّى يرتفع البناء(*)

ان المسؤولية الفردية والشخصية ركن أصيل في الشريعة الإسلامية، لأن الفرد في الإسلام هو اللبنة التي يتكون منها المجتمع كله، وكذلك فإنه لا يضير المسلم تخاذل بعض المسلمين عن القيام بواجباتهم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾.

فيؤدي واجبه كاملا نحو إخوانه ويضع كل يوم حجرا في سبيل تدعيم القلوب وتآلف النفوس وتعاون الأفراد والجماعات حتى يقتدي به المخلصون فتنصلح النفوس ويعود للإسلام وللمسلمين مجدهم وكرامتهم وتصان هيبة الإسلام ﴿**ولينصرن الله من ينصره**﴾.

ومن أهم الواجبات التي أمر بها الإسلام الألفة والتحاب والأمانة والعدل والإحسان والرحمة والصدق وفعل الخير وترك الحسد والتجسس.. وكل فعل فيه خير ومصلحة للمسلمين أوجبه الإسلام، وكل قول أو عمل فيه ضرر للفرد والجماعة نهى عنه الإسلام وحذر منه.

فمن ذلك أن الإسلام قد أوجب على المسلم أن يعمل على إزالة العداوة والخصومات بين المسلمين وإصلاح ذات بينهم. روي عن أبي الدرداء أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة**» قالوا بلى يا رسول الله قال: «**إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة**

(☆) بعض من حلقات كان يلقيها «الربيع» يرحمه الله، في الإذاعة السعودية في عام ١٣٩٢هـ، تحت هذا العنوان: «رأيت أن مكانها في هذا الكتاب».

لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» وقال - صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الصدقة إصلاح ذات البين»** وروي عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**ما عمل ابن آدم شيئا أفضل من الصلاة وصلاح ذات البين وحسن الخلق»**.

وقال تعالى: ﴿**والصلح خير**﴾ وقال: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾.

كما أوجب الإسلام على المسلم ان يقدم النصح لإخوانه المسلمين وأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر قال - صلى الله عليه وسلم: «**الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»** وجاء في كتاب الله ﴿**ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾.

وعلى الناصح أن يكون مخلصا وصادقا في نصحه وأن يستعمل اللين في قوله وأن ينزه لسانه عن البذاءة والخشونة في التعبير لأن ذلك يسبب النفور وعدم قبول النصيحة فمن أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

والدعوة إلى الهدى من أفضل الأعمال.. وتعليم أمور الدين وبث روحه وتعاليمه بين المسلمين فريضة لا يصح تركها، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»**.

كما أوجب الإسلام على المسلم احترام حقوق المسلمين وتجنب الظلم بأنواعه لأن الظلم ظلمات يوم القيامة قال عليه السلام: «**كل المسلم على المسلم حرام عرضه ودمه وماله»**.

وفي حديث آخر رواه أبو هريرة «**ثلاثة لا يرد الله دعاءهم: الذاكر الله كثيراً، والمظلوم، والإمام المقسط»**.

كما أوجب الإسلام على المسلم محبة المسلمين واسداء الخير اليهم والعفو عن زلاتهم لأن الانتقام يزيد الاحقاد ويشعل نار البغضاء وصدق الله العظيم: ﴿**ولا تستوي**

الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

ولأن منزلة المسلم من ربه على قدر نفع كل فرد من المسلمين والناس أجمعين قال عليه الصلاة والسلام: «**خير الناس أنفعهم للناس**» وروي عنه أنه قال: «**رأس العقل بعد الإيمان بالله التحبب إلى الناس**» وقال أيضًا «**المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**» والأحاديث في ذلك لا حصر لها.

كما أوجب الإسلام على المسلم أن يكون متواضعًا مع إخوانه المسلمين فمن تواضع لله رفعه ومعنى أن تكون متواضعًا أن تقدر نفسك حق قدرها وأن تعرف منزلتك معرفة صحيحة من غير أن تتظاهر بما ليس فيك فالناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى كما يقول صلى الله عليه وسلم.

وجاء في نصيحة والد لولده: «يا بني ألِن جانبَكَ لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك.. الخ» فالتواضع من الصفات التي تحبب الناس في صاحبها لأنه لم يغشهم ولم يخدعهم بالاتصاف بما ليس فيه، أما من يدّعي ما ليس له من علم أو مال أو قوة أو صلاح - ويتعالى على الناس بذلك فإن شواهد الأحوال ستكشف عن حقيقته وتكذبه وحينئذ يحتقره الناس ويصبح ذليلا فريدا.

كما أوجب الإسلام على المسلم أن يكون سخيا كريما مع إخوانه المسلمين فيساعدهم ويعينهم ماديا وأدبيا بقدر ما يستطيع «فالكريم قريب من الله قريب من الجنة بعيد عن النار» والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ويروى في حديث قدسي: «**أحب ثلاثا وحبي لثلاث أشد أحب أهل السخاء وحبي للفقير السخي أشد، وأحب التائبين وحبي للشاب التائب أشد، وأبغض ثلاثا وبغضي لثلاث أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد، وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد وأبغض الفساق وبغضي للشيخ الفاسق أشد**».

وقيل لبعض الحكماء أي شيء أنفع للإنسان؟ قال عقل يولد به قيل فإن فاته؟ قال: كرم يستره قيل فإن فاته ذلك قال أدب يقوّمه قيل فإن فاته؟ قال صمت يلزمه، قيل فإن فاته ذلك؟ قال قبر يحويه.

كما أوجب الإسلام على المسلم أن يتجنب سوء الظن بالمسلمين والتجسس عليهم وتتبع عوراتهم «**فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته**» كما يقول عليه الصلاة والسلام.

وان يحذر الغيبة والنميمة ومعنى الغيبة ان تذكر أخاك بما يكره في غيبته والنميمة هي نقل الحديث الذي سمعته مع الزيادة عليه زيادة تضر: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا**﴾.

وأن يغض بصره عن حرمات الله: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم**﴾.

وأن يصون لسانه ويده عن إيذاء المسلمين فقد روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا مالنا بُدٌّ منها يا رسول الله انما هي مجالسنا نتحدث فيها: قال فإن أبيتم إلا المجالس فاعطوا الطريق حقها، قالوا وما حق الطريق؟ قال غض البصر وكف الأذى وردُّ السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر «**ليس المؤمن بالطَّعَّان ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء**».

وكذلك أوجب الإسلام على المسلم احترام حقوق الجيران، فمن كمال إيمان المسلم أن يحسن إلى جوار أخيه المسلم بالبِشْر وطلاقة الوجه وكَفِّ الأذى عنه وبذل المعروف له ومشاركته في السراء والضراء.. عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره**» وأن يحذر الغش في صناعته أو تجارته وكثرة الحلف عند البيع لانها تضيع الثقة وتجلب المصائب وتنزل

بصاحبها أفدح الخسائر فلن تَر عاملا خان في عمله وتقدم ولا صانعا دلس في صناعته ولا تاجرا غش في تجارته وربح بل تغلق أبواب الرزق في وجوههم وتضيع البركة من أعمالهم فضلا عن خروج الغشاش من زمرة المسلمين كما بين ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «**من غشّنا فليس منا**» ويقول أيضًا: «**إياكم وكثرة الحلِف في البيع فإنه يُنَفِّقُ ثم يَمْحَقُ**» اي يروج السلعة ثم يذهب البركة من الربح، كما يجب على المسلم أن يكون صادقا وصريحا مع المسلم في قوله وعمله لأنهما أساس نجاح المسلم وتقوم عليهما روح المعاملات في البيع والشراء، وأن لا يذيع أسرار الناس بقصد الإضرار بهم وبسمعتهم وكرامتهم لأن شرف المسلم وسمعته أغلى ما يمتلكه.

وخلاصة الواجبات تنحصر تحت الميزان الخلقي الذي يقول «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به وأحب لهم ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها».

وصفوة ما دعا إليه الإسلام تقوية الرابطة الدينية على أساس المحبة في الله والاجتماع على كلمته وجمع المسلمين على هدف واحد هو تقوية شوكة الإسلام وحماية العقيدة.

ودفع الضر عن أبنائه، وتعريف أسباب الحياة الفاضلة لكل فرد منهم، وتسليحهم في حياتهم بسلاح الحق والقوة معًا حتى يتبوأوا في دنياهم مكانهم اللائق بهم بدون تعصب ذميم ولا اعتداء على المسلمين من غير المسلمين.

وقد قال عز من قائل ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾ ﴿**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا**﴾.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾.

اذا كانت الوطنية محبة الإنسان لوطنه وأبناء وطنه فالإنسانية ايضا محبة الإنسان لبني الإنسان عامة لأن العالم كله أسرة واحدة وعلى أفراد الأسرة أن يتعاونوا وأن

يتوادوا وأن يتعاطفوا ويتجنبوا أسباب البغض والقطيعة التي تدفعهم إلى الفتن والهلاك فكما أن على الإنسان واجبات لأسرته ولأمّته كذلك عليه واجبات للمجتمع الإنساني عامة لا فرق بين جنس وجنس أو لون ولون أو دين ودين، قال تعالى ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾.

فالواجب على كل إنسان ان يحسن ويرحم اي إنسان لانه إنسان فقط فمثلا إذا صادفك فقير محتاج دفعك واجب الاخوة في الإنسانية إلى التصدق عليه ومساعدته وإذا رأيت غريقا دفعك الواجب إلى إنقاذه ولو كان عدوك «وما استحق ان يولد من عاش لنفسه فقط» وجمعيات الاسعاف تقوم بعلاج اي إنسان يلجأ اليها لانه إنسان فقط وهكذا.

ولأن الشعوب جميعًا في حاجة ماسة إلى التعاون والاتصال بعضها ببعض ولا غنى لدولة في الدنيا عن تبادل المنافع والآراء والثقافات والتجارة مع غيرها من الدول ولذلك قامت علاقات سياسية وتجارية وثقافية في وقت السلم بين الدول فإذا - ما قامت الحرب بين الدول وجب على الجميع ان يراعوا واجب الإنسانية والرحمة في حق الشعوب فلا يجاوزوا بالأعمال الحربية حد الضرورة العسكرية بالا يستهدفوا المدنيين بغاراتهم ولا يستعملوا الاسلحة الفتاكة التي لا تميز بين محارب ومسالم كالقنابل الذرية والجراثيم والغازات السامة، واتخذ العالم مثلا من تعاليم الإسلام السمحاء التي دفعت الخليفة الأول قبل أربعة عشر قرنا أن ينهى جنوده عن قطع شجرة أو قتل طفل أو امرأة أو رجل دين مسالم.

فالناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

فالإنسان العاقل الذي يشعر بأنه عضو في المجتمع الإنساني يتأثر بما يلحق هذا المجتمع من الخير والشر أو النفع والضرر أو السعادة والشقاء.

ولا يعمل لمصلحة ذاته فحسب بل يواسي جميع الناس بقدر ما يستطيع ويرحمهم ويعطف عليهم بالمساهمة في انشاء الملاجئ والمستشفيات للفقراء والعجزة والمرضى في أي مكان.. أما من ينظر لمصلحته الخاصة فقط فهو أناني مرذول ومكروه لا يشعر الناس بحياته أو موته قال عليه الصلاة والسلام: «**خاب عبد وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر**».

لأن خُلُق الرحمة لا وطن له بل يشمل كل ضعيف على وجه الأرض، ورسالة الأنبياء عليهم السلام من أهم مظاهرها الرحمة بالإنسانية لأنهم قدوة البشر في خدمة الإنسانية واقامة الأديان ومحاربة الرذيلة ونشر الفضيلة وتآلف القلوب وتطهيرها من الحقد والحسد والضغينة.

ومن الذين خدموا الإنسانية ايضًا الصناع المخترعون الذين أوجدوا الكهرباء والسيارات والهاتف والطائرات والمطابع وغير ذلك من الصناعات التي سهلت للناس العيش وذللت لهم الصعاب ورفّهت لهم سبل الحياة وحالت بينهم وبين الأسقام والأمراض.

وكل من يتقن عمله ويحاول الابتكار والتجديد فيه يساهم أيضا في خدمة الإنسانية وتقدمها والسبب في هذه الواجبات نحو الناس أجمعين أنهم جميعا متساوون من حيث ما لهم من حقوق طبيعية يتمتعون بها على التساوي.

كحق الحياة وحق التملك وحق الحرية إلى آخر ما هناك من حقوق ولأنهم اخوة جميعا أبواهم آدم وحواء، وغايتهم جميعا واحدة هي السعادة فلكي يعملوا على بلوغها أو القرب منها يجب عليهم أن يتعاونوا ويتراحموا وان يخضعوا للقانون الأخلاقي الذي يظلهم جميعًا، والذي يقوم على واجب العدالة وهو «احترام حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليها وانصافهم وعدم الاخلال بسمعتهم وشرفهم وكرامتهم، وواجب الإحسان والرحمة «لأن الراحمين يرحمهم الرحمن» «ولا يدخل الجنة إلا رحيم» ويكون بتقديمه للناس قولا وعملا والعطف عليهم واحترام عقولهم والصدق

والإخلاص لهم وأن يكون كل فرد قدوة صالحة لغيره من الناس وبذلك تسعد البشرية وتؤدي رسالتها في وئام وسلام.

على أن من واجب العقلاء والمثقفين في كل بلد من بلاد العالم أن يبثوا روح المودة والاخاء بين شعوبهم والشعوب الأخرى وان يزيلوا التعصب الممقوت وفكرة التمييز العنصري لدى بعض الشعوب وفكرة الاستعمار الخبيثة لدى شعوب أخرى.

حياة الأمم وتقدمها متوقفان على الاتحاد، وشر ما تبتلى به الجماعات تَفَرُّق الكلمة لأن وجود التباغض والتقاطع بين أفرادها يؤدي إلى سفك الدماء والهلاك.. روى البخاري عن عبدالله بن مسعود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن ذلك فقال «**لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» وقد أمر الإسلام بالاتحاد والتمسك بحبل الله المتين فقال ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾ إلى أن قال ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾.

هذا أمر صريح من الله جل شأنه للمسلمين بأن يوحدوا كلمتهم وأهدافهم وبأن يؤلفوا بين قلوبهم ومشاعرهم حتى يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا لأن في اتحاد الصفوف واجتماع الكلمة، بقاء الأمّة ونجاحها في رسالتها، ومن أجل ذلك لم يترك الإسلام مناسبة إلا حث المسلمين على الاتحاد وأغراهم به فمثلًا صلاة الظهر أو العصر لا تزيد في ركعاتها وسجداتها وشروطها إذا كانت في جماعة عن صلاة الفرد ومع ذلك فقد ضاعف الله أجرها إلى سبع وعشرين مرة أو يزيد عندما يقف الإنسان مع غيره من المسلمين أمام الله متحدين، وكذلك اجتماع المسلمين في صلاة الجمعة والعيدين من أهم مظاهر الاتحاد وأقواها، وأيضا إتمامًا للمصلحة وزيادة في الخير فرض الله على المسلمين الاجتماع كل عام مرة في مكان معلوم وزمان في حشد هائل يضم الشتات من الشرق إلى الغرب في موسم الحج على عرفات حتى يكون اللقاء

بينهم أمرا محتوما والاتحاد شيئا مألوفا فتعم الفائدة ويكثر الخير.. فلو اتحد الطلاب في فصولهم والعمال في ورشهم والصناع في مصانعهم لزاد إنتاجهم وأُتقن عملهم وكان النجاح والفوز حليفهم لأن اتحادهم يجعلهم يتعاونون على أداء واجباتهم والحرص على استغلال أوقاتهم فيما يفيد بدلا من ضياعها في اثارة الفتن والتفكير في ضرر الغير وإلحاق الأذى به.

وقد حذر الشارع من الفرقة لما فيها من الأضرار البالغة بالأفراد والجماعات فقال تعالى: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾.

وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «.... **لا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا**» وقال «**يد الله على الجماعة**» كما أحل الشارع دم من يفرّق صفوف المسلمين فقال: «**ستكون بعدي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين وهم جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان**» وقال حديث آخر أخطر أثرا من سابقه «**من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية**».

فلنتقِ الله في أنفسنا وبلادنا وامتنا.

ولنوحد كلمتنا في كل مرفق من مرافق حياتنا ولنستمع إلى قول الله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله**﴾...

حتى يُكتب لنا النصر والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

الإخاء بين المسلمين وتعاونهم على البر والتقوى من أهم المبادئ التي حثهم الإسلام على التمسك بها والحرص عليها حتى يصبح المسلمون أسرة واحدة تعمل متعاونة متكاتفة على البر والتقوى والرقي والسعادة والتقدم والحضارة.

فبالتعاون بين البنَّاء والنجار والحداد والصانع يقام أضخم وأفخم صرح ويتعاون الاغنياء بمالهم والصنَّاع بأيديهم وأفكارهم وتنشأ أكبر المصانع التي تنتج أضخم الآلات وأدق المنتجات التي نحتاج اليها في السلم والحرب، ويتعاون الفلاح بقوته وفأسه وصاحب العقار بأرضه وماله فتزرع الأرض وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ثمارا شهية طيبة، وهكذا كل نجاح في الحياة ثمرة التعاون ونتيجة العمل المشترك قال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

وفي مناسبة أخرى يؤكد هذا المعنى بقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**».. فإن من مصلحة المسلمين جميعًا شعوبا وحكومات أن يتعاونوا ويتآزروا حتى يتبوأوا المكان اللائق بهم ويرفعوا من مستوى الشعوب الإسلامية من جميع النواحي عن طريق مضاعفة الجهود وكثرة الإنتاج الصناعي والزراعي بفضل التعاون لأن العالم الغربي قد تقدم على الشرق بفضل تعاونه وتسابقه في المهارة والإتقان والاختراعات ولأن الحياة جسيمة الأعباء ومتاعبها تنزل بالناس كالمطر يغمر الخصب والجدب.. والإنسان بمفرده أضعف من أن يقف طويلا أمام هذه الشدائد وقد قيل: «**المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه**»، وأخوة الإسلام تغرس التعاون والتناصر بين المسلمين والمصلحين والقادة حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل ويأخذوا على أيدي الظالمين والمعتدين ويطهروا أرض المسلمين من المستعمرين والمغتصبين ولا يتركوا مسلما يقاتل وحده في معترك الحياة ويرشدوا الضال ويدافعوا عن الضعيف وهكذا تكون اخوتهم في الله تدفعهم جميعا إلى العمل المثمر متعاونين متَّحدين، وهذه الأخوة وهذا التعاون هو روح الإيمان الحي وأصل المشاعر الرقيقة والنبيلة التي يجب أن يحملها المسلم لأخيه المسلم حتى تجده يحيا بهم ويحيا لهم فكأنهم فروع وأغصان انبثقت من شجرة واحدة أو روح واحدة في أجسام متعددة،

تتألم لألم أخيك المسلم سواء في المصنع أو في المدرسة أو في بلدك أو في أي مكان وتبادر إلى معونته ومحاولة دفع أسباب الضرر عنه وتفرح لفرحه وتسعد لسعادته ووصول الخير إليه وبذلك تصبح الاخوة والتعاون نعمة مضاعفة لا نعمة التجانس الروحي فحسب بل نعمة التعاون المادي أيضا قال جل شأنه ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**﴾.

ويروىٰ في الحديث: «**إنَّ لله تعالى أقواماً يختصُّهم بالنعم لمنافع العباد ويُقِرُّها فيهم ما بذلوها، فإن منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم**» وأيضا يروىٰ «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا**».

لكل إنسان عاقل في هذه الحياة رسالة يؤديها وعمل اختاره لنفسه حسب ميوله ورغباته ليسهم به في خدمة وطنه ومجتمعه الذي يعيش فيه.

وعن طريق هذا العمل يضمن لنفسه حياة كريمة وعيشة هانئة رغيدة، ولكي يؤدي الإنسان رسالته كاملة غير منقوضة ويصل إلى ما يصبو إليه من نجاح وتفوق على أقرانه لابدّ له من العمل المتواصل والجد والاجتهاد وتحمّل المشاق والتغلب على الصعاب بشجاعة وثبات وعزم ومثابرة حتى يصل إلى هدفه ويحقق آماله.

فمثلًا التلميذ الذي يتخلف عن حضور دروسه، والذي لا يستمر على مذاكرتها بنظام والذي ينقطع عن الدراسة كسلا منه واكتفاء بما يحصل عليه من معلومات آلية، والعامل الذي لا يستمر طويلا في عمل أو مهنة حتى يغادرها إلى غيرها بمجرد تعرضه لبعض المشاكل والصعاب.

كل أولئك وأمثالهم يعدون من ضعاف النفوس المتخلفين الذين يضرون بأوطانهم وبأنفسهم ضررًا بالغًا، في حين أن الذي يتغلب بشجاعته على ما يصادفه من عقبات ومشقات ويتحمل التعب ولا يستسلم لبواعث الضعف والملل.

يتم عمله ويصل إلى غايته بسرور لا يعادله سرور عندما يرى العمل الذي بدأه قد تم ونجح بعد أن بذل الثمن غاليا من عرقه ومجهوده الشاق ويعجبنا في هذا المقام قول الشاعر:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفوا بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكه وطرا

وقال آخر:

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

والمتاعب والمشاق تصيِّر الإنسان رجلا، وكل مجد لا يُنال إلا بالصبر والتعب ومواصلة العمل قال أبو تمام:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

وطريق الحياة لا يستطيع قطعه إلا من كان قوي الإرادة حديد العزم جبارا في قهر الصعاب لا يعرف اليأس سبيلا إلى قلبه، من تجنب الكسل ولم يأنف من أي عمل مهما كان شاقا حتى ينتصر على الشرور التي هي وليدة الراحة والكسل «**واليد الفارغة آثمة**».

وصفوة القول أن من أراد النجاح في حياته وأعماله فعليه بالجد والمثابرة والثبات لأن أكثر الناس ثباتا أمام الصعاب أوفرهم حظًا منها..

ومن تأمل تاريخ عظماء الرجال الذين دحروا العالم وغيروا معالم التاريخ يجد أنهم لم يكونوا أصحاب مواهب نادرة بقدر ما كانوا من أهل الجد والثبات والمثابرة ولا عجب في ذلك لأن «كل من سار على الدرب وصل» والأمثلة على ذلك أكثر من أن نستطيع حصرها.

١- وما تاريخ محمد - صلوات الله عليه - وخلفائه من بعده وعظماء قواد الإسلام كخالد وطارق وصلاح الدين إلا أمثلة حية وصفحات مشرقة تعبر بأفصح بيان عن أثر الإرادة والتصميم وتحمل المشاق في نجاح الأعمال وبلوغ المراد فلنعتمد على الله

ثم على أنفسنا ولنؤدِ واجباتنا بإخلاص وشجاعة ولا نتهيب الصعاب مهما كانت لنحاول أن نذللها واحدة.. واحدة.

٢- ولنتعلم ما وجدنا إلى العلم سبيلا فإن من جهل شيئا عاداه ولنحاول أن نستفيد من العلم بتطبيق ما تعلمناه ولا نجعل لليأس سبيلا إلى قلوبنا.. وبذلك يكون النصر حليفنا والمستقبل لنا بإذن الله: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾ صدق الله العظيم.

قيمة الزمن في حسن استعماله والإسلام دين يعرف قدر الوقت وقيمته وخطورة ضياعه فيما لا يفيد ويؤكد الحكمة القائلة «**الوقت كالسيف إن لم تقطعه بالعمل النافع المفيد قطعك بالأسى والحزن**».. وقد حذّر الشارع الحكيم المستهترين الذين يضيعون أوقاتهم سدى فقال النبي - صلى الله عليه وسلام: «**لا تَزُول قدما عبد، حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟**».

وهذا دليل واضح على أن الوقت ثروة ثمينة عظيمة ستسأل عنها أمام الله وهل كنت مدبرا لوقتك منظما لأعمالك واستفدت من كل لحظة مرت من عمرك وأفدت وطنك منها؟ ألا تعلم أيها المسلم أن كل شيء فقد منك ربما تستطيع الحصول عليه إلا الوقت فهو إن ضاع منك فيستحيل عليك إرجاعه.

ولذلك يكون الوقت أغلى ما يمتلكه الإنسان، فواجب على كل عاقل أن يضن بوقته الثمين وأن يحرص على القليل منه قبل الكثير لأن مصالح الإنسان أكثر من وقته، كما قيل في الحِكَم «الواجبات أكثر من الأوقات». «الزمن لا يقف محايدا فهو إما صديق ودود أو عدو لدود» وروي عن الحسن البصري - رضي الله عنه: «ما من يوم ينشق فجره إلا نادى منادٍ من قبل الحق يا بن آدم: «أنا خلق جديد» عجبا للإنسان يلهو ويلعب وينسى أن كل لحظة من وقته محسوبة عليه قال تعالى:

﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾.

على أنه مما يجعل العمل سهلا ويضمن للمرء النجاح: النظام والترتيب والإخلاص في العمل وعدم التردد وعدم ضياع الوقت فيما لا يفيد وبذلك لا تتأخر أعماله ولا تتعطل مصالحه ولا يتأخر عمل اليوم إلى الغد قال الشاعر:

ولا أوخر شغل اليوم عن كسل إلى غد إن يوم العاجزين غد

وقد أرشدنا الشارع الحكيم إلى تدبير الوقت وتنظيم الزمن بأن جعل لكل عبادة وقتا محددا معينا فالصلوات الخمس لها أوقاتها المحددة كي يحرص المسلم على أداء كل صلاة في وقتها المحدد فيتعود النظام والمواظبة والصيام في شهر معين والحج له موسم معين ومشاعره في أوقات محددة.

ولكل نوع من أنواع الزكاة موسم معين، توجيه حكيم وإرشاد كريم من الله تعالى لعباده حتى ينظموا أوقاتهم، ويوزعوا أعمالهم حتى لا تزدحم بعض الأوقات بالأعمال المرهقة، ويبقى البعض الآخر معطلا لا عمل فيه.

وأخيرا فإن المسلم الحق والإنسان الناجح يحافظ على وقته محافظة شديدة وينظم أعماله تنظيما دقيقا نافعا على الوضع الذي يكفل له النجاح والتقدم.

وقد ضرب الله لنا المثل فيما حولنا من مظاهر الكون على النظام والدقة وهما أساس التدبير في الوقت وحسن استغلاله ألا ترى ما في دوران الأرض حول نفسها من دقة تنتج لنا ليلا ونهارا محدودين، وما في دوران الشمس من وجود الفصول الأربعة، وينبئنا علم الفلك أن لكل من الكواكب الثابتة والسيَّارة نظاما خاصا خاضعا لحساب زمني لا يجاوزه ولا يحيد عنه **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾**.

كما يحسن الاستفادة من أوقات الفراغ والراحة بالرياضة المفيدة واللعب النافع استفادة تهيّئه للعودة للعمل بشوق ورغبة ونشاط «ومن لا يعرف كيف يلهو لا يعرف كيف يجد»، وبذلك يرتفع شأن الأمّة لأن عظمة الأمم تقاس بمقدار سعي

أبنائها وثمرة أعمالهم ومحافظتهم على زمنهم واستغلالهم كل دقيقة من أوقاتهم استغلالا نافعا مفيدا.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

طريق الحياة وعر مملوء بالمكاره.. لا يقدر على السير فيه إلا مَن مرن على تذليل الصعاب ولا سلاح أقوى من الإرادة الثابتة والعزم القوي.

فهما كالسيل يجرف مَنْ أمامه في طريقه.

وكثير من الناس يتوهم صعوبة العمل قبل البدء فيه فإذا أخذ في تنفيذه وجده سهلا هيّناً، فالنشاط والهمة هما أساس كل نجاح، أما حب الراحة والكسل وضعف العزيمة فهي سبب كل خيبة وفشل.

قيل في الأمثال «ما اشتار العسل من اختار الكسل» وروي عن الإمام علي - رضي الله عنه: «الخيبة مقرونة بالهيبة» أي تهيب العمل والتردد فيه فكل إنسان يستطيع أن يصل إلى مراده ويحقق آماله بقوة إرادته ونشاطه لأنه ليس ورقة يلقى في النهر لتدل على سرعة مجراه وإنما هو سباح نشيط يقاوم التيار ويصارع الأمواج ويسير إلى حيث أراد بقوة ذراعيه.. والشرائع السماوية تدل على أن الإنسان حر الإرادة وليس عبدا لعاداته وشهواته وأهوائه بل هو سيد عليها.. فيجب على كل مسلم أن يكون قوي الإرادة لئلا يبقى:

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

والإرادة تتجلى وتظهر بالمزاولة والنشاط والمواظبة ولا تحتاج إلا إلى التدريب.

فإذا دُرِّبتْ على الشر كانت شيطانا مريدا، وكان العقل لها عبدا ذليلًا وإذا مُرِّنتْ على الخير كانت مَلَكا رحيمًا وكان العقل لها مستشارا حكيما فيمكنك أن تكون كما تشاء بإرادتك القوية وعزمك الحديدي ونشاطك.

وقد ضرب لنا نبي الإسلام محمد - صلوات الله عليه - أروع الأمثال على العزم الذي لا يلين والصبر الذي لا يضعف والثبات الذي لا يعرف التزعزع أو النكوص، فقد وقف

وحده وسط طوفان من الشر والبغي والظلم يقاوم ويناضل قائلا بعزم - فيما روي عنه: **«والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته»** وسار في طريقه وسط العواصف والأنواء والأعاصير حتى بدد الظلام ووصل إلى شاطئ السلام وأعلن للعالم: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾.

كما برز في تاريخ الإسلام رجال مشهورون بالهمة العالية والاقتدار فغالبوا الجيوش وفتحوا البلاد وكتبوا لأنفسهم أسماء لامعة في سجل التاريخ بين أعظم الفاتحين أمثال أبي عبيدة وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم من قادة الإسلام وعظماء الشرق.. وإذا تتبعنا تاريخ الإسلام نجد أن الذين أحرزوا النصر وتبوأوا أعلى المراتب لم يصلوا إلا بالجد والنشاط والعزيمة والإخلاص.

لا تنال العلا بليت ولكن عكوف الفتى على مرآته
آلة الفوز همة تطحن الصخر وتسمو للنجم في سَبَحاته

وفي عصرنا هذا نجد أن الأمم المتحضرة الراقية التي تقدمت الصفوف لم تصل إلى هذه المكانة إلا بالجد والنشاط وقوة العزيمة.

نابليون بونابرت كان صاحب عزم حديدي وإرادة قوية ولذلك كان لا يعرف المستحيل وكان يكره أن يقال أمامه: «لا أقدر، لا أعرف، مستحيل» ويجيب عن هذه الكلمات بـ«حاول وتعلَّم وجرِّب».

وقيل له يوما إن جبال الألب العالية ستمنعك عن التقدم فقال: «يجب أن تمحى من الأرض» وبذلك أخضع الأمم وقهر الممالك.

فعلينا ونحن في مركز القيادة ومحط أنظار المسلمين في كل أقطار المعمورة أن نواصل نشاطنا ونضاعف جهودنا حتى تتبوأ أمتنا وبلادنا المكانة اللائقة بها.. ونحقق الآمال المعقودة علينا.

لكل إنسان في هذه الحياة آمال ورغبات يسعى لتحقيقها بكل ما أوتي من فكرة وقوة حتى يصل إلى السعادة التي ينشدها لنفسه.

فلو سألت عاملا أو صانعا أو زارعا أو تاجرا في أي مكان عما يشغله في حياته لأجابك على الفور طلب العيش والكفاح في سبيل الرزق، ولكن تختلف عند الأفراد باختلاف عقولهم وفهمهم للحياة، ولو نظرنا إلى دول العالم في العصر الذي نعيش فيه سواء في الشرق أو الغرب لوجدنا أن عددا قليلا من الدول تتزعم العالم اليوم.. فما هو السر الذي دفع بهذه الدول إلى مقدمة الصفوف وجعلها تتفوق على غيرها من الدول في التقدم والحضارة والمدنية والمخترعات الحديثة؟ نرجِّح أن العامل الأول هو وجود التنافس الشريف بين أفرادها من علماء وصنّاع وتجار وغيرهم، فكل صانع يحاول أن يتفوق على زميله في صنعته فيبذل أقصى ما يستطيع من الجهد والفكر حتى تخرج صنعته في إطار جميل وبصورة بديعة مع قلة التكاليف فيحصل على النجاح والشهرة وتتقدم الصناعات وتكثر المخترعات الحديثة، وبذلك تقدمت بلادهم في جميع النواحي الصناعية والتجارية والاقتصادية بسبب الإخلاص والتنافس الذي يعتمد على الإتقان والإجادة والعمل المتواصل لا على الكسل والحقد والحسد وإيذاء الغير مما هو شائع في بعض مجتمعاتنا من الخصال التي لا تتفق مع مبادئ الإسلام والقوانين الخلقية، فبدلا من بغض المتفوقين وحسدهم وتمني زوال نعمتهم يجب أن نُسرَّ لهم ونفخر بهم ونحاول أن نترسم خطاهم ونتفادى أخطاءهم حتى نصل إلى التفوق والرقي المنشود.. ونبينا - صلى الله عليه وسلم - يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» ومن حق المواطن أن يُسرَّ كل السرور إذا ما رأى أخاه في الوطن يقدم عملا متقنا أو صناعة ممتازة وأن يشد على يده مهنئًا ولنجاحه مباركا، وأن يشكر له عمله ويحمد له جهوده ليدفعه إلى الإتقان

ومواصلة الإجادة وأن يحاول محاكاته والتفوق عليه بروح الحب لوطنه الراغب في خدمته، وبهذه الروح العالية روح الحب للوطن ولكل ابن من أبنائه يتقدم الوطن ويسعد المواطنون.

فما أحوجنا نحن شباب العرب وأبناء الإسلام إلى هذا التنافس الشريف حتى نرقى بصناعاتنا ونضاعف من إنتاجنا ويصبح عندنا اكتفاء ذاتي ونرتفع بأوطاننا إلى مصاف الدول العظمى في العصر الحديث.

١- إذا تعوَّد تلميذ أن يلجأ إلى زميله ليساعده في أداء واجباته وتعوَّد أن يغش نفسه باعتماده على غيره في أثناء الدراسة فإنه سيأتي يوم الامتحان ولا يستطيع الغش فتكون النتيجة الرسوب والفشل.

٢- إذا أنشأتَ محلا تجاريا أو مصنعا وأشرفت على إدارة مصنعك تصبح من الأثرياء.

أما لو كلفت موظفا بإدارة هذا المحل أو المصنع واعتمدتَ عليه في تنظيم شؤونه اعتمادا كليا فلن يلبث المحل أن يختل نظامه ويعلن إفلاسه.

٣- إذا شعر إنسان بألم في مكان بجسمه وطلب إلى إنسان آخر أن يضع يده على موضع الألم فلن يعرف موضع الألم بالضبط.

«ما حك جلدك مثل ظفرك فتولَّ أنت جميع أمرك»

من هذه الأمثلة وغيرها يتبين لنا أن من أراد التفوق والنجاح في أعماله فليعتمد على الله ثم على نفسه ومعنى الاعتماد على النفس «أن تقوم بنفسك بالأعمال التي تخصك وأن تشرف على أداء مصالحك وتدبير شؤونك ولا تعتمد فيها على أحد ما دام ذلك في استطاعتك».

وحينئذ يكون عملك قد تم على النحو الذي تريده وقد عرفت تكاليفه بالضبط وقد استفدت منه خبرة ودراية يساعدانك على إتقانه فضلا عن السرور الذي تشعر به عند إنجاز عملك بنفسك وإتمامه وترتفع قيمة العمل في نظرك وتحافظ عليه ولا

تفرط بسهولة في الربح الذي يأتيك منه لأن المال الذي تجمعه بجهدك وَكَدِّكَ، وكدك يكون أكثر قيمة من مال ورثته عن أبويك فالاعتماد على النفس أساس كل فضيلة ومصدر كل خير لأنه يستلزم الجد والسعي وقوة العزيمة وعدم التواكل ويعودك على الاستقلال والقيام بأعباء الحياة ويكسبك خبرة ومهارة في هذا العمل وهو السر في نجاح الإنسان وسعادته وعليه يقوم رقي الأمم وحضارتها.

ولولا الاعتماد على النفس وقوة الثقة بالله وبها لما فتح الخليفة عمر بن الخطاب بجيش قليل العدد دولتي فارس والروم، وقد كانتا من أعظم الدول في ذلك الحين.

وبالاعتماد على الله ثم على النفس اندفع البطل طارق بن زياد إلى غزو بلاد الأندلس بجيش قليل العَدد والعُدد.

وهكذا شأن عظماء الرجال من المخترعين والكشفيين والمفكرين كانوا جميعا من العصاميين الذين اعتمدوا على أنفسهم وتغلبوا على عقباتهم بأنفسهم وتعلموا من تجاربهم حتى وصلوا إلى النجاح والتفوق والشهرة والأمثلة على ذلك كثيرة وحسبك أن تعلم أن أبا حنيفة وهو من هو في علمه وفضله وفقهه كان في بدء حياته بزازا وأن الحجاج بن يوسف قائد وداهية بني أمية كان معلم صبيان في كتَّاب بالطائف، وأن عمرو بن محمد الجاحظ كان بائع سمك وأن أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبي كان ابن سقاء، ومئات غيرهم من الشرقيين والغربيين لم تقعدهم الظروف الخاصة ولا الفقر ولا الحاجة ولا ضعة الأصل عن أن ينهضوا ويتسلحوا بسلاح العزم والإقدام والثبات ويشقوا طريقهم حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من مجد وعظمه أما من يتواكلون ويعتمدون على غيرهم يدفعهم إلى ذلك الكسل وإيثار الراحة وضعف الإرادة وعدم الثقة في نفوسهم والجهل والخوف من صعوبة العمل ومشاقه فمصيرهم الفشل في جميع أمورهم والإخفاق في سائر أعمالهم لأن الحياة ليست لضعاف النفوس والمتواكلين.

وإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول في الدنيا على رجل

وليس معنى الاعتماد على النفس في حقيقته غير الاعتماد على الله لأنه مصدر كل قوة وهو الذي يهدينا إلى ما فيه الخير والسعادة.

فاختر لنفسك ما تحب من طريق الفشل في الاعتماد على الغير، أو طريق النجاح في الاعتماد على نفسك ﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة**﴾ صدق الله العظيم.

الواجب مطلقا «هو صوت الضمير الذي يلزم صاحبه ما يفترضه عليه الحق وتقتضيه العدالة دون انتظار لما يجره إليه ذلك العمل من نفع أو ضرر أو لذة أو ألم».

مثال ذلك «الإحسان إلى رجل فقير معدم» فالإحسان إليه عمل أخلاقي صدر عن ضمير حي وعاطفة نبيلة إذا كان الغرض منه إراحة النفس من الألم الذي شعرت به نحو هذا الفقير، لا طمعا في ثواب ولا خوفا من عقاب، ولكن لأنه واجب فقط.

والواجب يختلف باختلاف طبقات الناس فواجب الغني غير واجب الفقير وواجب الصانع غير واجب الزارع وواجب القاضي غير واجب العالم ولكن قيمة الواجب من حيث هو واحدة، فمن قام بواجبه المفروض عليه ولو كان هذا الواجب صغيرا فقد استحق أطيب الثناء لأنه أدى خدمة جلية لوطنه وأمّته، لأن رقي الأمم وتقدمها بمقدار رقي هذه الفضيلة عند بنيها «فضيلة حب وأداء الواجب».

ومتى قام كل فرد في الأمّة بواجبه ضعف الخلاف بين أفراد هذه الأمّة وقويت الروابط بين الطبقة واختها.. ومتى التقت طبقات الأمّة في أمن وسلام فهي واصلة إلى غايتها وهي السعادة والعز والمجد.

وأداء الواجب أمر لا مفر منه لأي إنسان، وأحسن صوره أن تقوم به طوعا لا كرها، وأن تؤديه كاملا غير منقوص، يدفعك إلى ذلك دافع ينبعث من ضميرك الذي جعله الله نورا يهديك إلى بر السلام، حبًا في الواجب وإرضاء لله تعالى ولضميرك لا طمعا في مال تصيبه ولا رغبة في سمعة تحصل عليها.

ولنا في الأنبياء - عليهم السلام - أسوة حسنة وقدوة طيبة في أداء الواجب لذاته.

لننظر مثلا إلى سيدنا موسى - عليه السلام - حينما أسدى إلى بنتي الشيخ الكبير معروفا (بأن سقى لهما غنمهما) ليوفر عليهما مشقة نزح الماء من البئر والتزاحم في وسط القوم.

هل كان يرمي من وراء عمله هذا منفعة؟ لا.

لقد دعاه ذلك الشيخ ليجزيه على عمله خيرا فقدم إليه طعاما ليأكله فأبى وقال له: «نحن أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنًا نقوم بالواجب طاعة لله وحبا في الواجب».

الأدب السعودي والذيوع

أردت ذات مرة أن أكتب بحثا يتصل بالشعر في المملكة فرجعت إلى مكتبتي أبحث عن دواوين شعرائنا فما وجدت فيها غير جزء يسير منها رغم أنني من المهتمين بجمع الكتب، وتكوين مكتبة متكاملة.

ولذلك أنحيت علي نفسي باللائمة واعتبرت نفسي مقصرا تجاه المؤلفات السعودية، وتساءلت: لماذا لم أشترِ منها عددا كافيا؟ وكان علي لا بد أن ألتمس بغيتي عند المكتبيين، وأتدارك خطئي بشراء كل مؤلف سعودي تقع عيني عليه عندهم، ولشد ما كانت خيبتي شديدة، حين لم أجد من تلك المؤلفات ما يطفئ ظمأ أو يشفي غليلا، لم أجد غير كتاب أو كتابين لا صلة لهما بموضوع بحثي، ولكنني اشتريتهما عملا بمذهبي الذي صممت عليه، وهو شراء كل مؤلف سعودي مهما كان موضوعه، ثم طرأت على ذهني فكرة حسبت أن عندها الحل لمشكلتي فقمت بزيارة بعض المكتبات العامة، ومن المؤسف - أنني لم أجد فيها أيضا ما يغنيني في موضوعي، فقلت في نفسي لعل كتّابنا وأدباءنا ينهجون في نشر كتبهم منهج بعض الدول الحديثة التي تعيش في شراهة للعملة الصعبة فتعمد إلى بعض منتجاتها الهامة التي يحتاجها أفراد شعبها فتصدرها خارج البلاد وتبيعها لدول أخرى فيكتب اسمها في كتب الجغرافيا ضمن الدول المصدرة، وتتوفر لها العملة الصعبة ويجوع شعبها، فجعلت أردد قول الشاعر القديم:

كالعيس في الصحراء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

ولكن بعد المتابعة الشخصية لهذا الموضوع وجدت أن المؤلفات السعودية المعروضة للبيع في دكاكين المكتبيين بالبلاد العربية قليلة جدا وتصل إلى حد الندرة.. وإن عجبي لحد الآن لم ينته من هذه الظاهرة!.

هل الأمر عائد إلى قلة عدد النسخ المطبوعة؟ أو إلى عدم إقبال القراء على مؤلفاتنا فلذلك لا يتاجر فيها المكتبيون؟ أو هو راجع لسوء التوزيع من الجهة الناشرة؟ إن التأثير الأكبر - فيما يبدو لي - يرجع للافتراض الأخير فالمؤلف السعودي يفتقر بحق إلى دور نشر تتحمل مسؤولياتها الوطنية والتاريخية والثقافية فتجمع بين الربح المادي وأداء الواجب، وفي تجربة لنا مع بعض المطابع وجدنا أن سعر طبع الكتاب في الداخل يصل إلى ثلاثة أمثال طبعه في إحدى البلاد العربية مع الاختلاف في الجودة والإخراج أحيانا وهذه عقبة أخرى في وجه الكتاب السعودي، فحبذا لو خفضت هذه المطابع أسعارها واكتفت بالربح المعقول بدلا من هذا الربح الخيالي، لتسهم بذلك في البناء الثقافي لهذا البلد الكريم وتسهل خروج الكتاب ووصوله إلى أيدي القراء.

إن الأدب السعودي من خلال معايشتي الطويلة له يحمل في داخله كل عناصر الشهرة والذيوع، وهو لا يقل في مستواه عن مستوى الأدب في أي مكان آخر، وهو قادر على شق طريقه إذا ما أتيحت له الفرصة وأزيلت من طريقه العقبات، فكم من كلام فارغ يصلنا في شكل كتب من خارج البلاد فنسارع إلى اقتنائها وقراءتها.

إن الأدب السعودي أدب مظلوم بين أهله وذويه وذلك بالإعراض عنه، والتطلع إلى غيره، لا لعيب فيه ولا لنقص في مستواه، ولكنها عقدة الاستيراد وعدم الإيمان بالذات، ومظلوم من المطابع الداخلية بفرضها الأسعار الباهظة التي تجعل الأديب يحجم عن نشر إنتاجه، أو ترغمه على وضع سعر مرتفع للكتاب يصد الناس عن شرائه، ومظلوم مرة أخرى لعدم وجود دار نشر قادرة على إيصاله إلى كل مكتبة في

مدننا وقرانا الكبيرة ولولا التشجيع الذي يلقاه من الحكومة في صورة إيعاز للوزارات والجهات المسؤولة بشراء كميات مناسبة من مطبوعات الأدباء - أقول لولا مثل هذا التشجيع لما تجرأ أحد على المجازفة بطبع إنتاجه، على أن هذه التشجيعات خاضعة للارتفاع والانخفاض، حسب قدرة المؤلف على الدبلوماسية والإقناع.. فمتى يظفر الكتاب السعودي بحظ أوفر، فيصل إلى الأسواق وينتشر في الآفاق ويمضي في طريق الحياة والخلود؟..

المؤتمرات الأدبية وأثرها في تحريك الأدب

المؤتمرات لقاء وتفاعل واحتكاك، وهي نقاش وتبادل آراء وتلاقح أفكار وفي ذلك الخير كل الخير، والعطاء كل العطاء، ولعل الإحساس لهذا المفهوم للمؤتمرات والإيمان بعطائها هو الذي جعل بلادنا العزيزة تفتح ذراعيها لكثير من المؤتمرات وتنفق عليها بسخاء.

والمتتبع لهذه الظاهرة يلحظ أن كل تلك المؤتمرات تحمل الطابع الإسلامي العربي وذلك يعطي مفهوما واضحا لسلوك قادة هذه الأمّة الكريمة ورعاتها، إنهم يحركون العالم الإسلامي كله ويضعونه أمام مسؤولياته مباشرة.

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾.

وقد اتخذت هذه المؤتمرات مسارها الصحيح حينما تبنت فكرتها جامعاتنا الفتية بأسلوب أكاديمي ناجح ترك وراءه عديدا من البحوث القيمة والعلامات الهادية، مما يمكن أن نعده ثروة في بابه ومرجعا شاملا مستقصيا في موضوعه، وسيكون له أثره الطيب الملموس في توجيه البلاد الإسلامية وعطف عنانها إلى الطريق الأمثل والسبيل القويم.

وقد تبنت جامعة الملك عبدالعزيز عام ١٣٩٤هـ فكرة عقد مؤتمر للأدباء السعوديين، وتم انعقاده بالفعل لمدة خمسة أيام متوالية في مكة المكرمة، وكان مؤتمرا ناجحا بحق، أحسّ فيه كثير من أدبائنا بأهميتهم وبعث الأمل في قيام نهضة أدبية مسؤولة، وكان من أكبر ثمار ذلك المؤتمر إيمان المسؤولين في رعاية الشباب وعلى

رأسهم الأمير الأديب الشاب سمو الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز بضرورة تكوين النوادي الأدبية.

وتلك النوادي بدأت تؤتي ثمارها بحمد الله في أساليب مختلفة وهي وإن كانت في الواقع لا تزال في بداية الطريق إلا أنه ينطبق عليها قول الشاعر العربي القديم:

وإذا رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

ووعد أحد المسؤولين في جامعة الرياض أثناء المؤتمر - على ما أذكر - بأن كلية الآداب بالجامعة ستتبنى مثل هذه الفكرة وتعلن في وقت لاحق عن انعقاد المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين في أروقها بالرياض، وصفق الحاضرون لتلك البشرى، وترقبوا الإعلان عن الدعوة للمؤتمر بلهفة وتطلع، ولكن يبدو أن الحماس الذي ألقيت به الفكرة غطى على واقع المسؤولية وظروفها(١).

ونحن لا نريد هنا أن ننحو باللائمة على أحد، فمعاذ الله أن نضع أنفسنا هذا الموضع، وإنما نريد أن نبدي استحساننا لفكرة اللقاءات الأدبية في أي أسلوب تسمح به الظروف المختلفة.

واقترح أن يتخذ من النوادي الأدبية القائمة نواة لمثل هذه اللقاءات، فتعقد الجهة المسؤولة على النوادي في رعاية الشباب ملتقى أدبيا يحضره كل الأعضاء المؤسسين للنوادي وتقدم في هذا الملتقى بعض الأمسيات الشعرية وبعض المحاضرات والبحوث، كما تناقش فيه المواضيع التي تشغل بال النوادي وتوضع الحلول المناسبة لها من واقع خطط رعاية الشباب ومتطلبات النوادي وطموحاتها.. ولعل هذه الفكرة تكون

(١) تبنت جامعة أم القرى بمكة المكرمة إقامة المؤتمر الثاني للأدباء، وقد افتتح هذا المؤتمر في رحاب الجامعة تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب في ٥ من شهر شوال ١٤١٩هـ، وكان ناجحاً، وقد صدرت عنه مجموعة من التوصيات الهامة.

وتمت الموافقة بتبني نادي جدة الأدبي الثقافي إقامة المؤتمر الثالث للأدباء وقد وجه النادي دعوات لبعض الأدباء والمفكرين لعقد اجتماع «مشورة» في ١٥ من شهر رمضان ١٤١٩هـ لوضع التصورات التي سيقوم عليها المؤتمر.

من الوسائل الكفيلة لبعث الحياة في النوادي الأدبية المتهمة بالخمول كما تزيد من حماس النوادي العاملة.

واقتراح آخر أيضا في هذا الصدد أعتقد أنه ذو علاقة وثيقة بالموضوع وهو تعيين لجنة محايدة من الأدباء والأكاديميين لتقويم ما تصدره النوادي الأدبية من كتب والحكم عليها بما يضعها في مكانها اللائق ليكون ذلك دافعا للنوادي على الوصول إلى الأفضل، والخير. مما يصدر عنها من إنتاج، اذ ليست العبرة في نظرنا بالكم بمقدار ما هي بالكيف.

إن اللقاءات الأدبية من أكبر العوامل المحركة للأدب ومن أكبر مطايا نهوضه، وإن لقاء النوادي على الوجه الذي ذكرته هو وجه صالح لتلك اللقاءات فعسى أن تتم في وقت قريب إن شاء الله..

النوادي الأدبية بين العاملين عليها والحاملين عليها

من الأيادي الكريمة البرة للرئاسة العامة لرعاية الشباب في ميدان الأدب والثقافة: انشاؤها النوادي الأدبية ورعايتها والحدب عليها، وقلما اهتمت دولة في العالم بالنوادي الأدبية وإنشائها بمثل هذه الدرجة من الاهتمام، ولانزال مع ذلك نطمع بالمزيد.

لقد أراد المسؤولون بهذه النوادي أن يعبروا للفئة المثقفة من الأمّة عن مدى تقديرهم للفكر والثقافة والأدب، إنهم لا يكتفون بمجرد الإذن للأدباء بافتتاحها والتصريح بإنشائها بل يدعمونها بالمعونات المادية السخية ويشجعونها ويشدون على يد العاملين فيها ويتابعون إنتاجهم فيثيبون العاملين ويوجهون المقصر.

وفي رأيي أنه رغم المدة القصيرة التي مرت على إنشاء هذه النوادي فإن بعضها استطاع أن يحقق بعض الآمال المعقودة عليه، ويقوم ببعض الأعباء المنوطة به، قدمت هذه النوادي - ومنها نادي المدينة المنورة الأدبي - العديد من المحاضرات القيمة لأساتذة جامعيين من داخل البلاد وخارجها مما جعل البيئة الثقافية تنتعش بعض انتعاش، وإذا كان بعض الحاملين على النوادي يستنقصون حقها في هذا المضمار ولا يطيقون الاعتراف به فإن ذلك راجع في نظري إلى أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء الحضور لهذه المحاضرات وبالتالي فإنه لم يكن في إمكانهم تقويمها التقويم السليم.

ولم تقتصر جهود النوادي على إقامة المحاضرات كما ادعى أحد كتّاب صحفنا منذ أيام، بل أقامت الندوات المغلقة والمفتوحة والأمسيات الشعرية الناجحة، وعقدت المسابقات بين الشباب في الشعر والقصة كما أقامت الحفلات التمثيلية الناجحة التي شدت إليها الجماهير المسرحية. وأقنعتهم بما يمكن أن تقدمه هذه النوادي في هذا المجال إذا ما ظلت مدعومة حاصلة على مزيد من التأييد.

ثم قامت أيضا بنشر العديد من الكتب الأدبية شعرا ونثرا، بحثا وقصة، بل إن نادي المدينة المنورة الأدبي زاد على هذا فأقام معرضا للفنون التشكيلية ذهب مضرب الأمثال، فما الذي كانت تستطيع أن تقوم به هذه النوادي بإمكاناتها البشرية والمادية المتوفرة لها الآن ولم تقم به؟ نعم لم تطبع مجلة[1] ولم تقم بتأسيس دار للنشر والتوزيع كما قال أحد الكرام من الصحفيين، ولكن تأسيس دور النشر - في نظري - ليس مكانه الأندية الأدبية بل هو موضوع متروك لرجال التجارة والأعمال والمتفرغين لاستغلال أموالهم.. ويشهد الله كم نتمنى أن تقوم في بلادنا دور حيوية للنشر والتوزيع داخل البلاد وخارجها ولا تجعل من همّها الكسب المادي فحسب بل تضطلع بمسؤوليتها تجاه أمّتها وتجاه تراثها.

ولعل من أهم ما تعاني منه الأندية الأدبية هو فقدانها لمثل هذه الدور، إن طبع أصغر كتاب يكلف النادي ثلاثين ألف ريال، مع ملاحظة روح المغامرة في طبعه، فقد لا يروج في الأسواق وخاصة إذا وضعت الأندية في اعتبارها تشجيع ناشئة الأدب والشادين فيه، وكم سيكون سعر النسخة من الكتاب؟ إذا كان إجمالي مصاريفه ثلاثين ألف ريال.

(١) كان هذا وقت نشر المقال، والآن أصبح للنوادي الأدبية المنتشرة في المملكة دورياتها المميزة منها على سبيل المثال (البلد الأمين، نادي مكة المكرمة)، (علامات. عبقر. نوافذ. نادي جدة)، (العقيق. الآطام. نادي المدينة المنورة)، (الأدبية. قوافل. نادي الرياض)، (بيادر. نادي أبها)، (دارين. نادي المنطقة الشرقية)، (ملف الطائف. نادي الطائف)، (رؤى. نادي حائل)، (المنتدى. نادي الباحة)، (المختار. نادي القصيم)، مرافئ. نادي جازان)، (أفنان. نادي تبوك).

إن النادي في مثل هذه الحالة مضطر للتضحية بجزء كبير من ميزانيته التي تنتظرها أبواب أخرى للصرف لكي يتمكن من إخراج بعض الكتب للناس.

ويؤسفني أن أقول إن أكثر الحاملين على النوادي الأدبية هم قوم أبعد ما يكونون عن النوادي، فهم لم يزوروها ولم يتعرفوا على نشاطها وبالأحرى لم يفكروا في الانضمام إليها لتستفيد من أفكارهم وخبراتهم في المحيط العملي والتطبيقي، فشتان بين النظريات وتطبيق النظريات.

وبودي أن أطمئن الزملاء الحاملين على النوادي بأن أخوتهم العاملين عليها يسيرون بحمد الله بخطى وإن بدت وئيدة إلا أنها خطى راسخة محددة الأهداف واضحة الغايات لا عوج فيها ولا أمتا وكل أملهم أن يلتقوا معهم على الطريق.

بين الكفاءات والشهادات

حضرت ذات مرة نقاشا طويلا عريضا احمرت له الوجوه وانتفخت الأوداج، بدأ في أول الأمر رقيقا هادئا، ثم بدأت درجة حرارته ترتفع حتى تحول إلى زعيق وصراخ، وما أضيع الحقيقة في خضم الأصوات المرتفعة والصراخ والصخب.

كان الموضوع يدور حول ما إذا كان الأفضل للعمل أداء، وللحياة ثقافة: أصحاب الكفاءات القائمة على الخبرة الطويلة أم أصحاب الشهادات من بكلوريوسات وماجستيرات وإجازات الدكتوراة؟ هو سؤال جيد بلا شك، يدعو إلى التأمل والتفكير والتدبر ومراجعة كشوف الحسابات.

إن في بلادنا كثيرا من أصحاب الكفاءات وكثيرا من المؤهلين بالشهادات.. فمن منهم - في نظري - كان أكثر إنتاجا وفعالية، أعتبرناه الأفضل - ومن اقتصر على التهويش والادعاءات غادرناه ورثينا لحاله، وفي رأيي أن الشهادة إنما جعلت وثيقة في يد صاحبها تثبت أنه درس من العلوم كذا وكذا وعلى المستوى الفلاني.

وقد كان القدماء من أسلافنا يجيز بعضهم بعضا في العلوم الشرعية واللسانية والعقلية ويعطي المدرس تلميذه وثيقة تثبت أنه درس عليه موطأ مالك أو صحيح البخاري أو كتاب سيبويه أو منطق أرسطو ونحو ذلك، ولكن القضية التي نواجهها هي هل هذه الوثيقة هي كل شيء؟

أعجبتني إجابة علمية من الأسلاف - كان العالم ينتقل من المغرب أو الأندلس إلى مصر، أو من الشام إلى العراق أو الحجاز وليس معه سوى بضع صحف في خرجه، يؤيدها عقل واعٍ وذهن متوقد وعلم راسخ فيجتمع بزملائه من العلماء فلا يفسحون

له بينهم مجلسا ولا يعترفون بشخصيته العلمية إلا إذا كانت له مؤلفات معروفة سبقت رحلته بل لا بد من عقد مجلس علمي عام له، يتناقشون فيه معه ويتناظرون ليبرهن من خلاله على أحقيته وجدارته بلقب العالم الذي يؤخذ عنه العلم، ويعد من مصاف العلماء، ذلك موقف رائع نظروا فيه إلى الكفاءة والخبرة قبل الإجازة والمظهر.

وأعجبني موقف آخر كانت تنتهجه هيئة التدريس في الحرمين الشريفين إلى عهد قريب يأتي بعض العلماء من البلاد الإسلامية أو من داخل البلاد ويستقرون في مكة أو المدينة ويتطلع بعضهم إلى أن يتصدى للتدريس في المسجد للعامة أو الخاصة فلا يسمح له إلا بعد الاجتماع بالهيئة العلمية المسؤولة التي تأذن له بعد التمحيص والنقاش بالتدريس ولو لم يكن يحمل في يده وثائق دراسية. وإن أثبتت المقابلة العلمية عدم كفاءته لا يسمح له بمباشرة التدريس ولو جاء بأجمل الشهادات حجما وتنميقا.

وقد أثبتت التجارب الواقعية أيضا أن الشهادات والوثائق ليست هي كل شيء وإن طول المكث في الوظيفة وطول الممارسة ليس هو كل شيء، فكم من صاحب شهادة لا تساوي معلوماته المداد الذي كتبت به، وكم من موظف عاش في وظيفته السنين الطويلة وخرج منها كما دخل لم يستفد خبرة، ولم تَنْمُ لديه معلومات ولا تكونت لديه كفاءة خاصة.

إذن يجب أن تكون النظرة موجهة للكفاءة والتحصيل وحدهما بغض النظر عن الشهادة التي يحملها ومستواها وبغض النظر عن طول المدة التي قضاها في مجاله. إن الكفاءة وحدها هي القادرة على العطاء والإبداع والخدمة والابتكار.. وأصحاب الكفاءات وحدهم هم الذين ينبغي أن يُفسح لهم المجال ليحتلوا مكانتهم اللائقة بهم حتى لا يقطع عليهم الآخرون الطريق وحتى يمكن أن يفيدوا الفائدة المرجوة ويحققوا الأمل المنشود إن شاء الله...

لقاء كل أسبوع (*)

التدخين والدخان وكل مشتقات دخن.. مرض من أمراض هذا العصر ابتليت به الإنسانية واستفحل شره وعظم ضرره ولكنه لا يزداد إلا انتشارا وتغلغلا في المجتمعات على اختلاف ألوانها.

وأعجب ما في الأمر هو هذا الإجماع من كل البيئات وكافة الطبقات على شره وضره فلم اسمع احدا ذكره بالخير ولم اقرأ موضوعا يتحدث عن فوائده او يدافع عن مزاياه بل انك لا تجلس في مجلس إلا سمعت عبارات التذمر والسخط منه، ومع ذلك فحبُّه يتغلغل في أفئدة الناس ولا يمر يوم إلا ازداد رواجه وانتشاره فما سر ذلك؟ وكيف يمكن تعليل هذا الوضع العجيب؟ ذلك شيء لا أدريه فعلمه عند الله ثم عند شركات الدخان المنتشرة في العالم.

ولست أعرف تاريخ بداية التدخين ولا كيف توصل الناس إلى استخدامه بكافة الطرق التي يستعملونه بها ولا بد أنها بداية مثيرة ولا بد أن لرائد الشر الأول إبليس يدا كبيرة في تحسينه للناس وتزيينه لهم.

والدخان كما هو معروف من الوسائل المؤذية للجسم تؤثر فيه تأثيرا بالغا ولذلك ينصح العلماء والأطباء أبناء المدن التي تكثر فيها المصانع بأن يكثرو من الرياضة وان يخرجوا بين آونة وأخرى إلى المناطق الخلوية لاستنشاق هوائها النقي حتى

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨١/١٠/٦هـ الموافق ١٩٦٢/٣/١٣م العدد (١٠٤).

يتخلص الجسم والرئتان من الآثار الضارة لهذا الدخان وحتى لا يتشبع الجسم بسمومه فتضعف مقاومته.

ومع هذا فإن الدخان أو التبغ يزداد انتشاره يوما بعد يوم والدخان من وسائل التدمير والفتك والعذاب كما ورد في كتاب الله قول الله تعالى ﴿**بل هم في شك يلعبون فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم**﴾.

وقد كتب جنرال فرنسي قذر متبجح إلى أحد أصدقائه يفخر بأنه ارتكب جريمة إنسانية لا يقدم عليها إلا ذئب بشري، تجرّد من البشرية وأصبح لا يهمه إلا أن يلغ في الدماء.

كتب هذا النذل الوقح الذي تستطيع أن تضعه في صف واحد مع أقذر الحيوانات وأحطمها وأبشعها وأنت مطمئن مرتاح الضمير.

كتب هذا الجنرال لصديقه مباهيا بأنه أرغم إحدى القبائل العربية الفاضلة في الجزائر الباسلة المكافحة إلى الالتجاء إلى إحدى المغارات الكبيرة برجالها ونسائها وأطفالها وماشيتها ودوابها ثم أطلق عليهم سيلا من الدخان وأغلق عليهم المغارة.

وكانت النتيجة «باهرة» تليق بعظمة هذا الجنرال «الحقير» فقد أفنى هذه القبيلة الفاضلة عن آخرها، ولم يدع فيها ولا في دوابها نسمة تتحرك.. صفقوا معي لهذه البطولة الفرنسية الزائفة وسجلوا هذه الوصمة في تاريخ فرنسا وشرف فرنسا دولة الإخاء والحرية والمساواة!.

ولست أدري كيف يطيق الناس هذا الدخان وهو لا شك في أنه مؤذٍ للصدر مسود للرئتين مضعف لأجهزة القلب.

ومن الغريب ما لاحظته من أن كثيرا من المدخنين لا يطيب لهم التدخين إلا في الأماكن المزدحمة التي يوشك فيها الإنسان أن يختنق كالأتوبيسات والشوارع المزدحمة أيام الاحتفالات والمصاعد الكهربائية وغيرها ولم أستطع تفسيرا لهذه التصرفات الغريبة من جانب المدخنين.

على أن هناك طائفة من المدخنين وهم الذين يستعملون النرجيلات ولهؤلاء أيضا أوضاعهم الخاصة ومضايقاتهم الخاصة عندما يزورون صديقا أو يدعون إلى دعوة فهم يحرجون صاحب المنزل وخاصة إذا لم يكن من المدخنين ويضطرونه إلى تحمل مضايقات كثيرة كان في استطاعتهم إعفاؤه منها.

أما عن الحوادث الناشئة عن سقوط سيجارة أو عقب أو شرارة فهي حوادث لا يحصيها التعداد، وقد أصبح من المناظر المألوفة أن تجد لوحات صغيرة كتب عليها «التدخين ممنوع» في كثير من الأماكن بعد أن ذاق الناس ويلات هذا التدخين.

أذكر في هذه الخواطر الكلمة التي قالها الجراح العالمي رونالد ريفين الذي كان يزور الرياض في الشهر الماضي والمتخصص في مرض السرطان فقد قال ينصح سكان هذه البلاد في عدد البلاد الصادر في ٨١/٦/٢٥ «إنني أود في تقديم نصيحتي هنا - حول التدخين - بحيث يحتفظون بأجسام أكثر صحة إذا ما اتبعوها إذ يجب الإقلاع عن عادة التدخين في سائر أقطار العالم نظرا لوجود ترابط هام بين تدخين التبغ ونمو سرطان الرئة، ولتفويت الفرصة على حصول هذا المرض الخطير يجب على الناس ألا يدخنوا التبغ، ومن المهم ألا يعلّم الكبار التدخين للصغار، وبالإضافة إلى سرطان الرئة فإن لتدخين التبغ آثارا أخرى ضارة على أعضاء الجسم.

نعم يا دكتور ريفين من المهم جدا ألا يعلّم الكبار التدخين للصغار.

فان من أهم أسباب انتشار التدخين هو تعليم الكبار الصغار سواء اكان تعليما مباشرا كما يفعل بعض الذين يريدون التحلل من كل القيود فيعلمون أبناءهم التدخين وأشياء أخرى أو على الأقل يتغاضون عنهم عندما يرونهم يدخنون وكما يفعل بعض من لا خلاق لهم حين يتصلون بالأطفال لأغراض سيئة فيحاولون السيطرة عليهم بتعويدهم على التدخين وغير التدخين من الأمور التي تجعلهم أسرى لهذه العادات فيضطرون إلى الالتجاء لهؤلاء الأشرار والبقية معروفة.

أما التعليم غير المباشر فهو رؤية الصغير أباه وأخاه الكبير أو مدرّسه يدخنون ومن الغريب أن بعض الآباء والأمهات والمدرسين يمنعون أبناءهم وتلاميذهم من التدخين في الوقت الذي يمارسون هم فيه هذه العادة جهرة وعلى رؤوس الأشهاد، وأية قيمة لهذا المنع وكيف يقتنع الطفل بأن التدخين عادة قبيحة وأن الدخان شيء ضار وهو يرى بعينه الكبار والقدوة يمارسون هذه العادة باندفاع وشراهة.

تذكروا أيها الآباء والأمهات والمدرسون دائما قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

أما علاقة التدخين بالسرطان وهي التي أشار اليها الدكتور ريفين فقد أصبحت حقيقة علمية وإن كانت شركات الدخان الكبيرة قد قامت بجهود ضخمة في تكذيب هذه الحقيقة أو سترها وبذلت الكثير من الأموال في سبيل ذلك وهذه الشركات واثقة مع ذلك من سلطان هذه العادة على النفوس وأن التخلص منها بعد الوقوع فيها أمر بعيد المنال لا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال.

وبعد كتابة ما تقدم، رجعت إلى بعض المصادر في مكتبتي فعلمت منها أن التبغ ويعرف بالطباق أو الدخان «نبات من العائلة الباذنجانية موطنه الأصلي أمريكا عرف لأول مرة في جزر الهند الغربية عند اكتشاف كولمبس لها ومنها انتقل إلى أوربا وانتشرت زراعته في البلاد الأخرى.

فالتبغ إذًا إحدى الرذائل التي قدمتها «الدنيا الجديدة» هدية للعالم وبذلت كل ما لديها من فنون الدعاية والاغراء للترويج له وقد نجحت في ذلك نجاحا لا يكاد يعادله نجاح.

على أن امرا جديرا بالذكر تعرضت له بعض هذه المصادر وهو أن الدخان «لقي في أول مرة تحريما في المملكة العثمانية وكانوا يعاملونه معاملة الخمر ومن هنا جاءت عبارة «شرب سيجارة».

تُرى لو استمر هذا التحريم وتضافرت كل الجهود لمحاربته والقضاء عليه أفما كان ذلك أجدى على الناس وأنفع لهم.

ثم هل ابتعد الذين قرروا هذا التحريم عن الحقيقة؟ لا اعتقد ذلك.

فأضراره واضحة يعرفها الصغير والكبير أما منافعه ومزاياه فلا يعرفها أحد لانه مجرد من المنافع والمزايا.

تُرى هل أنا بحاجة بعد هذا إلى أن أعتذر لأصدقائي أم أن أصدقائي سيسخرون من كلامي هذا ويهزون رؤوسهم استخفافا «ويمصمصون» شفاههم رثاء لي وإشفاقا عليَّ لانني حُرمت متعة لا يستهان بها.

ومن جهل شيئا عاداه كما تقول الحكمة القديمة.

على أن هذا يذكرني بتلك القصة التي تقول إن رجلين التقيا في إحدى المركبات العامة وكان احدهما يدخن بشراهة والآخر لا يدخن إطلاقا، فالتفت الذي لا يدخن إلى الرجل الآخر وسأله بشيء من الاستخفاف منذ متى تدخن فأجاب منذ ثلاثين سنة فأبدى الرجل دهشته وسأله كم سيجارة تدخن في اليوم فقال له مائة سيجارة فأخذ الرجل الذي لا يدخن يقوم بعملية حسابية انتهى منها إلى أن الرجل المدخن لو جمع المبالغ التي صرفها على التدخين لاستطاع أن يشتري بها عمارة كبيرة ضخمة كانت أمامهما.

وعند ذلك انتقل السائل مسؤولا فقال له الرجل المدخن وهل أنت تدخن فأجاب بتأفف كلا كلا فقال له وهل تملك أنت تلك العمارة فقال لا فأجاب الرجل المدخن ولكنني أنا مالكها!!.

مع الأيام

بلدية المدينة:

في بلدية المدينة نشاط واضح ملموس يتجلى في هذه التنظيمات الواسعة النطاق في طول المدينة وعرضها وفي هذه المشاريع القائمة هنا وهناك.

وبلدية المدينه تعمل ليل نهار، لقد اصبح من المناظر المألوفة ان تجد البلدية مفتوحة في النهار وفي قسم كبير من الليل وان تجد رئيسها ومساعديه منكبين على الاوراق والخرائط ويقرأون ويدرسون ويناقشون.

ان المواطنين ينتظرون الكثير من رئيس البلدية، وان رئاسة بلدية المدينة مسؤولية خطيرة، فالمدينة بتاريخها الطويل العريق وبأثرها في نفوس المؤمنين وبانها واجهة عريضة في مملكتنا الفتية تستقبل الملايين من المسلمين، انها بكل هذا تستدعي من رئيس بلديتها جهدا لا يطيقه إلا اعاظم الرجال.

وقد اثبت السيد علي حافظ انه أهل لتحمل المسؤولية الخطيرة، وإذا كان هناك عقبات او معوقات فقد زالت هذه العقبات والمعوقات وحل محلها مسؤوليات مضاعفة بعد تصريح الفيصل العظيم الذي حدد بوضوح نظرة الدولة إلى هذا البلد المقدس وما تعتزم تقديمه له من عظيم المشروعات وكبير الخدمات.

إنني انظر من خلال هذه الكلمات في المدينة فأراها وقد اصبحت في المستقبل القريب كاسمها تماما.

إن اسمها - لو تأملناه - عظيم عظم هذه الدنيا، ولم يَسمِّها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة اعتباطا، فرسول الله اعظم من أن ينطق عن الهوى.

ان كل مدينة في الدنيا مدينة ولكن مدينة الرسول هي «المدينة» الفاضلة التي حلم بها المصلحون والفلاسفة ولم يستطع ان ينقلها من دنيا الاحلام إلى دنيا الحقائق إلا محمد بن عبدالله رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

لقد آن الأوان لأن تستعيد المدينة سيرتها في هذا العهد الزاهر وعلى كل المسؤولين أن يعملوا من أجل ذلك ولكن رئيس البلدية يضطلع بالجزء الأكبر من المسؤولية.

وهو أهل لأن يحقق ظن المواطنين بتأييد قائد الدولة الفيصل العظيم.

رجل عظيم:

لم ألقه قبل الآن إلا لقاء عابرا لم يترك في ذهني من سماته وملامحه إلا صورة باهته.

رغم ان سمعته وشهرته في كل مكان، فقد كان أحد أعمدة الدولة الكبار.

ومرت سنوات وقرأت في الصحف انه يقوم بمشروع زراعي ضخم وبدأت اتتبع اخبار الرجل بكثير من الاهتمام حتى كان ذات يوم وإذا بصديقي سألني عما إذا كنت أرغب في زيارة المشروع الزراعي الضخم ومعرفة الخطوات التي خطاها ومقابلة الرجل العظيم وصاحب المشروع.

ووجدتني مدفوعا إلى تلبية رغبة صديقي فإن كل مشروع يقوم في بلادي يستأثر بكل انتباهي وانا انظر للرجال الذين ينفذون أي مشروع في بلادي نظرة إكبار وإعجاب وحُبٍّ خاصة بعد ان انصرف أكثر القادرين إلى تحقيق مشروعات في الأقطار الخارجية وتناسوا حقوق وطنهم ولم يحظوا إلا بالثراء العاجل والكسب السريع.

ركبت مع صديقي سيارة انطلقت بنا إلى المنطقة التي يقوم فيها المشروع ووصلنا بعد جهد.

وأحب أن اقف قليلا عند كلمة «جهد».

أحب أن أقف طويلا لا لأستريح ولكن لأرجو الأستاذ السيد علي حافظ رئيس بلدية المدينة ان يعمل شيئا في سبيل تخفيف هذا الجهد.

وهذا العمل الذي اشير إليه واجب وطني لا بد من أدائه لانه سيكون ذا أثر فعال في مضاعفة نجاح المشروع الزراعي الضخم.

ونجاح هذا المشروع وسيلة ضخمة من وسائل نهضة المدينة.

ان المطلوب هو تعبيد الطريق الموصل إلى منطقة المشروع الزراعي الضخم.

اقول تعبيد ولا أريد أن أحدد هذا التعبيد فذلك متروك لامكانيات البلدية ولكن الشيء الذي لا بد من تحديده هو وجوب المبادرة إلى تعبيد الطريق فما يجوز ان يقف الطريق عقبة في وجه هذا المشروع الزراعي الضخم.

ووصلنا إلى منطقة المشروع وفوجئت بهذه المساحة الضخمة التي زرعت في هذه الفترة القصيرة.

ورأيت الآبار التي حفرت منذ قريب والمياه تتدفق منها بقوة حاملة الحياة إلى الأرض.

ورأيت البركة الضخمة وقنواتها البديعة التي بنيت قبل الف وثلاثمائة سنة والتي تمتد حسب رواية الراوي الذي استقبلنا هناك - ستين كيلو مترا.

ووصلنا أخيراً إلى مخيم الرجل العظيم عبدالله السليمان صاحب المشروع.

واستقبلنا بحفاوة بالغة وأخذ يحدثنا عن مشروعه وعن الخطوات التي تحققت حتى الآن وعن آماله، وعن الخطوات الجديدة التي يعتزم القيام بها، ولم أرَ أمامي شيخا في العقد الثامن من عمره ولكنني رأيت شابا في الروح يتفجر حيويه ونشاطا ويتدفق إخلاصا وحبا ورغبة صادقة في خدمة هذه الأمّة عن طريق مشروعه العظيم واحياء ارض الزبير، وتملكتني الدهشة وانتزع الرجل اعجابي واغمضت عيني قليلًا ثم فتحتها وخُيِّل لي انني ارى الأرض التي امامي وقد اصبحت جنة يتمناها المتمنون.

وركبنا مع عبدالله السليمان سيارته وطاف بنا المزرعة الضخمة وحدّثنا عن انواع «الغروسات» المختلفة وعن الآمال التي يعمل على تحقيقها.

وودعنا الرجل بعد ان الح علينا بالبقاء لتناول العشاء واعتذرنا لارتباطنا بموعد سابق ولم يتركنا إلا بعد ان أخذ منا وعدا مؤكدا بالعودة.

وعدنا وحــــدثـــت لنا مع ابنه أحمد قصة «مزعجة» ربما عرضت لها في فرصة أخرى.

اننا نشد بقوة على يدي الرجل العظيم الذي بذل الكثير من المال في سبيل شعبه وأمّته وندعو له بالصحة وطول العمر ليرى مشروعه الكبير وقد تحقق بالصورة التي يرجو ويؤمل.

مع الأيام

جريدة المدينة:

تعود علاقتي بجريدة المدينة إلى عهد بعيد وعلى وجه التحديد إلى الأيام التي كنت فيها طالبًا بالمدرسة الابتدائية.. وكنت وزملائي - بإرشاد أساتذتنا - نقرأ هذه الجريدة ونستمتع بالمقالات الرائعة التي كان يدبجها أساتذة أعلام أذكر منهم الأستاذين علي وعثمان حافظ والأستاذ أمين مدني والأستاذ محمد زيدان والأستاذ المرحوم الشيخ محمود شويل وأضرابهم.

إشكال طريف بسبب العروبة:

وقد وقع إشكال طريف بيننا - طلبة المدرسة الابتدائية - وبين جريدة المدينة.

وربما كان هذا سرا لم يكشف عنه من قبل.

فقد كتب أحد الكتاب - ولا أذكر اسمه الآن - مقالا انتقد فيه الطلاب الذين كانوا ينصرفون عن دراستهم ليشتغلوا بإصدار مجلات ووجه لومه الشديد لأساتذتهم والمشرفين عليهم لأنهم يشجعونهم - أو على الأقل لا يمنعونهم - من ممارسة هذا العبث الذي لا طائل تحته.

وكان لهذا المقال تأثيره البليغ فقد انزعج مدير مدرستنا واعتقد أنه المعني بهذا المقال وتوقع احتمالات سيئة وأصدر أوامره بمنع صدور هذه المجلات.

وكنا فعلا - كما كان زملاء لنا في المدرسة الأخرى - نشتغل بإصدار مجلة - نصف شهرية - نسجل فيها مقالاتنا وقصائدنا.

وثرنا جميعًا على كاتب المقال وقررنا أن نواصل العمل وأن نرفض تنفيذ الأمر بايقاف العمل فيها.

وفعلًا أصدرنا عددًا جعلنا افتتاحيته قصيدة شعرية هجونا فيها كاتب المقال.

وكانت قافيتها «ظائية» وهو حرف ثقيل وقافية نادرة في الشعر العربي.

ومع الأسف لا أذكر من أبيات هذه القصيدة الطريفة إلا بيتا واحدا هو:

قلتم وقلنا وقال الناس أجمعهم   هذا وذاك لذيذ الشهد والقرظ

كما كتبنا مقالا أو أكثر تحدثنا فيه عن الحسد والمنافسة، إلى آخر هذه الافكار الصبيانية.. وبالتأكيد لم يقرأ كاتب المقال شيئًا مما كتبنا.

كما أننا لم نستطع تحدي الأوامر وخاصة بعد أن تخلى عنا بعض من كنا نعتمد عليهم من أساتذتنا.

ولم نستطع نتيجة لذلك إصدار عدد آخر.. أما مجلتنا فقد كان اسمها «العروبة».

ترى من كان يتصور أن ما كان يسمى عبثا في تلك الأيام أصبح اليوم جزءًا مكملا للدراسة وأصبحت العناية به دليلا على نشاط المدرسة وأصبح له مفتشون مختصون وترصد له مبالغ تعتمدها الجهات المسؤولة في الدولة.

رحم الله مديرنا وغفر له ما تقدم من ذنبه.

ترى لو عاش مديرنا حتى هذه الأيام فماذا سيقول؟ ولم تنقطع صلتي بجريدة «المدينة» حتى في فترة دراستي الجامعية خارج المملكة فلقد كانت أعدادها تصلنا بصورة منتظمة.

أشعة الفجر.. بخمسة ريالات:

وعندما عدت إلى أرض الوطن بعد غياب بضع سنوات نشرت عديدا من المقالات في جريدتنا الحبيبة تحت عنوان «أشعة الفجر» وهي مقالات لم أحتفظ لها بصور عندي ولعل الجريدة أو أحد القراء يتفضل بإرسال الأعداد التي نشرت فيها هذه

المقالات أو نقلها وارسالها الي وأنا على استعداد لدفع خمسة ريالات عن كل مقال من تلك المقالات.

وأرجو ألا يظن ظان أن لهذه المقالات - في رأيي - مكانة غير عادية ولكنني أريد أن أحتفظ بها لأنها تمثل مرحلة من مراحل حياتي الأدبية.

وقد توقفت فترة من الوقت عن الكتابة لأسباب ربما عرضت لها في فرصة أخرى.

ثم عدت إلى الكتابة في العام الماضي فكتبت سلسلة من المقالات تحت عنوان «لقاء».

من هذا يتضح أن العلاقة بيني وبين جريدتنا علاقة قديمة قوية، ومن هنا كان سروري وابتهاجي بهذه الخطوات التقدمية الرائعة التي خطتها جريدتنا وهي خطوات ثابتة تستحق التهنئة الخالصة والشكر العميق.

لقد كتبت جريدتنا في تاريخ نهضتنا الثقافية فصلا قيّمًا ما في ذلك شك، ويوم يكتب تاريخ هذه النهضة فسيكون لجهود علي حافظ وعثمان نصيب كبير من هذا التاريخ.

وجريدتنا اليوم تكتب فصلا جديدا بعد أن انتقلت من صحيفة أسبوعية إلى جريدة يومية.

وكم أود لو أنها أصدرت عددها الفضي ليكون فاصلا بين عهديها السابق واللاحق.

على أن في الإمكان - فيما أتصور - أن تصدره الآن بعد أن توفرت الإمكانيات.

وسيكون - كما أتوقع - عددا ضخما تعتز به صحافتنا.

مع الأستاذ الزيات.. على بئر أريس

وأذكر أنني كنت أزور أديب العربية البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات في القاهرة بصحبة الصديق الأستاذ عبدالفتاح أبي مدين وعندما عرف أنني من المدينة سألني عن السيد علي حافظ ثم سألني عن العدد الممتاز من الجريدة فقلت له أنه لم يصدر بعد، فقال كنت أتصور أنه صدر منذ مدة وكنت أتوقع أن يصلني في الفترة

السابقة ولما طال الانتظار خطر لي أنه فقد في الطريق ولم يخطر لي أنه لم يصدر وكنت كتبت مقالا لينشر في هذا العدد بعنوان «على بئر أريس».

ولما لم يصلني العدد رغم طول الانتظار اعتقدت أنه صدر ولذلك نشرت المقال في مجلة الأزهر وأشرت إلى أنه منقول عن جريدة المدينة. ولكنني فوجئت الآن بما لم يكن في حسباني.. ثم أعطاني ورفيقي عددين من مجلة الأزهر المنشور فيها المقال.

على أنني واثق أنه لم يطلع على هذا العدد إلا قلة نادرة من القراء لأن قراء مجلة الأزهر طبقة خاصة، فنشره مرة أخرى في العدد الممتاز سيتيح للقراء الاستمتاع بأثر بارع من آثار الأديب البليغ.

وقد كلفني الأستاذ الزيات إبلاغ تحياته للأستاذ علي حافظ ولم تسنح لي فرصة لإبلاغه هذا السلام.. وها هي قد سنحت اليوم.

جهود مشكورة:

والحديث عن التضحيات يجرنا إلى ان نذكر بكثير من الإعجاب جهود السيد علي حافظ وجهود أخيه السيد عثمان في خدمة الثقافة والمعرفة فلقد عملا فترة غير قصيرة من الوقت معتمدين للمعارف بالمدينة.. كما قاما بتنفيذ مشروعهما الضخم «مدرسة الصحراء» التي ظلت أكثر من عشرين سنة مشعلا وضاء وسط الصحراء يبدد الظلام وينشر النور ويهدي السائرين.

وسيظل هذا المشعل يؤدي واجبه ويذكر الناس دائمًا بجهود رجلين كبيرين مخلصين، يذكّرهم بالسيد علي حافظ والسيد عثمان حافظ.

تكليف ورجاء..

على أنني مكلف من مجموعة كبيرة من الشبان والمثقفين من سكان المدينة بأن أنقل إلى السيدين الجليلين صاحبي جريدة المدينة وإلى رئيس تحريرها وإلى إدارتها بكاملها رغبتهم في أن تعود جريدتهم إلى المدينة المنورة مقرها الأساسي.

وإذا كانت بعض الظروف قد قضت بنقل الجريدة إلى جدة فالمأمول أن يكون ذلك بصفة مؤقتة وأن يبادر الجميع إلى توفير الإمكانيات وإزالة العقبات التي تحول دون صدورها من المدينة.. إن صدور جريدة المدينة من المدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية شيء كبير يستحق التضحية.

فليضف المسؤولون عن الجريدة إلى قائمة تضحياتهم الكبيرة تضحيات جديدة من أجل تحقيق هدف كبير... كبير جداً.

لقاء.. كل أسبوع(*)

جاء في الاخبار ان نيكيتا خروتشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي قابل روبرت فروست عميد الأدب الامريكي.

وقد تمت المقابلة في غرفة نوم خروتشوف حيث كان الزعيم السوفيتي مستلقيا على السرير والشاعر الامريكي يجلس إلى جانبه فوق حافة السرير.

وقد صرح الشاعر بأن حديثهما كان وديا للغاية وأنهما تناولا المسائل السياسية بالذات.

وقال فروست لخروتشوف ان مصير العالم في المائة سنة القادمة يتوقف على العلاقات بين أمريكا وروسيا الآن وأن أكثر ما يحزنه أن أزمة كأزمة برلين تهدد العالم بالدمار وأن الوسيلة لحل الخلافات بين الشرق والغرب هي تشجيع التجارة على أوسع نطاق.. ثم قال فروست إن من الواجب أن تكون المنافسة بين الدولتين في الرياضة والعلم والفن والديمقراطية.

كما ورد في الأخبار أن الأدب العالمي قد فقد عملاقا من عمالقة الأدب عندما توفي الكاتب الأمريكي الشهير «ويليام فولكنر» الفائز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٠ وقد نعاه الرئيس جون كيندي ببيان رسمي معربا عن الخسارة العظيمة التي لحقت بالأدب الأمريكي العالمي بوفاة «ويليام فولكنر» أعظم أدباء أمريكا بعد هنري جيمس.

(☆) نشر في ١٣٨٢/٨/٢٥هـ الموافق ١٩٦٣/١/٨م العدد (١٥٠).

وقد وقع هذان الحادثان الأدبيان الخطيران في شهرين متتابعين والعلاقة بين الحادثين قوية إلى اقصى حد لأن لكل من الحادثين دلالته العميقة على ما تضمره الأمم الكبيرة ذات الأمجاد الحضارية الضخمة من تقدير للأدب واعتزاز بحملة القلم وإكبار لجهودهم في خدمة الأفكار السامية والعواطف الإنسانية.

ولهذين الخبرين كذلك دلالتهما العميقة على أن الأدب عنصر هام بارز في اي حضارة راقية على أي جزء في كرتنا الأرضية التي نعيش عليها.

ومهما قيل عن المادة وسيطرتها وتغلغلها فسيظل للروح سلطانه ومجالاته فالإنسان جسد وروح ووجدان ولا بد من إشباع الكل لا بد من المادة ولا بد من العلم والأدب والفن لا بد من العلم لتحقيق إمكانيات أفضل ولا بد من الأدب لإرواء ظمأ الإنسان إلى الجمال والخير ولا بد من الفن للسمو بعواطف الإنسان.

ستظل هذه العناصر النورانية الثلاثة سائرة في طريق واحد قد يتقدم بعضها قليلًا في زمان من الازمان وقد يتأخر بعضها قليلًا ولكنها ستظل دائمًا متقاربة متلاصقة فلا تنقطع ولا تفصل بينها آماد بعيدة أو فواصل كبيرة أو عقبات مهما يكن نوعها.

وسفارات الأدباء والشعراء ورجال الفكر تحفل بأخبارها صفحات التاريخ وكثيرا ما نجحت سفاراتهم عندما أخفقت سفارات رجال الحرب والسياسة.

ولا يخلو تاريخ أمّة من الأمم المتقدمة من هذه السفارات الموفقة الناجحة التي قام بها رجال الأدب وقادة الفكر في أوقات الحرب سواء كانت حربا حامية أو باردة.

والمطلعون على التاريخ الإسلامي يذكرون كثيرا من السفارات التي قام بها رجال الفكر وأذكر منهم الآن العلامة عبدالرحمن بن خلدون والعلّامة تقي الدين بن تيمية.

والمتأمل في الخبرين اللذين افتتحنا بهما هذا الحديث يرى مدى احتفال أكبر دولتين في عصرنا الحديث بالأدباء ورجال الفكر رغم التباين الشديد في نظمهما السياسية والاقتصادية، فالولايات المتحدة الأمريكية تبعث الشاعر الأمريكي الكبير روبرت

فروست في سفارة إلى الاتحاد السوفيتي.. ورئيس الاتحاد السوفيتي يستقبل الشاعر الكبير بكل حفاوة وعناية كأنما يستقبل صديقًا من أعز أصدقائه وأقربهم إلى نفسه.

والرئيس الأمريكي جون كندي يرى أن من واجبه أن ينعي للعالم في بيان رسمي يصدر عن البيت الابيض أديبا أمريكيا من أدباء الطليعة.

فالأديب ليس رجلا عاديا ولكنه رجل ممتاز وخدماته لا تقل عن خدمات اي زعيم سياسي بل ربما تفوقت عليه لأن السياسي تتسم خدماته في أغلب الأحوال بالطابع المحلي أما الأديب فخدماته تتسم بالطابع العالمي أو الطابع الإنساني إذا أردنا الدقة.. وشتان بين الطابعين.

بقي تعليق بسيط وهو أن خروتشوف قد استقبل الشاعر الأمريكي الكبير في غرفة نومه وكان مستلقيا على السرير بينما جلس الشاعر إلى جانبه على حافة السرير.

هل نستطيع أن نلمح من هذا التصرف أحد الفوارق الكبيرة بين الشرق والغرب وهو أن الشرق حريص على التقاليد يتمسك بها في حرص عنيف وبذلك يستطيع الغربي «الأوروبي والأمريكي» أن يحيا حياة سهلة حرة طليقة بينما يعيش الشرقي تتجاذبه القيود الشديدة والتقاليد الصارمة.

ترى لو استقبل شخص عادي من الشرق إنسانا جاء لزيارته في غرفة نومه مستلقيا على سريره فماذا يكون رد الفعل في نفس هذا الزائر وماذا سيقول الناس عن هذا الإنسان الذي يستقبل زواره في غرفة نومه مستلقيا على سريره، وهو صحيح ليس به وصب أو علة.

أذكر أن صديقا جاء لزيارتي بعد منتصف الليل وكنت في أشد حالات المرض واعتذر له من قابله عند باب المنزل بأنني مريض ونائم ولا أستطيع مغادرة السرير، فأصر على مقابلتي لأمر خطير لا يحتمل التأجيل ودخل عليَّ غرفة نومي ولم أستطع أن أبقى مستلقيا فبذلت كل ما لدى من جهد وجلست على السرير وحاولت أن أنهض للسلام عليه ولكنني لم أستطع واعتذرت له بالحاح.

وحدثني الصديق في الموضوع الذي جاء من أجله واستأذن في الانصراف فكررت له اسفي الشديد لاستقبالي له في غرفة نومي.

وأخذ هو يعتذر لي لأنه اضطر إلى زيارتي في مثل هذا الوقت وقابلته بعد أيام وكررت له اسفي وكرر هو أسفه ولكنني لا أزال اشعر بأنني كنت مقصرًا في استقبال صديقي.

كم نحن أسارى للتقاليد !!.

لقاء.. كل أسبوع(*)

مما يلفت النظر ان هذا الصيف قد خلا من الشعر فلم نجد لاحد من شعرائنا قصيدة أو مقطوعة مع ان الصيف وما فيه من انطلاق وما فيه من متع للنظر والسمع يعتبر دافعًا قويًا لإنتاج الشعر ونظم القريض، فالبساتين والجداول والتقاء الاخوان والاحبة حولنا بالنهار وفي الأمسيات كلها أمور ذات تأثير قوي في نفس الشاعر.

ومع ذلك فقد خلا هذا الصيف من الشعر وهي ظاهرة تستحق الاهتمام.

ان الشعر يعاني محنة وان من واجبنا أعني من واجب الصحافة الأدبية وعلى رأسها مجلة الرائد أن تعنى بالشعر وتحرص على نشره وتدفع الشعراء بكل وسائل الاغراء إلى نشر شعرهم ومن واجبها كذلك ان تطلع ناشئتنا على ما يحفل به أدبهم من تراث شعري خالد.

وقد احسنت مجلة المنهل ومجلة الجزيرة في نشر مقطوعة أو اكثر من الشعر القديم في كل عدد من اعدادهما.

كما ان من واجب اساتذة اللغة العربية ومدرسيها ان يعنوا بالشعر وان يحببوه لطلبتهم عن طريق إنشاده إنشادًا مؤثرًا وعن طريق تحليله وإبانة ما فيه من جمال وفن وعن طريق اختيار المقطوعات الجميلة الهادفة.

وليت وزارة المعارف تتولى اعداد مجموعة كبيرة من الأشرطة تسجل عليها قصائد متنوعة بصوت جهوري خلاب ونغمات تحدد المعاني وتبرز جمالها ثم توزع تلك

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٧/٢٠هـ الموافق ١٩٦٢/١٢/١٧م العدد (١٤٥).

الأشرطة على المدارس لتذاع على الطلبة في فصولهم أثناء دراسة النصوص أو في حفلاتهم وندواتهم.

ولعل الجهود المتضافرة تستطيع أن تعيد لهذا الفن الاصيل الذي يعتبر ابرع فنون العرب مكانته في نفوس الناس.

وهكذا خلا هذا الصيف من الشعر وان كان لم يخلُ من قصيدتين جميلتين لشاعرين من جيل واحد هما الرصافي وشوقي.

وهكذا استطاع هذان الشاعران ان يقفا في شموخ وازدهار في ميدان غص بالشعراء وكل منهم يصيح أنا الفتى.

وقد تحدث الرصافي عن الصيف فاثنى عليه ثناء مستطابا:

فالصيف ارأف بالفقير من الشتا — ولذا تحب قدومه الفقراء

قلَّت به الحاجات فالفقراء في — أيامه والاغنياء سواء

من كان أعوزه كساء منهم — فالصيف ملحفة له وكساء

والأرض ان طلبوا الرقاد وطاؤهم — من دون منٍّ والسماء غطاء

والرصافي يدلي بحجج معقولة وان لم يستطع التخلي عن مبالغات الشعراء فزعم - غفر الله له - أن الفقراء والاغنياء في الصيف سواء.

ولكن هيهات فالغني مكفولة له اسباب الراحة سواء بقي في بلده أم انتقل إلى غيرها التماسا للراحة والمتعة واللذة.

ودافع الرصافي دفاعًا مجيدا عن الصيف:

ولئن يكن حر النهار فليله — طلق وفي وجه السماء صفاء

ولئن قسا عند الهجير فريحه — هبَّت بحاشيتيه وهي رخاء

والقصيدة بوجه عام قصيدة جميلة فيها رقة وفيها عذوبة.

ورجاء نتقدم به إلى مجلة الرائد وهي أن تعنى بنشر الشعر شكلا وموضوعا.

أما من ناحية الموضوع فباختيار القصائد الصالحة.

أما من جهة الشكل فتنشر الأبيات الشعرية في إطار جميل سليمة من الاخطاء والتصحيف فليس كل قارئ بقادر ان يقرأ الشعر قراءة سليمة وان يعرف الاخطاء.

وقد وقعت بعض أخطاء في قصيدة الرصافي وذلك ما كنا نود ألا يحدث.

فالقراء منصرفون بطبيعتهم عن الشعر وليسوا بحاجة إلى ما يزيد من كراهيتهم وانصرافهم.

لقاء.. كل أسبوع(*)

«١»

من الموضوعات التي تعجبني في الصحف ولا اقرأها موضوع فلسطين.

فانا معجب بما يُكْتب عن هذا الموضوع لانه كلام مكرر معاد قل أن تعثر فيه على جديد يستحق الاهتمام.

وموضوع هذه صفاته لا يدعو القارئ المثقف إلى قراءته واطالة الوقوف عنده فانا لهذا لا أقرأه ولكنه يعجبني لأنه يوفر عليّ وقتا استطيع الاستفادة منه في شؤون اخرى بعد ان كثرت المشاغل الرسمية والخاصة وكثرت في نفس الوقت الصحف على اختلاف الوانها ومجالاتها واصبح ايجاد الوقت الكافي لكل مشاغل الإنسان مشكلة أخرى تتطلب البحث عن الحل الملائم.

وقد اتيح لي ان ازور معسكرات اللاجئين في قطاع غزة وان أرى مخيماتهم في الأردن فبعثت هذه الزيارات في نفسي سأمًا لا حد له إذ أدركت الهوة الواسعة بين واقع اللاجئين الأليم وبين أقوال رجال السياسة وأعمالهم.

ولهذا فأنا قليل الاحتفال بما ينشر في الصحف عن هذا الموضوع.. ولكن موضوعا قرأته أخيرا في جريدة الندوة عن هذه القضية رأيته جديرا بالتعليق.

فقد ألفت «آنسة» يهودية تدعى «جيرلا كوهين» وهي كما تقول جريدة التايمز اللندنية «عضو عامل في منظمة شترن الإرهابية الصهيونية».

---

(١) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٦/٤هـ الموافق ١٩٦٢/١١/١م العدد (١٣٨).

ألفت هذه الإرهابية الصهيونية كتابا اسمته «قصة حياة مقاتلة» وتحدثت فيه عن فضل هذه المنظمة الارهابية المجرمة في إقامة «إسرائيل» وقد قرأ ابن جوريون هذا، فأرسل خطابا إلى مؤلفته يعرب فيه عن إعجابه وتقديره، ثم يقدم بعض الملاحظات ومنها أن جهد هذه المنظمة الإرهابية لم يكن كافيا لإقامة إسرائيل.. يقول بن جوريون: «وإرهاب الإرهابيين بقصد طرد الإنجليز من فلسطين كان شيئًا محدودا لا يكفي لإقامة دولة فلم يكن الإنجليز وحدهم العقبة في سبيل إنشاء دولة إسرائيل وإنما كانت العقبة الحقيقية هي الحاجة إلى شعب يهودي يسكن فلسطين أي الحاجة إلى الهجرة الواسعة وهذا حققته المنظمات الصهيونية لا المنظمات الإرهابية كما حققت فكرة شراء الاراضي».

وترد الآنسة كوهين - كما ورد في جريدة الندوة - على ما ذكره بن جوريون فتقول:

«لا ننكر أن الرجوع إلى صهيون كان هو الغاية الأولى التي نحتاج إليها في بناء الدولة ولكن كيف كان يمكن تحقيق هذا الرجوع والإنكليز أوصدوا أبواب فلسطين ومنعوا الهجرة وكيف كان يمكن لنا الاستقرار في فلسطين وهناك قيود على شراء الأراضي».

ويجيب ابن جوريون «إن الإنجليز خرجوا من الهند دون عصابات شترن ولولا أعمال المنظمات الصهيونية لكان الإنجليز أعطوا العرب استقلالهم ولفاز العرب بذلك بفلسطين عربية لهم بل لقد فعل لنا الإنجليز اكثر من هذا ففي العهد العثماني كنا نشتري الأراضي بالسرقة وبالسر ونأتي بالمهاجرين بالسرقة وبالسر أما في عهد الانتداب الإنجليزي فقد كان الإنجليز يسهلون لنا جميع ما نريد» ثم يدور نقاش حول التعاون مع هرتز والإنجليز.

ويرد بن جوريون على ما أوردته الكاتبة الإرهابية في كتابها «من أن الإرهابيين لم يشاركوا زعماء الصهيونية أفراحهم حين وافقت الأمم المتحدة على التقسيم لأن التقسيم لم يشمل القدس والخليل وبيت لحم وجلعاد وما وراء ذلك».

رد بن جوريون قائلا «لست اعرف جيلا من الناس في التاريخ كله حقق في حياته رسالة كاملة وحتى يسوع لم يتم رسالته في حياته وبرغم أن الله قال له «وستمتد حدود اسرائيل إلى نهر الفرات». واليهود لم يستولوا على القدس في التاريخ القديم إلا بعد ٣٠٠ عام من بدء السعي إليها والأمل في الاستيلاء عليها».

هذه هي خلاصة الرسائل المتبادلة بين الكاتبة الارهابية الصهيونية وبين بن جوريون كما نشرتها التايمز اللندنية أو كما أوردتها جريدة الندوة.

لقاء.. كل أسبوع (*)

«٢»

أول ما يلفت النظر في النقاش الطريف بين ابن جوريون وفتاة الإرهاب - كما نشرنا خلاصته في العدد الماضي - هو أن امرأة «آنة» تحترف الإرهاب، وهذا يدل على تأثير المنظمات الصهيونية في عقول الشباب اليهودي رجاله ونسائه وربما صح أن يكون هذا دليلا لابن جوريون ضد الكاتبة اليهودية محترفة الارهاب.

أما النقـــاط التي شمـــلها النقاش وكلها تدور في البحث عن صاحب الفضل الأول في اقامة اسرائيل، وهل هو منظمة «شترن» الإرهـــابيـــة أم «المنظمات الصهيونية» فكلها تهدف إلى تغطية الموقف وعـــدم إبـــراز صاحب الفضل الحقيقي في اقامة اسرائيل!.

وصاحب الفضل الاول والأكبر هم «الانجلو امريكان» وبعبارة أخرى أدق وأصرح هي «الصليبية»، فالصليبية منذ أن قامت لم يهدأ شرها ولم ينطفئ حقدها على الإسلام والمسلمين وكلما فشلت في تحقيق أغراضها كلما ازدادت عراما وشراسة.

وليس هذا الذي نتحدث عنه بالأمر الخافي فهو واضح وضوح الشمس، وكل قارئ للتاريخ يعرف ما قاله القائد الإنجليزي اللورد اللنبي عندما دخل القدس لقد قال ذلك القائد «اليوم انتهت الحروب الصليبية وأنا آخر حاكم صليبي».

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٦/٨هـ الموافق ١٩٦٢/١١/٥م العدد (١٣٩).

وقد وقع في يدي مصادفة وانا اكتب هذه الكلمة كتاب يؤرخ للاستعمار الايطالي في ليبيا وقرأته فلم اتمالك أن تركت الكتاب لأنني شعرت باشمئزاز وغثيان شعرت بحقارة بني الإنسان في هذا العالم.

إن الحوادث التي يسجلها الكتاب وتثير الرعب وتحيي الضمائر الميتة وتهز قلوب أعتى الجبابرة. إنها حوادث لا تقوى الكلمات على تصوير فظاعتها وشناعتها ووحشيتها، تعرضت لها أمتي المسلمة في البلد الإسلامي طرابلس وبرقة.

كم كان بودي أن انقل كل ما حوى الكتـــاب وهو جـــزء تافه مما أصاب أمتي، ولكن حسبي ان اذكر شيئًا واحدًا فلعل فيه كثيراً من الدلالة على ما وقع على المسلمين هناك.

ذلك أن عدد السكان المسلمين في طرابلس وبرقة قبل الاحتلال الايطالي بلغ مليونا ونصف وقد تناقص العدد بعد الاحتلال حتى بلغ ستمائة الف.. نعم لقد قضى الإيطاليون على ما يقرب من مليون مسلم.

وقد تفنن الايطاليون في طرق الإفناء والإبادة، وسأذكر بعض هذه الطرق في مقال قادم.

على أن ما يهمني الآن هو أن يعرف القراء أن الصليبية جردت هؤلاء الايطاليين - كما جردت الفرنسيين والإنجليز والاحباش وغيرهم - من كل ما يربطهم بالبشرية من قريب أو بعيد.

واستطاعت ان تسلبهم نعمة البصر والبصيرة، فلم يكونوا يرون في المسلمين مجموعة من البشر ولكنهم كانوا يرون فيهم مجموعة من الحشرات الضارة التي يجب القضاء عليها سريعًا.

كتب «هرمان رفول» المراسل النمسوي الحربي يقول في رسالة طويلة: «وقد قتل الطليان في غير الحرب كل عربي بلغ عمره ١٤ سنة فما فوق أو نفوه بتهمة

محاربتهم من مؤخرتهم. وأحرق الايطاليون في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١١م حيًّا خلف بناء بنك روما، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه وبينهم النساء والشيوخ والأطفال ورجوت من طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض في حرارة الشمس إلى المستشفى فلم يفعلا فلجأت إلى راهب من كبار موظفي الصليب الاحمر هو الاب «يوسف بافيلاكو» وعرضت عليه الأمر وأخبرت شابا فرنسيا أيضًا ولكن الاب «بافيلاكو» حوّل نظره عني للشاب ألا يزعج نفسه: وقال: «دعهم يموتون». ورأيت على مسافة جنديًا يرفس جثة بقدميه.

وفي صباح اليوم التالي وجدت الذين رجوت الطبيبين والراهب من أجلهم قد ماتوت».

هذا بعض ما كتبه المراسل الحربي النمسوي عن فظائع الطليان في طرابلس وبرقة، نقلناه إلى القراء ليعرفوا مدى تأثير الصليبية في نفوس الناس.

ان الطبيبين ومهنتهما مهنة إنسانية وقد اقسما على ادائها في شرف وصدق دون تفريق يرفضان تقديم أي مساعدة «للكفار» المسلمين أعداء الصليب!.

أما الأب الراهب رجل الدين فلم يكترث بهؤلاء الجرحى والمصابين بل لعله رأى في تركهم للموت قربانًا يتقرب به إلى الله.

إن الإيطاليين الفاشيست يعلّمون أبناءهم أنشودة يترنمون بها بكرة وأصيلًا ومن مقاطع هذه الأنشودة «أنا ذاهب لطرابلس برقة فرحا مسرورا لأبذل دمي في سبيل سحق الأمّة الملعونة ولأحارب الدين الإسلامي».

«سأحارب بكل قوتي لمحو القرآن وان سألك أحد - والخطاب لأمّه العزيزة - عن عدم حدادك عليّ فأجيبه بأنه مات في محاربة الإسلام»!!.

هذه صفحة من صفحات السلبية في الماضي القريب وأمامنا الآن صفحة مفتوحة لا تقل عنها همجية ووحشية وسوادا وظلاما يقوم بكتابتها أبناء ثورة ١٤ يوليو

الفرنسية للحرية والاخاء والمساواة في الجزائر وصفحة أخرى مماثلة يقوم بكتابتها أبناء الصليب من الأحباش في الحبشة واريتريا.

إن الفضل يا ربيبة الإرهاب ويا ابن المنظمات الصهيونية لا يعود اليكما في إقامة اسرائيل ولكنه يعود في الدرجة الأولى إلى الصليبية المجرمة.

يقول الله في معرض حديثه عن اليهود **﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾**.

نعم إلا بحبل من الله.

وحبل من الناس.. تذكّر ذلك جيداً يا ابن جوريون ويا ابنة «شترن». وتذكّروا ذلك يا أبناء الإسلام.

وصدق الله العظيم.

لقاء.. كل أسبوع(*)

بين بريدي وجدت عددين من جريدة صغيرة الحجم غير جيدة الورق لا تستثير انتباه القارئ العادي ولا تستلفت نظره.

ولكنهما كانا أول ما قرأت ربما لأن الاسم جديد علي أو لأن مكان صدورهما غير مكتوب في مكان بارز وربما لانهما وصلا إليَّ من غير طلب سابق فأحببت أن أتعرف سبب ارسالهما إليَّ أو ربما لاسباب أخرى غير واضحة تمامًا في ذهني.

وايا كان الأمر فقد قرأتهما بشيء من العناية.

ولقد راعني حقا الاتجاه الذي تسير فيه هذه الجريدة وخاصة عندما عرفت انها تصدر في لبنان.. اجل في لبنان فعهدنا بالصحف اللبنانية - ولا سيما ما يصل الينا منها - انها صحف مصقولة فيها كل وسائل الاغراء من ورق صقيل وصور تهز عواطف المراهقين وأعصابهم بل وغير المراهقين ايضا. ومقالات مصفوفة بأسلوب فيه كل عوامل الشد والجذب وقصص تحلق بالقراء في عوالم من الوهم لا حدود لها ورسائل تهدف إلى اشاعة القلق وتمزيق حجب التقاليد حتى المجلات الرصينة كالآداب والأديب فهي تسير في اتجاه خاص لا يلتقي من قريب أو من بعيد بالاتجاه الذي ندعو إليه والذي تسير فيه الجريدة موضوع هذا الحديث.

أما الصحيفة فاسمها «المجتمع» واسمها لا يدل على الطريق الذي تسير فيه وربما كان ذلك عن حكمة وربما كان رمزًا للمجتمع الإسلامي المثالي.

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٣٨٢/٩/٢٤هـ الموافق ١٩٦٣/٢/٢٨م العدد (١٥٤).

وأما اتجاهها فهو الاتجاه الإسلامي السليم، ولا أدري لماذا يشعر القارئ بشيء من الغموض حين يجتمع هذان الاسمان: الإسلام ولبنان.

مما لا شك فيه أن هذا الغموض مصدره محاولات استعمارية خبيثة قامت بها بعض دول أوربا وعلى رأسها فرنسا بقصد أن تفصل لبنان عن اشقائه ولتجعله ركيزة تثب منها إلى ما يجاور من دول الإسلام توقف نموها وتحطم نهضتها وتعوقها عن كل تقدم.

وفعلت هذه الدول من اجل ذلك الكثير مما لا يتسع له هذا المقال.

حتى اطمأنت إلى ما حققته من نتائج ثم كانت الانتفاضة في سوريا بعد الحرب العالمية الثانية وحاولت فرنسا قمعها بكل عنف وشدة وقبل أن تحقق اغراضها الدنيئة فوجئت بلبنان ينتفض هو الآخر انتفاضة عنيفة ولم تأخذ فرنسا الأمر مأخذًا جديا وظنت ان الأمر حركة عابثة وان اللبنانيين «اعقل» من ان يقفوا في وجه «فرنسا الأم» وأخذت تعالج الوضع على هذا الاساس ولكنها فوجئت بان الأمر جد لا هزل فيه، قوي لا ضعف معه.. وفشلت كل الحيل ولم تجد فرنسا بُدًا من الاستسلام.. ثم الانسحاب إلى غير رجعة من سوريا ومن لبنان.. وإن كانت قد تركت جذورا خبيثة ستقتلع ولو بعد حين.. سيقتلعها الإسلام.

الإسلام الذي تمتد جذوره في لبنان إلى آماد لا نهاية لها.. أما تفاصيل هذا الحديث فسأتركها لفرصة اخرى لانني لا أحب اليوم ان اتحدث في السياسية.

وحسبي أن اعلن اغتباطي بصحيفة «المجتمع» وان احمد لها اتجاهها العظيم وأن أدعو الناس إلى قراءتها لتستطيع ان تحسّن من أوضاعها فتخرج إلى الناس في صورة أبهى وبذلك تتمكن من تقديم خدمات أعظم للإسلام.

وتحية لمن تفضل بارسال عددي الجريدة إليّ وألف شكر.

لقاء.. كل أسبوع (*)

الذباب ولست أعني بهذه الكلمة اسم المسرحية التي كتبها زعيم الوجودية في فرنسا «جان بول سارتر» لذلك فلست أريد أن أدخل في التفصيلات التي كتبها الشراح والمعلقون على هذه «المأساة» وعن الغرض من الذباب والإمَ يرمز به الكاتب الفيلسوف، وإن كانت هناك تعبيرات وردت في مسرحيته ربما دخلت موضوع هذا الحديث كذكره إلهًا - نستغفر الله رب الأرباب - للذباب والموت ويبدو أن هناك علاقة فعلًا بين الذباب والموت في رأي الأطباء على الأقل.

ومن تعبيراته الرائعة الساخرة قوله «إن ذباب أرغوس هذا يبدو لي أكثر ترحيبا من أهلها».

وقوله «أنت الذي طالما شكوت من أنك غريب في بلدك، إن هذه البهائم تقيم لك عيدا.. إنها أشد ضجيجا من الأجراس الخشبية وأكثر حجمًا من الجنادب».

وقد جعل سارتر الذباب وسيلة من وسائل التعذيب والإخافة.. والحق أن الذباب من الحشرات المقلقة والويل للإنسان الذي يتسلط عليه فإنه لا يدعه يستمتع بطعام أو شراب أو نوم أو حديث.

وهناك نوع من الذباب يرتمي على وجه الإنسان في صفاقة وسخف فإذا طردته من مكانه - بعد جهد - رجع إلى نفس المكان، وعدت أنت إلى عملية المطاردة وهكذا دواليك، حتى ينفد صبرك وتهوي عليه وعلى نفسك بضربة قاضية عليه

(☆) نشر في مجلة الرائد.

مؤلمة لك ولكنه العلاج الذي لا بد منه وآخر الدواء الكي كما كان يقول أجدادنا العرب القدماء.

ومن أجل هذه المضايقات وبسبب المتاعب الكثيرة التي يسببها كثرة انتشاره في المجتمعات من نقل أمراض وبث أوبئة بادرت كثير من الأمم إلى إبادته والتخلص منه.

وإبادته بطريق المبيدات المعروفة أمر معروف.

ولكن أحد الأصدقاء حدثني عن طريقة جديدة تكاليفها أقل وخاصة في البلاد الكبيرة ذات المساحات الشاسعة والقرى المتباعدة وهي طريقة أجدى من طريقة المبيدات ولا سيما بعد أن ثبت أن الذباب إذا تعود على هذه المبيدات يكتسب مناعة ضدها.

وهذه الطريقة الجديدة في الحقيقة ليست جديدة بل هي قديمة معروفة وإن كان الجديد فيها هو استعمالها بطريقة جماعية.

أما هذه الطريقة فهي استعمال «المذبات» وقد نجحت هذه الطريقة في الصين نجاحًا باهرًا إذ اتفق الصينيون على أن يقوموا بإبادة الذباب في بلادهم في وقت واحد باستعمال المذبات وقد قررت الجهات التي يعنيها الأمر تقديم مكافآت لكل من يقدم عددا معينا من «الصفائح» ملأى بالذباب المقتول.

وفعلا لم تمض فترة قصيرة حتى اصبحت الصين بعدها خالية من أي ذبابة.

وهذه الطريقة كما رأى القراء - طريقة قديمة وقد وردت في شعر لأبي الطيب أحمد بن الحسين في قصيدة هجائية تعتبر «نشازا» في شعره ولولا أنه ثبت بصورة قاطعة أنها له لأنكرنا نسبتها إليه.. فأبو الطيب شاعر العربية الذي يجيد المدح ويتفنن فيه ويتقن أساليب الهجاء ويستخرج صورا رائعة تسيء وتؤلم وتخرج في قالب فني رائع بعيد عن الابتذال والسوقية والبذاءة والفحش.

أبو الطيب هذا ما كان ينبغي له أن يسقط هذه السقطة الشنيعة ولكن صدق الأقدمون حين قالوا «لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة». ولا يعفي ابا الطيب ما روى من انه اجتاز بضبة «في جماعة من أشراف الكوفة فامتنع عنهم وأقبل يجاهر بشتمهم فأرادوا أن يجيبوه بمثل ألفاظه القبيحة وسألوا ذلك أبا الطيب فتكلفه لهم على كراهة» وقد تنبه المتنبي إلى خطئه كما يدل على ذلك قول الواجدي «كان المتنبي إذا قرئت عليه هذه القصيدة ينكر انشادها».

وحسب أبي الطيب هذه الكبوة التي كانت من أسباب القضاء على حياته كما يحدثنا التاريخ. اما مطلع القصيدة فهو:

ما انصف القوم ضبه　　　وأمه الطرطبة

اما موضع الشاهد فهو قوله:

ما كنت إلا ذبابا　　　تفتك عنا مذبة

وقد زرت مرة طبيبًا كبيراً - في السن والمقام - من أطبائنا كان مريضا بأحد المستشفيات في القاهرة ورأيته يقتل الذباب بيده وقد استغربت يومها من فعله ولكنني علمت بعد ذلك ان قتل الذباب - ولو باليد - أفضل من تركه يسرح ويمرح إلى أن تحضر المبيدات وبعد ذلك فلعله لا يتأثر بها بعد أن اكتسب حصانة.

وقد ضرب الله المثل بالذباب في معرض التهوين والتحقير قال تعالى: ﴿**إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**﴾ صدق الله العظيم.

ويقول العلماء أنه يوجد من الذباب حوالي تسعين الف صنف وتضع الأنثى منه حوالي مائة وخمسين بيضة في المرة الواحدة وتفقس في مدى أربع وعشرين ساعة في الجو الدافئ.. ويبلغ ما تنسله الذبابة الواحدة في حياتها حوالي الألف.

وتضع الذبابة البيض عادة في الاسطبلات ومستودعات القمامة. والذباب ناقل لكثير من الأمراض المعدية كالتيفود والدوسنتاريا والكوليرا والرمد.

ويطلق الذباب في اللغة على الجنون والشؤم والشرا الدائم والطاعون والسلال.

وهذا يدل على ان العرب كانوا يعرفون تأثير هذه الحشرة الخطرة وليس ذلك من مكتشفات العصر الحديث كما يزعمون.

لقاء.. كل أسبوع (*)

خبر قرأته منذ مدة طويلة ولكنه ظل عالقا بذهني يطفو على سطح الذاكرة كلما خلوت إلى نفسي او كلما وجدت فراغًا من المشاغل والأعمال.

والخبر في حد ذاته طريف يدعو إلى التعجب والابتسام ولكنه بالاضافة إلى ذلك يمس ناحية مهمة من حياتنا وحياة المواطنين في الشرق العربي.

وكثيرا ما جرني هذا الخبر إلى التفكير في أمور تسيطر على حياتنا وتربطنا برباط يضيق علينا الخناق فيبعث في نفوسنا كثيرا من التذمر والضجر.

ولا أريد ان اطيل على القارئ الكريم فالخبر كما نشرته إحدى المجلات الاسبوعية هو إن «طلاب إحدى القرى في لبنان اختطفوا عددا من المعلمين والمعلمات من قرية أخرى لأن الحكومة نقلت معلميهم وتأخرت في تعيين معلمين يحلون محلهم».

وقد ابتسمت طويلا وانا اتخيل الطلاب وقد آلمهم انتظار مدرسيهم فتناقشوا في الوضع طويلا وشاركهم أولياء أمورهم وكتبوا وابرقوا واتصلوا بكل من يهمه الأمر إلى ان يئسوا بعد أن وجدوا لا جدوى من المراجعة وأخيراً خطر ببال احد الاطفال خاطر عجب له وابتسم وهو يقلبه على وجوهه وما ان انبلج نور الصباح حتى كان هذا الطالب الخبيث قد بلغ المدرسة في انتظار زملائه وما ان وصل بعضهم حتى أسرَّ إليهم بخاطره ولم يتكامل عددهم حتى كانوا قد علموا

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨١/٨/١هـ الموافق ١٩٦٢/١/٨م العدد (٩٦).

جميعًا بالفكرة وقرروا تنفيذها.. وفي صبـــاح اليـــوم التالي كان قد وصل عدد منهم إلى القرية المجاورة في انتظار حضور المدرسين وما أن حضروا حتى انقض عليهم الطلاب وحملوهم على الأعناق وذهل الأساتذة لهول المفاجأة فقاوموا قليلا ثم استسلموا!!.

اما بالنسبة للمعلمات فاترك منظرهن عندما اختطفن لخيال القراء.

والخبر كما يرى القراء فيه كثير من الطرافة تدفع إلى الابتسام بل والضحك من هذا التصرف الجميل وارجو ألا يتسرع احد من القراء فيظن انني كتبت كلمة «الجميل» خطأ او سهوًا أو أنني قصدت بها إلى غير معناها الظاهر، فالواقع انه تصرف جميل لا لأنني أقر هذا النوع من التصرف بل لانه احتجاج عملي على عدم اتخاذ اجراء حاسم للتخلص من تلك الجرثومة التي تفتك بمصالح الامة وتعطل سيرها وتعوق تقدمها واعني بها ما اصطلح الناس على تسميته «بالروتين».. وهذا الروتين شيء ثقيل بغيض يستهلك الكثير من أوقات الموظفين وجهودهم وضياع هذه الأوقات خسارة على الأمّة وعلى الدولة ولو فكرت اي دولة من دول الشرق العربي في القيام بعملية احصاء مقارن للزمن والجهد والمال الذي يصرف في إنجاز «معاملة» واحدة لوجدت ان أقل من نصف الزمن والجهد والمال كافٍ لإنجازها لو سارت الأمور سيرها الطبيعي وتخلصت من براثن ذلك الاخطبوط البغيض الذي يمتص بشراهة ومن غير رحمة الزمن والمال والجهد لا بالنسبة للدولة فحسب بل وبالنسبة لأصحاب المصالح.

وقد حارب الإسلام هذا «الروتين» حربا عنيفة لا هوادة فيها ولا رحمة وهذه بعض تعاليم الإسلام في محاربة الروتين ويروى عن الرسول الاعظم - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**ان الله يحب السهل الطليق**» ويقول عليه الصلاة والسلام: «**اللهم من ولي من أمر امتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه**» ويقول عليه السلام: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان**

الله في حاجته ومن نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» ويروى عنه - عليه أفضل الصلوات والسلام: «إن هذا الخير خزائن ولتلك الخزائن مفاتيح فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير».

لقاء.. كل أسبوع(*)

اقتراح وتعليق:

في خبر نشر في إحدى المجلات العربية يتضمن ان وزارة الداخلية في إحدى البلدان العربية رفضت اقتراحا قدم اليها بوضع وسم على جباه النشالين يقي الناس شرورهم وسبب رفض الاقتراح أنه يتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية.

والحرص على احترام الإنسانية وكرامة الإنسان أمر جدير بالتقدير ما في ذلك شك ولكن ما الرأي في ذلك الإنسان الذي لا يحترم إنسانيته ولا إنسانية الآخرين فهو لا يحترم إنسانيته بل يهبط بها إلى اقصى درجات الحيوانية حيث يغوص في الطين والوحل والرذيلة وهو لا يحترم إنسانية الآخرين فيعبث بكرامتهم وينتقم من آدميتهم وينتقص من مروءتهم ويرمي بهم إلى هاوية الفقر والذل.

ما الرأي في هذا الإنسان الذي تحجر قلبه وجمدت مشاعره وتبلد إحساسه فاصبح لا يهمه إلا ان يقيم سعادته على شقاء الآخرين وسروره على حساب المحزونين وحياته على جثث ضحاياه من بني الإنسان.

هل من الحكمة في شيء أن نترك هذا «الإنسان» يعبث في المجتمع ما شاء له العبث ويسخر من مواطنيه بالطريقة التي تحلو له ويرقص على الموسيقى المؤلفة من أنات ضحاياه وتوجعات منكوبيه وتأوهات المظلومين والبائسين.

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ١٣٨١/١٠/٢هـ الموافق ١٩٦٢/٤/٣م العدد (١٠٧).

هل من الحكمة في شيء أن نمكن لهذا «الآدمي» في الأرض ينشر فيها إجرامه وشروره ويهوي بفأسه على رؤوس الأبرياء الآمنين دون رحمة أو رفق.

هل من الحكمة في شيء أن نصنع شيئًا من ذلك ثم إذا كثر الضحايا والمنكوبون ووقع «الإنسان» المجرم في يد العدالة بعد أن يكون قد كَبَّد المواطنين الكثير من التضحيات وكَبَّد الدولة الكثير من المال والجهد والعناء.. عاملناه بمنتهى الرفق وبأبسط قواعد الإنسانية أو بأعظمها ثم أطلقنا سراحه بعد مدة وجيزة وفترة جمام ليعاود خطته في بث الذعر ونشر الخوف والإساءة إلى الناس وهكذا دواليك؟!.

فإذا ضج الناس من ذلك وتكاثرت صيحاتهم وقدم بعض الواعين يطلبون اتخاذ اجراء فيه شيء من العزم قال بعض الذين لم يتعرضوا لما تعرض له غيرهم من الوان الشقاء: لا.. هذا يتنافى مع ابسط قواعد الإنسانية وقال بعض الذين يخافون أن يتهموا بأنهم يسيرون على مبادئ الإسلام وتطبيق مبادئه: لا.. هذا لا يتفق مع كرامة بني آدم.

وهكذا انقلب الوضع فاصبحت كرامة عشرين أو مائة من اللصوص المجرمين مقدمة علي كرامة الملايين من المواطنين المسالمين الشرفاء.

وأصبح قطع أيدي هذه الفئة القليلة كما حكم الإسلام ووسم جباهها بميسم الذل «وذلك أضعف الإيمان» - كما أقترح بعض الناس - لا يتفق مع أبسط قواعد الإنسانية أما تلك الأسر التي تقضي الشهور والسنين في حالة من البؤس يندى لها جبين الإنسانية لأن ما حصل عليه عائلها بكدِّه او عرقه او لأن ما ادخرته بعد جهد طويل اختطفه احد اولئك الذين يجب ان يعاملوا بأبسط قواعد الإنسانية!.

فتلك ليست من الآدمية في شيء.

كان لنا صديق أيام ان كنا ندرس في الجامعة وقد اندفع مثل كثير من الشبان وراء السراب الخادع فاصبح يؤمن بكل ما جاء من أوربا ويكفر بغيره، وكان له رأي في قطع يد السارق يتفق مع آراء بعض أعداء الإسلام أو بعض المخدوعين من أبناء

الإسلام، وهو يرى أن قطع يد السارق فيه كثير من القسوة «ولا يتفق مع أبسط قواعد الإنسانية» وصادف أن احتاج هذا الصديق إلى مبلغ من المال لشراء بدلة ثم صادف أيضا أن أصيب بمرض يحتاج إلى علاج سريع وكان في حالة شديدة من القلق وبعد انتظار لم يدم طويلا وصله المبلغ المطلوب فكاد يطير من الفرح وأصبحت الدنيا لا تسعه من السرور.

ووضع المبلغ في جيبه وخرج ليشتري البدلة وليراجع الطبيب وركب «أتوبيسًا» وعندما وصل إلى المكان الذي يقصده كانت تنتظره مفاجأة مذهلة فقد وضع يده في جيبه ليخرج المبلغ ولكنها خرجت بيضاء من غير سوء.. وكاد يصعق من هول المفاجأة لولا أن أحد أصدقائه كان معه فما زال به حتى هدأه وأعاده إلى البيت وضاقت الدنيا عليه بما رحبت، وأصبح في حالة سيئة تهز قلوب أعتى الجبابرة وساعده أصدقاؤه ومرت المحنة بعد أن تركت في قلبه ندوبا لا تندمل.

وذات يوم سألته ما رأيك لو أحضرنا لك النشال الذي اختطف جنيهاتك وحكّمناك فيه هل توافق على قطع يده.. فصاح منفعلا لو استطعت أن أمزقه إربا إربا لما تأخرت.. فقلت له باسما: ولكن هذا لا يتفق مع أبسط قواعد الإنسانية، فقال: وهل تعريضه حياتي للخطر وعقلي للجنون يتفق مع أبسط قواعد الإنسانية؟! فقلت له: هل أفهم من هذا أنك آمنت بحكمة الإسلام.. قال: الإيمان كله.

ومرت سنوات وقابلت صديقي بعد أن أصبح موظفًا كبيراً وذكرته بالحادثة وقلت له: إن المبلغ الذي فقد منك كان مبلغا تافها لا يذكر بالنسبة لثروتك ومرتبك الآن فهل غيَّرتَ رأيك؟ فابتسم في مرارة وقال: إن الإيمان يعمر قلبي تمامًا بحكمة الإسلام. ترى لو لم تكونوا بجانبي في تلك الأيام ماذا كان يحدث لي؟.

وما هي حالة امثالي من الموظفين الصغار او البائسين الفقراء الذين لا يجدون من يقف جانبهم عندما يمرون بمحنة كالتي مررت بها. صدق الله العظيم: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله**﴾.

لقاء.. كل أسبوع (*)

نشرت أكثر صحفنا المحلية خبر أول مناظرة أقيمت بجامعة الملك سعود، وهو خبر يبعث على الاغتباط والاطمئنان فما من شك في أن تكوين المواطن المثقف الصالح لا يتم عن طريق الدراسة وحدها داخل الفصول والمدرجات ولكنه يتم بوسائل أخرى منها المناظرات والمحاضرات العامة والندوات الثقافية على اختلاف الوانها ومنها المشاركة في كثير من الوان النشاط الاجتماعي والرياضي والفني.

فإقدام الجامعة على ايجاد هذا اللون من النشاط الثقافي الحر خطوة يتلقاها المثقفون والمتتبعون لسير الجامعة بكثير من الابتهاج والتقدير.

وقد كان موضوع المناظرة من الموضوعات الحية التي تستحق المناقشة والدرس وهذا دليل على يقظة القائمين على شؤون الجامعة.

والقراء الذين قرأوا الخبر عرفوا ولا شك أن موضوع المناظرة كان «التدريس الجامعي باللغة العربية» وقد أيد الرأي الأستاذ محمد أحمد الغمراوي وظاهره طالبان.

كما عارض الرأي الدكتور سعيد عاشور وسانده طالبان.

والأمر إلى هنا سليم لا غبار عليه أما الأمر الذي يدعو إلى الاستغراب والدهشة والتعليق فهو النتيجة التي انتهت إليها المناظرة إذ انتصر الرأي المعارض.

وهنا وجه الخطورة.. فهذا الاتجاه يعتبر انتكاسا بعد الانتصارات الرائعة التي كسبتها اللغة العربية في صراعها الطويل ضد قوى الشر.

(☆) نشر بمجلة الرائد بتاريخ ٢٠/١٠/ ١٣٨١هـ الموافق ٢٦/٣/١٩٩٢م العدد (١٠٦).

وكثير من المثقفين المعاصرين يعرفون قصة ذلك الصراع الجبار الذي انتهى بانتصار اللغة العربية في جامعات العالم العربي وأصبحت اللغة المسيطرة بعد أن ظلت أعواما طوالا تتوارى خجلا في قسم من اقسام إحدى الكليات تشعر بالغربة في وطنها وبالوحشة بين بنيها وبالعزلة بين أهليها.

لقد كان كفاحا طويلا رائعا انتصر فيه الحق بعد لأيٍ على الباطل وستظل صفحات هذا الكفاح مشاعل تنير وصورًا تشير ومنائر تهدي.

لقد انتصرت لغة عدنان في اكثر الميادين الثقافية وفي أغلب الحقول الجامعية ولم يبق غير ميادين قليلة وحقولا معدودة وقفت تسندها ارستقراطية عقلية يهمها مصلحة «الذات» قبل مصلحة المجموع ويشغلها الحاضر الذي يقوم على اساس المادة عن المستقبل المأمول الذي يقوم على عماد من الإيمان والحب.

وستنتصر هذه اللغة الكريمة رضوا أم سخطوا وستعلو كلمة الله كما أراد لها الله.

ونعود إلى موضوع المناظرة فنلاحظ ان الخبر لم يعطنا أية تفصيلات عما دار في المناظرة لنستطيع على ضوء ذلك أن نعرف الأسباب «والحيثيات» كما أن عنوان المناظرة لم يشر إلى المراد بعبارة «التعليم الجامعي» وهل المراد هو التعليم الجامعي باكمله في جميع الدراسات على اختلاف الوانها أم أن المراد نوع خاص من التعليم.

لم نستطع أن نتبين ذلك من الخبر ولعل أحد الذين شاركوا في هذه المناظرة بالحديث أو الاستماع يعطينا فكرة ولو موجزة عن أهم اركان هذه المناظرة.

على أن شيئا عاما يستحق الذكر يجب أن نشير إليه في هذا الشأن وهو أن المناظرات لا تعتمد دائمًا على قوة الحجة ورصانة المنطق ومتانة الدليل بل تعتمد أحيانا على فصاحة المتكلم ومرونة حركاته وجهارة صوته وقدرته على اجتذاب السامعين وبراعته في تصيد ما تهواه نفوسهم وتلاعبه بعواطفهم واستغلاله لمواقف خاصة.

وليس هـذا الـذي نقـوله من «عندياتنا» ولكنه الحقيقة التي يقولها التاريخ والواقع.

والمثقفون يعرفون المناظـرة التـي انعقـدت بيـن سيبويه والكسائي والمعروفة باسم «مناظرة النحلة والزنبور» وكيف انهزم سيبـويـه بغـير الحجـة والدليل والمنطق.

والمثقفون يعرفون كذلك قصة المناظرة «العامة» بين بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي وكيف انتصر فيها الأول على الثاني انتصارا قوامه الحيوية والشباب والمقدرة على تلمس مواطن الضعف في نفوس المستمعين.

ونعود إلى موضوع المناظرة، فنلحظ أن وجهة النظر التي يدافع عنها الفريق المعارض تحتوي على جوانب براقة تصادف هوى في نفوس الشباب من المستمعين وهم الأكثرية دون ريب.

نكتب هذا الكلام ونحن نعرف جيداً انه لا تأثير لهذه النتيجة في توجه الجامعة، فرجال الجامعة وعلى رأسهم صديقنا الدكتور عبدالعزيز الخويطر يعرفون طريقهم في وضوح ويسيرون بخطى منتظمة مرسومة ليجعلوا من جامعتنا الفتية جامعة تقف في طليعة جامعات العالم.. وإذا كانت لغة القرآن قد لقيت الكثير من العناية في جامعات العرب وكثير من جامعات العالم فما من شك في أنها ستجد في جامعتنا كل العناية وستأوى فيها إلى ركن شديد.

ونود أن يكون واضحا أن حديثنا هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أننا لا نؤيد العناية باللغات الاجنبية الحية فالعناية بها أمر ضروري في منتهى الأهمية ومن الغفلة ألا نولي هذا الموضوع كل عنايتنا.

ونريد أن يتخرج شبابنا من الجامعة وقد أجادوا لغة أو أكثر ليستطيعوا أن يساهموا في إثراء لغتنا عن طريق الترجمة.

وتدريس العلوم المختلفة باللغة العربية فيه خدمة جُلّى لهذه اللغة إذ إن المدرس أو المحاضر سيضطر إلى نقل اكثر المصطلحات إن لم يكن جميعها إلى اللغة العربية وأعمال النقل والترجمة هذه عبارة عن روافد تمد لغتنا وتزيد من قوتها ونمائها.

أما التدريس باللغات الاجنبية فإنه يحول بين لغتنا وهذه الروافد الفتية الثرة.

واذكر ان محمد علي باشا حاكم مصر المعروف كان قد استنّ سُنَّة حميدة عندما بدأ في ارسال البعوث من الشباب المصري إلى أوربا اذ فرض على كل شاب انهى دراسته ان يترجم إلى اللغة العربية خمسة من الكتب في مادة تخصصه ولا يعتبر ناجحًا في بعثته ولا تعترف له الدولة بالاجازة العلمية التي حصل عليها إلا إذا قام بهذا العمل.

وهذه سُنَّة حميدة وفكرة موفقة وحبذا لو فرضتها الدولة هنا على شبابها وبعثاتها إلى الجامعات المختلفة ففيها مكسبان كبيران، أحدهما تزويد اللغة العربية بزاد لا ينقطع من المفردات اللغوية والخبرات الإنسانية، وثانيهما التأكد من ان الشاب المبتعث قد حصل فعلا على قدر كبير من الثقافة والمعرفة.

ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق ان هذه العملية تربط الشاب بالجو العلمي ربطا وثيقا ربما استمر إلى نهاية حياته بدلا من أن ينفصل عن الثقافة بمجرد عودته ليعيش في بحر من الروتين المعقد والأعمال الادارية الرتيبة.

وحبذا لو احتضنت وزارة المعارف هذه الفكرة وبدأت في تنفيذها من الآن خاصة وان هناك عددا طيبا من شبابنا في أوربا وامريكا والشرق. وحبذا لو كان لها أثر رجعي.

إذًا لأقمنا مكتبة ضخمة بها من الذخائر والجهد الوطني المبذول ما يرفع رؤوسنا اعتزازا في دنيا الثقافة والعلم.

ولا نحب أن يفوتنا الإشارة إلى أمر طريف في هذه المناظرة وهو ان على رأس مؤيدي التدريس باللغة العربية رجل قضى جل حياته في خدمة العلم وفي «الكيمياء» على الاخص هو الأستاذ والعلامة محمد أحمد الغمراوي بينما كان على رأس المعارضين استاذ متخصص في الاداب هو الدكتور عاشور فهل نستطيع أن نلمح من هذا ان اللغة العربية قد انتصرت ايضا في هذه المناظرة وان كان انتصارا بطريقة غير مباشرة.

إذ المعروف ان رجال العلم هم الذين يؤيدون تدريس المواد العلمية باللغات الاجنبية بحجة ان المصطلحات العلمية كلها باللغات الاجنبية ولكن الأستاذ العلامة الغمراوي بحكم تمكنه من مادته ومعرفته بلغته وتاريخها وخصوبتها استطاع ان يقف هذا الموقف الذي يستحق الاعجاب.

ولنا حديث عن الأستاذ الغمراوي ارجو ان ينشر قريبا.

لقاء.. كل أسبوع (*)

ومن المصادفات اللطيفة كذلك ان ينشر في اسبوع واحد مقالان عظيمان عن حضارة العرب ومدنية الإسلام تحدث فيهما كاتباهما حديثا مجيدا عن مدنية العرب وحضارة الإسلام. وعظمة هذين المقالين ترجع إلى انهما يثبتان بالدليل القاطع اهمية الدور العظيم الذي قام به العرب وأبناء الإسلام في رفع بناء الحضارة وفي دفع عجلة التطور الحضاري بشكل يثير الدهشة ويدعو إلى الاعجاب ويعطي الدليل على أن المسلمين كانوا خير أمّة أخرجت للناس.

وعظمة هذين المقالين تعود كذلك إلى تثبيت فكرة مزعزعة في نفوس شبابنا وناشئتنا وهي أن أمتنا أمّة شعر وخيال وأنها لم تقدم للبشرية خدمات تذكر سوى الدين بل إن بعض المنحرفين من شبابنا المغرورين بثقافة المستشرقين المخدوعين بكلام العدو يرون أن الإسلام كان معوقا للتقدم معطلا للتطور!.

ولكن هذين المقالين يفتحان أعين النائمين والمشدوهين والحيارى ويبصرانهم بحقيقة الإسلام وأمّة الإسلام وينبهان الغافلين إلى ان العرب أمّة نقية الفطرة أصيلة المعدن كريمة النفس وأن الإسلام دين الحق والهدى والعلم والسلام.

وأن اتباع محمد هم خير أمّة أخرجت للناس وأنه لولا وجود المسلمين في الفترة التي سيطروا فيها على العالم لتردى العالم في هوة سحيقة من الهمجية والجهالة والفوضى.

(١) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١٥/٩/١٣٨١هـ الموافق ١٩/٢/١٩٦٢م العدد (١٠٢).

فنحن إذاً في أشد الحاجة إلى هذه الجرعات المنبهة القوية في هذه الفترة من تاريخ حياتنا لنحمي شبابنا من التدهور ولنحصن عقولهم وقلوبهم ضد الشك والتهاون والاستهتار واحتقار النفس.

وقد نشر احد المقالين في صحيفة عكاظ وكاتبه الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ومقاله هذا من المحاضرات العامة الجامعية لجامعة الملك سعود.

ولم تتح لي الفرص ان اعرف شيئا عن الدكتور كاتب هذه المحاضرة وعنوانها «أثر المدنية الإسلامية في الحضارة» وهي محاضرة قيمة حقيقة وبودي لو أعدت نقلها إلى القراء.

وصحيح أن ما فيها من معلومات لا تعتبر جديدة على ذي الثقافة الرفيعة ولكن ما من شك في أن ما قيل في هذه المحاضرة هو خير ما يقال في محاضرة عامة يحضرها كثير من ذوي المستويات الثقافية المختلفة ولا تطيق عقولهم التفصيلات الدقيقة التي تستدعي كثيراً من الجهد والوقت في استساغتها واستيعابها.

أما المقال الآخر فقد نشر في جريدة البلاد تحت عنوان «علوم العرب.. قبل الإسلام وبعده» وكاتب المقال هو الدكتور محمد علي الحاج سالمين وهو أستاذ هندي وله طائفة من الكتب باللغة الإنجليزية وان كنت لم اقرأ منها إلا كتابه عن محمد - صلى الله عليه وسلم - واسمه «محمد رسول الله - حياته الطاهرة في نواحيها المختلفة» وهو كتاب قيّم كتب بطريقة علمية ممتازة ونظم تنظيما كبيرا تفتقر إليه كثير من المؤلفات مما اتاح للقارئ الاستفادة منه استفادة كبيرة.

وارجو أن أعود إلى هذا الكتاب في فرصة قريبة بالتحليل والدرس.

وهناك تشابه كبير بين المعلومات الواردة في كل من المثالين وان كان كل من المقالين قد استقل ببعض المعلومات القليلة وتوسع الدكتور سعيد عبدالفتاح في شرح بعض المعلومات.

وإن كان قد حرص كل من الكاتبين على الاشادة بالعقلية العربية وتمجيد الإسلام وايضاح أثره في حضارة الإسلام.

حبذا لو حرص مؤلفو كتب المطالعة والتاريخ على تزويد كتبهم بهذه المعلومات القيمة عن تاريخ الإسلام وحضارة الإسلام وعظمة المسلمين.

وحبذا لو حرصت المدارس على اذاعة هذه المعلومات المنشورة في هذين المقالين عن طريق اذاعاتها المحلية وصحفها المدرسية.

وحبذا لو أولت صحافتنا عنايتها بهذه الناحية الهامة من امجادنا وتاريخنا.

وتحية للعالمين الفاضلين وشكرا لهما على عنايتهما وإخلاصهما.. ودعاء لهما بالتوفيق والسداد.

لقاء.. كل أسبوع (*)

يحدثنا القرآن الكريم عن النمل حديثا رائعا فيقول في سورة النمل: ﴿**ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين * وورث سليمان داود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين * وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكا من قولها..**﴾.

فيصور القرآن النمل كأمّة لها زعيمة منها تدافع عن كيانها وتحرص على سلامتها فتدعو سائر النمل إلى دخول مساكنهم خوفا من ان يحطمهم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ويسمع سليمان ذلك فيعجب من حكمة هذه النملة الزعيمة ويبتسم ضاحكا من قولها.

وقد اكتشف العلماء نظما اجتماعية واقتصادية وحربية لأمة النمل ووصفوها وصفا يذهل العقول.

وأمامي الآن كتاب ألفه العالم (رويال ديكفسون) وهو عالم في التاريخ الطبيعي قال في كتابه: (شخصية الحشرات):

«لقد درست مدينة النمل عشرين عاما في بقاع مختلفة من العالم فوجدت ان كل شيء يحدث في هذه المدينة بدقة بالغة وتعاون عجيب ونظام لا يمكن ان تراه في مدن البشر.

(☆) نشر بمجلد الرائد.

لقد راقبت النمل وهو يرعى أبقاره وهي خنافس صغيرة رباها في جوف الأرض زمانا طويلا حتى فقدت في الظلام بصرها.

ولا أحد يدري في أي عصر بدأ النمل حرفة الرعي وتسخير الأبقار وكل ما نعلمه إن الإنسان إن كان قد سخر نحوا من عشرين حيوانا لمنافعه فإن النمل قد سخر مئات الأجناس من حيوانات أدنى منه جنسا.. فإن بق النبات - حشرة من الحشرات التي يعسر استئصالها - ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل ليجمع لها بيض هذا البق فإذا جيء به وضعه في المستعمرة موضع البيض ويعنى به حتى يقفس، وتخرج صغاره ومتى كبرت تدر سائلا حلوًا يقوم على حلبه جماعة من النمل لا عمل لها إلا حلب هذه الحشرات بمسها بقرونها وتنتج هذه الحشرة ٤٨ قطرة من العسل كل يوم أو بمقدار أو يزيد مئة ضعف عما تنتيجه البقرة بالنسبة إلى حجم الحشرة من حجم البقرة.

ولاحظ العالم المذكور أن النمل قد زرع مساحة بلغت خمسة عشر مترا مربعا من الأرض وان جماعة من النمل تقوم بحرثها على أحسن ما يقضي به علم الزراعة وحين ينبت الزرع تخرج معه اعشاب مضرة وتتجمع عليه الديدان فتختص جماعة من النمل لازالة هذه الاعشاب والطفيليات، واخرى لحراسة الزرع من الديدان، وهكذا رأى هذا العالم قرى النمل مزدحمة بالعمل والعمال والتدبير والنظام والتعاون على الصالح العام».

لقاء.. كل أسبوع (*)

منذ أمد بعيد وعلماء الحيوان والحشرات يقومون بدراسات واسعة على أنواع من الحيوان والطير وقد توصلوا فعلا إلى نتائج مدهشة.

وكان للنحل فضل الأسبقية فقد اهتم العلماء اهتمامًا كبيراً بهذه الحشرة واستطاعوا ان يصلوا إلى نتائج باهرة عن النحل.

وحسب النحل مزية أن تسمى سورة من كبار سور القرآن باسمه، وان يتحدث عنه القرآن حديثا رائعًا يطرب السمع وينعش الفؤاد يقول الله تعالى في سورة النحل: **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللًا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس * إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾**.

ولا اعرف حشرة او حيوانا يشارك النحل في هذه الميزة العظيمة وهي أن طعامه زكي لأنه عبارة عن الازهار الجميلة ذات الرائحة العطرية النفاذة، وما يخرج من بطونها كريم لأنه عبارة عن عسل حسن الألوان حلو المذاق يُتخذ طعاما فيه غذاء وفيه متعة كما يُتخذ دواء لكثير من الأمراض والاسقام.

والعجب أنه يستعمل علاجا للسكر كما ورد في بعض الأخبار الطبية.

وهذا من الأعاجيب بل من معجزات القرآن.

(☆) نشر بمجلة الرائد.

وقد اكتشف العلماء نظاما دقيقا يسير عليه النحل في حياته كأمّة لها كل مقومات النظام والحضارة.

وذلك مصداق قول الله الحق الذي لا ينطق عن الهوى.

وقد كتب العلماء كثيرا من الكتب عن النحل وكلها تحفل بطرائف ومدهشات.

واذكر ان الدكتور أحمد زكي ابو شادي كان يصدر مجلة باسم «مجلة النحل» استمرت عدة سنوات ثم توقفت كما توقفت مجلاته الأخرى وعلى رأسها «ابوللو».

ولشوقي قصيدة رائعة عن النحل بعنوان «مملكة النحل» صوَّر فيها حياة هذه الحشرة تصويرا رائعا يقول فيها:

مملكةٌ مدبّره … بامرأةٍ مؤَمَّرهْ
تحمل في العمَّال والـ … ـصنَّاع عبءَ السَّيطرهْ
فأعجبْ لعمَّالٍ يولـ … ـدون عليهم قيصرهْ
تحكمهم راهبةٌ … ذكّارةٌ مغبَّرَّهْ
عاقدة زنَّارَها … عن ساقها مشمِّرهْ
تلثَّمت بالأرجوا … ن وارتدته مئْزَرَهْ
وارتفعت كأنَّها … شرارةٌ مطيّرهْ
ووقفت لم تختلجْ … كأنها مسمَّرهْ

وبعد أن يستمر طويلًا في الحديث عن ملكة النحل ينتقل إلى الحديث عن المملكة فيقول:

أليس في مملكة النـ … ـحل لقوم تبصرهْ؟
مُلْكٌ بناه أهلُه … بهمَّةٍ ومجدرهْ
لو التمستَ فيه بطَّا … ل اليدَيْن لم ترهْ
تقتل أو تنفي الكسا … لي فيه غيرَ منذرهْ
تحكم فيه قيصرَهْ … في قومها موقَّرهْ

من الرجال وقيو دِ حكمهم محررهْ
لا تورث القومَ ولو كانوا البنين البَرَرَهْ
الملْكُ للإناثِ في ال دستورِ لا للذِّكَرهْ

وبعد أن يصف نظام الحكم في مملكة النحل ينتقل إلى الحديث عن «الدفاع» في النحل فيقول:

انثى ولكن في جنا حيها لباةٌ مُخْدِرهْ
ذائدة عن حوضها طاردة من كدَّرهْ
تقلَّدت إبرتَها وادَّرعت بالحَبَرَهْ
كأنها تركية قد رابطت بأنقرهْ
كأنها (جاندارك) في كتيبة معسكرهْ
تلقي المغير بالجنو د الخشن المنمَّرهْ
قد نثرتهم جعبة ونفضهم مِئْبَرَهْ

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الحياة الاجتماعية في مملكة النحل فيقول:

مالكةٌ عاملةٌ مصلحةٌ معمّرهْ
المالُ في أتباعِها لا تستبين أثرهْ
لا يعرفون بينهم أصلًا لَهُ من ثمرهْ
سبحانَ مَن نزَّه عن ه ملكهم وطهَّرهْ
وساسه بحُرَّةٍ عاملةٍ مسخَّرهْ
صاعدة في معملٍ من معمل منحدرهْ
باكرة تستنهض ال عصائب المبكرهْ
السامعين الطائعي ن المحسنين المهرهْ
من كلِّ من خطّ البنا ءَ أو أقام أسطرهْ
أو شدَّ أصل عقدهٍ أَو سدَّه أو قوّرهْ
أَو طاف بالماء على جدرانه المجدّرهْ

ويختتم شوقي قصيدته الرائعة بوصف النحل عندما يذهب إلى الخمائل فيقول:

وتــــذهـــب الـنّحـــــــل ُخفـــا   فــــــأ وتجــــــيءُ مـــوقــــرهْ
حــوالــب الــشــمـــــــع مــن الـــ   خـــــمـائــــــــل المنـــــــوَّرهْ
جـوالـــــب المــــــاذيّ مـــــن   زهــــــــر الـرّيــــاض الـشَّــــيـرَهْ
مـشــــــدودة جيـــــوبُـــــــهـا   عــلـــــى الجنـــــــي مـــــــزرَّرهْ
وكــــــــل خـــــــرطــــــوم أدا   ة الــعــســــــــل المـقـطَّــــــــرهْ
وكــــل أنــــف قـــــــانــــــيء   فيـــــــه مــن الـشَّـهـــــد بُـــــرَهَ
حتـــــى إذا جــــــاءت بـــــه   جـــــاســــــت خــــــلالَ الأَدورهْ
وغـيـبــــتـــــه كـــــالـســـــلا   ف فــي الـدّنــــان المـحـضـــــرهْ

هذه مقتطفات من القصيدة الرائعة التي صور فيها مملكة النحل تصويرا جمع إلى الإبداع ابراز الحقيقة.

فيجمع ما ورد في هذه القصيدة حقائق ثابتة أوردها العلم وحققها العلماء.

وحبذا لو عاد اليها القارئ في الشوقيات ليستمتع بها كاملة هناك وحبذا لو حرص المؤلفون للمدارس على اختيارها لطلابنا ففيها اكثر من ميزة تدعو إلى الاختيار. إنها من عيون شعر شوقي - رحمه الله.

ولا يفوتنا في ختام هذه الكلمة ان نذكر القارئ الفاضل الذي كتب يعترض على وصف الحيوانات بانها امة بهذه الامة التي تحدثنا عنها اعني امة النحل فقد ثبت بالدليل العلمي أنها أمّة تسير وفق نظام دقيق لا يقل عن أنظمة البشر وسبحان الخالق الاعظم.

كما لا يفوتنا ان نذكر من يهمه أمر اللغة من القراء بأن كلمة نحل تطلق على الذكـــور والإنـــاث اما في حالة الافراد فيطلق على الذكر يعسوب وعلى الأنثى نحلة.

لقاء.. كل أسبوع

هل الحمير أمّة؟ ذلك تساؤل أثاره قارئ فاضل وقد كتب الي رسالة مطولة يعلن فيها استنكاره لعبارة وردت في إحدى مقالاتي عن كتاب يوميات مفتش تعليم، قلت فيها عن الحمير انهم أمّة، ومن رأى القارئ الفاضل أن في هذا التعبير تطرفا غير مقبول أو خطأ يجب المبادرة إلى تصحيحه.

هذا خلاصة ما ورد في رسالة القارئ المطولة.

ونحب أن نطمئن القارئ الفاضل إلى ان كلا من الاحتمالين كما افترضهما غير صحيح فليس في الأمر تطرف مقبول أو مرفوض وليس في الأمر خطأ متعمد أو غير مقصود لأن الحقيقة هي ما ورد في المقال تماما من غير تزيّد او افتعال.

والحمير ككل نوع مما هو دابة ومن كل صادح وباغم، أمّة لها كيانها وذلك ما يقرره القرآن: ﴿**ومن أصدق من الله قيلا**﴾.

يقول تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾.

وتأمل معي قول الله تعالى: ﴿**إلا أمم أمثالكم**﴾.

فهي عبارة واضحة وضوح الشمس في تقرير الحقيقة التي أشرت اليها.

وأعد تأمل العبارة مرة أخرى فستجد أن القرآن لم يكتف بكلمة «أمم» بل اردفها بكلمة «أمثالكم».

وفي هذه الكلمة من الأسرار والرموز ما لا يقض الإنسان منه عجبا.

واذا أضفت إلى هذه الآية الكريمة قول الله تعالى: ﴿**وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا**﴾.

واطلت فيها النظر والتأمل والتفكير تفتحت امامك كنوز من الأمجاد تبهر العيون وتهز القلوب وتجعلك تخر صعقا كما فعل موسى.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

لقاء.. كل أسبوع

لم أكن اتصور وأنا اكتب مقالي الذي نشر في الرائد قبل شهر والذي أشرت فيه إلى عميد الأدب الأمريكي الشاعر روبرت فروست ووفادته إلى روسيا ليقوم بدور الوساطة الأدبية بعد أن فشلت الوساطة السياسية والدبلوماسية.

لم أكن أتصور أن الشاعر الكبير في طريقه إلى توديع الحياة.

فلقد قضى الشاعر الكبير بعد أن عاش تسعة وثمانين عاما على ظهر الأرض اذ ولد في ٢٦ مارس سنة ١٨٧٤ في سان فرنسسكو بكليفورنيا بالولايات المتحدة.

ويذكر مؤرخو حياته ان أباه توفي والشاعر في الثانية عشرة من عمره ولم يكن روبرت مغرمًا بالدراسة في صغره فكان كثير العلل للهرب من المدرسة والتخلف عن الدراسة.

ولكنه رغم ذلك استطاع ان يواصل دراسته الابتدائية والثانوية ثم يلتحق بالجامعة وان كان لم يقضِ بها غير سنتين ونصف السنة ثم هجر التعليم واشتغل بالزراعة والفلاحة وان كان ميله إلى الشعر قد بدا ابان دراسته الثانوية.

ولكنه لاحظ ان سوق الشعر لم تكن نافعة في بلده فباع مزرعته وحمل زوجته وأولاده ورحل إلى انجلترا ولم يخب أمله فلقد نُشر له ديوانان من الشعر حملا شهرته إلى بلاده بحيث انه لما عاد اليها بعد ثلاث سنوات كانت شهرته قد انتشرت هناك وكان ديواناه قد طبعا غير مرة في امريكا ثم دُعي ليتولى تدريس الشعر والمحاضرة عنه في جامعات كثيرة.

وقد اعترفت جامعات الولايات المتحدة بعظمة روبرت فروست وشاعريته فمنحته شهادات شرف كثيرة وعندما ذهب لزيارة انجلترا للمرة الثانية تلقى شهادتي شرف من جامعتي اكسفورد وكمبردج.

وقد خلف الشاعر عشرة دواوين ومجموعات ومختارات متعددة.

ويقول الأستاذ الدكتور «نقولا زيادة» الكاتب اللبناني الذي اقتبسنا منه المعلومات السابقة عن حياة الشاعر الكبير «ويرى النقاد في فروست الشاعر الذي أودع شعره ما في هذه الديار " الجزء الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة " من تقليد صالح وهذا أمر تحسه حتى ولو لم تكن ناقدا أدبيا إذا اتيح لك ان ترى بعض هذه الديار ولكن مع ذلك لا تشعر بأن شعر روبرت فروست اقليمي انعزالي.

تقرأ الكثير من الشعر المعاصر فترى فيه صورا مبهمة لا تعرف لها رأسا من ذنب وتقع فيه على أشياء لا تدري أهي صورة شعرية أم بقع زيت على ثوب وسخ ولكن فروست لم يسف إلى هذا الدرك لقد ظل له أسلوبه الصافي وخيالاته الشعرية التي توحي ولا تفصل وترسم الخطوط الأصيلة دون أن تملأ الصورة بالتفاصيل.

ولكنها لا تتركه ركاما لا معنى فيه بل مجالا للاستيحاء والتعمق والتفكير».

ويقول الدكتور زيادة «كان روبرت ثنائي التفكير يؤمن بالغائب «غير المنظور» ويقبل بالمرئي.. يعتقد بالروحي من الأمور كما يحس بالمادي من الاشياء.

يقبل العقل وحكمه ويرضى بالعاطفة والشعور.. بالمقارنة والمقابلة.. بالتوافق والتضاد.. وقد سماه أحد النقاد شاعر «المتناقضات».. لكنها - في رأي الناقد نفسه - متناقضات لها أساس وفلسفة لا مجرد شرود فكري عاطفي لا يرتكز إلى منطق.

روبرت فروست شاعر الحياة بكل ما في الحياة من خير وشر وفرح وحزن وسرور وأسى.. وأمل وفشل.. ونجاح وخيبة.

وقد عبر فروست عنها لكن بكثير من طيبة الروح فلا مرارة في ألمه ولا تذمر في خيبته، لا استعلاء في نجاحه ولا ترفع - إلا عن الدنايا - في دنيا الناس والأدب.

وظل حياته خجولا تحمله السنون ولا يحملها وترفعه الأيام فتخفض من جفنيه».

هذه فكرة عن حياة الشاعر الامريكي الكبير روبرت فروست وعن أدبه لعل فيها جوابا على السؤال الذي تلقيته من القارئ الفاضل «م.ح.خ».

الشاعرة الأمريكية جوزفين(☆)

شدني كثيراً المقال المترجم في الملحق الأدبي في جريدة الرياض وكان بعنوان «الشاعرة الامريكية جوزفين جاكو بسن تتحدث عن الشعر» وأول ما يجذب انتباه القارئ أو الناقد ان شئت الحقيقة هو ماورد في مقدمة المقال حيث جاء فيه «جوز فين جاكوبسن» عينت كمستشارة شعر في مكتبة الكونجرس عام ١٩٧١م وقد جدد تعيينها لسنة ثانية لعام ١٩٧٢م.

وإذا تجاهلنا تلك «الكاف» التي أصبحت تقتحم على الناس الشعر والكتاب كما يقول عنهم الشاعر العظيم شوقي أصبحت تقتحم عليهم أدبهم وإنتاجهم الفكري حتى لقد صارت تلك الكاف لازمة من لوازم الأدب الحديث بالرغم من كل المقاومات التي يبديها اللغويون وحفاظ التراث في كل ثانية لايقاف هذه الكاف عند حدودها ومنعها من تجاوزها الدخول فيما لا يعنيها من ألوان الصيغ والعبارات.

أقول إذا ضربنا صفحا عن هذه الكاف التي احتلت صدر كلمة «كمستشارة» فإن الكلمات التي نقلناها جديرة بأن نقف عندها طويلا.

وأولا - ومعذرة - إذا كنا أكثرنا من هذه الأولويات..

(☆) مثبت في الأصل الخطي للمؤلف تاريخ ١٣٩٢/٦/٢٧هـ.

وأول دلالات هذه العبارات أو هذا الخبر هو أن التقدم العلمي أو الصناعي أو التكنولوجي مهما بلغ في أمّة من أمم الحضارات القديمة أو الحديثة لا يحول أبداً دون ازدهار الشعر ورقي الأدب وانتشار المعارف الإنسانية.

بل إن الثابت الذي لا يقبل الجدل هو أن الأدب بشتى فروعه يواكب الحضارة ولا يتخلف عنها، بل إنه في كثير من الاحيان يحدوها ويسوقها ويفتح أمامها الطريق، ولعل الأغرب من ذلك هو أن الأدب لا ينهار حين تنهار الحضارة.

وقد يضعف وقد يخف جريانه وقد يصطدم بعقبات وصخور تعوق اندفاعاته ولكنه يظل مؤثرًا أو متأثرا فاعلا ومنفعلا.

ومع ضخامة الحضارة الأمريكية ومع ما يسيطر عليها من أغلال المادة فإن كل ذلك لم يَحُلْ دون أن يلقى الأدب والشعر والفن والموسيقى ما يستحقه من اهتمام ورعاية.

وحسبنا هذا الخبر الذي نعلق عليه وهو تعيين الشاعرة الأمريكية «جورفين جاكوبسن» مستشارة للشعر في مكتبة الكونجرس.. وارجو أن يقف القارئ قليلًا عند عبارة «مستشارة للشعر» فليست مستشارة «إدارية» أو «فنية» في حدود المعنى الذي يقفز إلى أذهاننا حين نسمع كلمة «مستشار»، ولكنها مستشارة للشعر وللشعر فقط.

ولا تدهش يا صديقي القارئ فإن للشعر شأنه الكبير في حياة هذا العالم.

إن تعيين مستشار أو مستشارة للشعر لفتة ذكية فيها تكريم للشعر والشعراء وهي جديرة بالتنويه والإشادة من كل محبي الثقافة الإنسانية الرفيعة.

ونعود إلى الموضوع لنتابع تعليقنا على بعض نقاطه ولم ننته من المقدمة بعد.. فقد ورد فيها عن الشاعرة الامريكية أنها تزاول عملها ببصيرة وحماس واهتمام بآلاف من الامريكان الذين يجلسون بين وقت وآخر فيخطون أبياتا ركيكة من الشعر.

وأولئك الذين يكرسون ما تيسر لهم من وقت لصياغة ما يرتسم بذهنهم من كلمات تعبر عن مشاعرهم وتجاربهم.

وسنمر مر الكرام بكلمة «بحماس» ولو أغضبنا سادتنا اللغويين فهم لا يقبلون هذا المرور لأن كلمة «حماس» كما يقولون لا توجد في معجمات اللغة ولكن توجد في مصادر لغوية أخرى.

ولندع كلمة «حماس» هذه للباحثين في اللغة لنشهد في ابتهاج حماسة الشاعرة الأمريكية المستشارة وهي تستقبل ببصيرة واعية «اهتمام من الأمريكيين ناشئين ومبتدئين في محاولاتهم لاقتحام بحر الشعر أو لارتقاء سلمه كما عبَّر شاعرنا القديم.

وإقبال هؤلاء الآلاف على قَرْض الشعر دليل على الحيوية الدافقة واليقظة الصادقة والانفعالات الخلاقة، والأمّة التي لا تشغلها مطالب المادة عن مطالب الروح ولا عواطف الجسد عن عواطف القلب ولا تقعد بها أرضية الجسم عن التحليق في السماء. أمّة حية قادرة على بناء الحياة وعمران العالم.

وهذا الإقبال العظيم على ولوج عالم الشعر وما يمثله هذا الإقبال في حياته من كريم الدلالات يتممه هذه الرعاية التي تتجلى في ايجاد الرائد والقائد والمعلم الموجه والدليل.

وتلك هي سنة الحياة سارت عليها الكائنات البشرية كما سارت عليها الكائنات الحيوانية.

فالهادي والمرشد والمعلم يفتح الطريق وينير السبيل ويضع المعالم ويحول دون المزالق والعثرات، ووراء كل النابغين هداة لم يبخلوا بعلمهم ولا بتجاربهم على هؤلاء التلاميذ النابغين.

وإذا كان الناس يعرفون كل صغيرة وكبيرة في زوايا منعطف هؤلاء النابغين فإنهم يجهلون كل شيء عن تاريخ أولئك الهداة أو لا يكاد يحفل أحد بتاريخهم أو يعرف شيئا عن جهودهم الكبيرة وأعمالهم الباهرة.

ولو تصدى باحث للكشف عن تاريخ النوابغ، عن الآثار العميقة لأولئك الموجهين المرشدين لاهتدى إلى نماذج من الإخلاص النادر والوفاء الصادق والإيمان العميق.. الإخلاص للخير، والوفاء للثقافة، والإيمان بالمستقبل.

وأمر هؤلاء الهداة «الخلفيين» أو الجنود المجهولين - كما يعبرون في العصر الحديث - أمر فيه عجب وطرافة.. سئل أحدهم مرة وكان معلم شعر في اليونان القديمة - هذا السؤال: نراك تعلم الناس قرض الشعر؟ فكيف يحدث هذا؟ وأجاب المعلم اليوناني العظيم «لا غرابة في الأمر فأنا كالمسن تشحذ ولا تقطع». وهي إجابة صحيحة كل الصحة دقيقة كل الدقة.. فالناس يجهلون دور المسن. أو لا يأبهون به لأن دوره «خلفي» وغير بارز.. ولكن في الحقيقة لأن الناس عادة يشغلون بما يقع تحت أبصارهم وبين أيديهم وقل أن ينتبهوا إلى ما وراء ذلك.. إلا عندما يقع ما ليس في الحسبان..

حدث في الشهر الماضي أن سمعت ضجة وصياحًا في المطبخ فذهبت استطلع الأسباب وإذا بي اكتشف أن أحد الأولاد أخذ المسَنَ من مكانه في المطبخ وأضاعه وجاءت ربة البيت أو أم البنين - كما يقول الأستاذ لقمان يونس - فلم تجد المسن. رغم البحث الطويل فغضبت وأثارت من أجل ذلك زوبعة لم تكن في الحسبان وكنت أرى هذا المسن في المطبخ ولم أكن أعرف الغاية من وجوده، كما لم أفكر في أن اسأل عن ذلك فأنا أجهل الناس بالطبخ، وأزهد الناس في معرفة محتويات المطبخ، وبالوصف عرفت الآلة المفقودة أو المسن الضائع.

ويومها لم يشغلني المسن الضائع بقدر ما شغلني التفكير في أهمية المسن عندما تذكرت قصة المعلم اليوناني القديم وسرحت نحو جهة أخرى مع الشعر والشعراء في الأدب اليوناني والأدب العربي وغفلت عن المطبخ وما فيه، ولا أدري ما حدث بعد ذلك.

أعرف نماذج قليلة من هؤلاء الهداة «الخلفيين» أو «الأماميين».. نماذج رائعة بعضهم كان قادرًا على الإنتاج الفكري الرفيع ولكنه يؤثر ألا يخرج إنتاجه للناس

وبعضهم كان يملك قدرات أخرى وكلهم كان عامر القلب بالإيمان والصدق، يشعر الواحد منهم بسعادة غامرة حين يلمح علامة من علامات التقدم على «تلميذه»، وتغمره فرحة لا توصف وهو يرقب هذا التلميذ يشق طريقه مصعدا في دروب المعرفة ثم هو يتجاهل دوره فلا يذكره، ويأبى على غيره أن يذكره به ولم استطع لهذه الظاهرة تفسيرا إلا بأنها شبيهة بعاطفة الأبوة أو نوع منها.

تلك العاطفة التي تذوب فيها المنافسة والأنانية والحسد وتتحول إلى عاطقة نبيلة، تضحي من أجل البنوة بدون انتظار جزاء أو مقابل.

أذكر واحدًا ممن عرفت من هؤلاء «الهداة» كان أستاذًا للنقد المسرحي في المعهد العالي لفن التمثيل العربي وهو معهد لا يقبل إلا الجامعيين من حملة الليسانس أو البكالوريوس في الآداب، كان معتدل القامة أنيق المظهر يلبس نظارة ذهبية يمتاز بتؤدة وأناة عجيبتين.

كان وجهه يحمل سيماء الجد فلا يمزح ولا يعرف «النكتة» كأنه ليس مصريًا.

ومع أن وجهه كان وسيما بعيدا عن العبوس فلا أذكر أنني رأيته مرة يضحك وإن كنت ألمح دائمًا ظل ابتسامة غامضة على شفتيه ومع أنني صادقته بعد أن تركت المعهد.

وكنت ألتقي به بين آونة وأخرى فنسرح في شتى الأحاديث. وكان يغمرني بعطفه وترحيبه ويحاول أن يزيل من طريق لقائنا كل ما يعكر هذا اللقاء.

وأن يجعله لقاءً وديًا محضا ومع ذلك فإنني - وكنت أيامها طالبا شديد الحياء كثير الخجل - لم استطع أن أنفذ إلى نفسه وأن أعرف سر «جديته» و «ابتسامته الغامضة» وإن كنت قد أحببته أخلص الحب وترك هو في نفسي آثارًا بعيدة المدى.

ما ذكرت أستاذنا العظيم أستاذ النقد المسرحي الدكتور «وهيب كامل» إلا ذكرت كلمة الحسن بن هانئ في استاذه العظيم «عمرو بن العلاء» فقد سأله أحدهم عنه مرة

فقال عنه كلمة لم أقرأ أبلغ منها في وصف سعة العلم قال الحسن بن هانئ في وصف استاذه «ذاك أديم طوى على علم».

وأنا ما ذكرت أستاذنا «الوهيب الموهوب» إلا وذكرت هذه الكلمة فهي أصدق وصف لهذا العلّامة العظيم.

كان يجيد الإنجليزية والفرنسية واليونانية واللاتينية بالاضاف إلى العربية طبعًا، وإذا قلت يجيد فلست أعني أنه يحسن القراءة أو الكتابة أو الحديث بهذه اللغات فذلك أمر ليس متعذرًا وليس مدعاة للدهشة أو الاستغراب فهناك من يعرف لغات أكثر منه ولكن الأمر الذي يدعو إلى الدهشة حقا فهو استيعابه واحاطته بكل الآثار القيمة في هذه اللغات استيعابا وإحاطة مذهلتين.

لا أزال أذكر أول لقاء بيننا معشر الطلاب وبينه دخل إلى قاعة الدرس بنشاط وقور أو بوقار نشط ثم جلس في مقعده كان هادئًا واثقًا من نفسه ثقة لا تُحد.

بدأ درسه بأن طلب إلى الطلاب أن يذكر كل واحد منهم اسمه واسم كليته التي تخرج منها وسنة التخرج ونوع التخصص.

ولم تستغرق العملية طويلًا.

ولكن بعض الطلاب أراد أن يجعل من عملية التعرف أو التعريف هذه وسيلة للحديث في أمور عابثة خاصة وأن كل الطلاب باستثناء الكاتب كانوا موظفين وقد جاء بعضهم للتسلية وجاء بعضهم للحصول على دبلوم جديد وجاء بعضهم للتعرف على لون هذه الدراسة الجديدة.

وقلة قليلة جاءت لتجعل هذه الدراسة وسيلة لتغيير خط سيرها في الحياة.. وقلة أخرى جاءت لاضافة مزيد من الثقافة ولكن أحدًا لم يتصور أن الدراسة ستكون بهذه الجدية إلا عندما حاول بعض الطلاب أن يقتطع قليلا من الوقت «أو كثيرا من يدري» في حديث ضاحك أو عابث، ولكنهم فوجئوا بحركة صارمة من استاذ النقد

جعلت كل واحد يلوذ بالصمت «ويتحسس العاقبة» وأخذ الأستاذ الدكتور يتحدث عن برنامجه الذي يدرسه وعن خطته التي سيسير عليها في تدريس هذا البرنامج.

وقال على كل طالب أن يعد بحثا سيحدد هو موضوعه في المحاضرات القادمة، وكان يدرس لفرقتنا محاضرتين متتاليتين في يوم واحد في الاسبوع.

وجاءت محاضرة الاسبوع التالي في يوم مشهود لا ينساه زملائي فقد بدأ الأستاذ محاضرته بسؤال وجهه إلى طلاب الفرقة جميعًا إذ طلب اليهم أن يذكروا اسم الكتاب الذي قرأوه في الاسبوع المنصرم، وكان سؤاله مفاجأة للطلاب لم يكن في حسبانهم أو لم يقدروه قدرة وكان جوابهم مفاجئا للأستاذ فقد أجابت غالبيتهم بأن ما قرأوه لا يتجاوز بعض الصحف اليومية أو المجلات الاسبوعية المصورة، ودهش الأستاذ لهذه الأجوبة وتحولت دهشته إلى غضب عنيف وانطلق في ثورة عارمة يصب نقمته على الطلاب ويظهر استنكاره من جامعيين يعتمدون في ثقافتهم على صحف يومية ومجلات خفيفة.

وقال إن هذه المجلات والصحف لا يقرأها المثقفون إلا أثناء ركوب الترام أو الاتوبيس بقصد الاستفادة من هذا الوقت الضائع لأن الهدف منها التسلية وقضاء الوقت، أما القراءة الجادة فتكون في الكتب القيمة ذات المستوى الرفيع.

ودهش الطلاب لهذه الثورة وأحسوا أنهم أمام استاذ من نوع آخر لم يألفوه من قبل.

وانتقل الأستاذ بعد هذه العلقة الحامية - إلى موضوع محاضرته فأداها على أكمل ما يتوقع.

وعاد الينا الاسبوع التالي بمفاجأة جديدة لم يحسب لها حساب فقد سألنا عما قرأنا في الاسبوع الماضي وكان كل واحد من طلاب الفرقة قد أعد اسم كتاب من الكتب التي توقعنا أن تكون في المستوى الذي يرضي استاذنا الدكتور.

وكان أكثرنا قد أعد اسم الكتاب ولكنه لم يقرأ الكتاب أو قرأه قبل فترة طويلة بحيث لم يعد يذكر ما فيه.

وبعد ان استعرض اسماء الكتب وعددها أربعون كتابا بقدر عدد طلاب الفرقة.

عاد ليناقش كل طالب فيما قرأ ولم يلجأ إلى الأسلوب السهل وهو أن يطلب إلى كل طالب أن يذكر موضوع الكتاب أو يلخص ما فيه وبذلك يتسنى له أن يناقش كل طالب في موضوع أو أكثر من موضوعات الكتاب.

ولو فعل لما كان عليه في ذلك من حرج ولكنه وقد كادت الدهشة تلجم طلاب الفرقة - أخذ هو يذكر بعض النقاط التي تعرض لها كل كتاب ثم يطلب من الطالب القارئ أن يفصّل الحديث في النقاط التي يختارها له هو - أي الأستاذ - ويناقشه فيه مناقشة من فرغ من قراءة الكتاب لتوه.

واستطاع الأستاذ أن يكشف ادعاء كثير من الطلاب الذين لم يقرأوا الكتب التي سموها أو قرأوها قراءة عابرة أو قرأوا فهرس الكتاب وبعض صفحات منه.

وكانت علقة أخرى هاجم فيها استاذنا الزيف والكذب والادعاء واعتبر ذلك جريمة في حق العلم والثقافة والوطن والأخلاق الكريمة وكانت مفاجأة زملائي طلاب الفرقة مضاعفة فقد استطاع الأستاذ أن يحفظ كل كتاب مقرونا باسم الطالب الذي أورده ولم يخطئ في اسم كتاب ولم يقرنه إلى غير صاحبه.

وقد تلاشت هذه المفاجأة أمام المفاجأة الأكبر وهي إحاطة الأستاذ بكل ما في هذه الكتب من موضوعات بصورة دقيقة.

وأخذت القضية صورة التحدي بين الأستاذ وطلابه فقد أخذ الطلاب يجدون في القراءة ويختارون كتبا بعيدة التناول لا في العربية فحسب بل في الإنجليزية والفرنسية ولم يكن أحد منهم يعرف اليونانية أو اللاتينية وكان قصدهم القاصد هو احراج الأستاذ وايقافه عند حده.

غير أن أحدًا لم يستطع أن يصل إلى شيء من ذلك، وإن كان يبدو أن الأستاذ قد حقق ما يريد فقد ألزم طلابه بالقراءة النافعة الجادة وضمن أن يقرأ كل واحد منهم كتابا واحدًا في الاسبوع على الاقل.

وجاء دور البحوث فخصص لكل طالب موضوعًا من الموضوعات وكان نصيبي منها تلخيص المقدمة المسهبة التي كتبها الدكتور طه حسين لكتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر ثم نقدها.

وقد احتفلت لذلك احتفالا كبيرا ورجعت إلى عدد كبير من المصادر وذكر المصادر في البحث شرط أساسي ولكن الويل كل الويل لمن لا يحسن استخدام المصادر أو لمن يضعها لمجرد التزيد والتكثر والمغالطة.

وكان على كل طالب أن يقدم بحثه في موعد محدد ثم يستعد لمناقشته في الاسبوع التالي.

وقد لاقى أكثر الزملاء عنتا كبيرا من ملاحظات الأستاذ ونقداته اللاذعة مما أخافني فدفعني إلى أن أغادر المعهد بعد أن أبلغته في اليوم الذي تقرر أن يناقش فيه بحثي، وقد حاول أحد أصدقائي من طلاب الفرقة أن يثنيني عن العودة أو عن الهرب - في الحقيقة من مواجهة هذه المعركة - ولكنه لم يفلح في التغلب على الجبن الذي سيطر علي مع أنني لم اتخلف قبل ذلك اطلاقًا.

واستعرض الأستاذ عدد البحوث وكان من بينها بحثي واثنى عليه ثناءً مستطابا واسف لانني لم أحضر - أما أسفي بعد أن علمت بهذه النتيجة فقد كان فوق الوصف، ولا أزال رغم مرور أكثر من عشرين سنة أشعر بمرارة الاسف فكلمة ثناء من استاذنا الدكتور لا تقدر بثمن.. وإن كنت لم آخذ النتيجة على أية حال فقد قربني هذا البحث إلى استاذنا وربط بيني وبينه برباط متين من الصداقة.

ولكن كلمة الحق التي يجب أن تقال هي أن أستاذنا قد استطاع بصدقه مع تلامذته وإيمانه برسالته وفنائه في عمله أن يحول نقمة هؤلاء التلاميذ عليه إلى حب له واعزاز لجهده واشادة بفضله فلا يذكره أحدا إلا بخير.

كان استاذنا يعجب بأرسطو ويجل آثاره وكان يدعو دائما - وقد خصني بهذه الدعوة أكثر من مرة - إلى قراءة كتاب السياسة لارسطو.

وكان من رأيه أن المثقف لا يعد مثقفًا إلا إذا قرأ كتاب السياسة قراءة واعية متأنية وكان يقول إن المثقف العربي لا يستغني عن كتابين - كتاب الله - القرآن - وكتاب السياسة لأرسطو.

ومن الغريب أنني قصرت حتى اليوم في قراءة كتاب السياسة مع انني اشتريته منذ سنوات طوال. ومع ثقتي بنصيحة أستاذنا الكبير .

ان كتب أرسطو الأخلاق والطبيعة والسياسة تحتل ركنا أثيرا عندي في قسم الفلسفة في مكتبتي ولكنني لم أمد لها يدي حتى الآن لسبب لا أدريه فهل يكون هذا المقال دافعًا إلى العودة اليها بعد الهجر الطويل خاصة وأن أستاذنا قد رحل عن هذه الدنيا منذ سنوات قلائل.

لقد أطلت الحديث عن استاذنا لانه نموذج من النماذج الفريدة، ولأنه يصلح شاهدا حيا على ما ذكرته عن دور الهداة أو المَسَنَّات «وهو أديم طوى على علم» وقد ترك آثارًا بعيدة المدى في تلامذته وأبناء جيله، لم يترك من الاثار المكتوبة إلا كتابا صغير الحجم عن «تيودور الصقلي» وهو كتاب لا يدل إلا دلالة خافتة على علمه الغزير وثقافته العظيمة واطلاعه الواسع.

وقد ترك عالم القراءة استاذنا ولاوزن له في دنيا الشهرة بينما تتمتع طائفة من تلامذته بشهرة واسعة في دنيا الأدب والصحافة والاذاعة والسينما والمسرح.

ومن أجل ذلك فأنا لا أتفق مع صديقي على العمير فيما يذهب إليه أثناء مناقشته لما عرف بقضية «الدكاترة» فليس من الضروري أبدا أن يسهم كل دكاترة الأدب في النشاط الصحفي أو الأدب المكتوب.

وأنت لو استعرضت الاسماء اللامعة في سماء الصحافة أو الأدب أو الشعر أو الفن في الشرق أو في الغرب لوجدت أن نسبة الدكاترة أقل النسب بل لو أنك تتبعت حياة المشاركين في النتاج الفكري المكتوب وخاصة في دنيا الصحف والمجلات لوجدت أن نسبة ضئيلة لا تكاد تذكر هي التي دفعها اللقب إلى المشاركة في الإنتاج الأدبي، أما الكثرة الكاثرة منهم فقد كان لها نشاطها البارز قبل الحصول على اللقب، ومن الطريف أنك تجد أن بعض هؤلاء المشاركين قبل حصولهم على اللقب قد عاقهم اللقب عن مواصلة العمل.

فالمسألة قائمة على دوافع خاصة إذا قويت دفعت صاحبها إلى الإنتاج والنشر وقد تدفعه إلى الإنتاج دور النشر وإذا خفتت هذه الدوافع أو تحولت إلى اتجاه آخر خفت الإنتاج أو انقطع.

وليس معنى هذا أن الذي يضطلع به الدكاترة سهل أو هينٌ فمسؤوليتهم ضخمة وعظيمة وتأثيرهم في أجيال المستقبل لا يستهان به، وإنتاجهم لا يقوم بكثرته ولكن يقوم بفعاليته.

وهناك من الاساتذة الكبار من لم يخلّف أثرًا فكريا واحدًا ولكنه خلف آثارًا خالدة باقية ما بقي الإنسان كسقراط مثلًا وأبي حنيفة ومئات لا يحصيهم العدد وهناك من تركوا آثارًا ضخمة مكتوبة إلى جانب آثارهم في تلاميذهم واتباعهم كابن تيمية والغزالي وارسطو وافلاطون ومثل ذلك يقال عن كثير من شخصيات العصر الحديث.

وأعود إلى المستشارة الشاعرة أو الشاعرة المستشارة لألاحظ أن الناس هناك يسيرون في الطريق الطبيعي أو الاتجاه السليم، فهناك يتعلمون ولايرون غضاضة في الاستفادة من خبرات الأساتذة والمعلمين والموجهين.

وهناك من يوجهون ويقدّرون هؤلاء المتعلمين ولا يبخلون عليهم بإرشاد أو تقويم أو توجيه.

وكلا الفريقين يشعر بأنه يعمل من أجل غاية سامية وهدف نبيل في إطار من الود المتبادل والاحترام القائم.

يوميات قصيرة

المدينة أم يثرب:

أوردت جريدة البلاد في عددها الصادر في ٩٢/٦/٧ رسالة لمراسلها في الرياض ضمنتها معلومات من «النشرة النصفية لاحصاءات البلديات التي تصدرها وكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات».

وإصدار هذه النشرة للتعريف بالبلديات والمدن التي تعمل لخدمتها أمر جدير بالثناء والتقدير فعن طريق النشرة يتعرف المواطنون على كثير مما ينبغي أن يعرفوه ويحيطوا به، وبوساطة هذه النشرات تتجمع طائفة كبيرة من المعلومات يصعب تجمعها أو العثور عليها.

ولكن يبدو أن هذه النشرة تصدر في حدود ضيقة ومجالات محدودة.

فمع أن النشرة التي نتحدث عنها هي السادسة أو العدد السادس من أعدادها في عمرها المديد ان شاء الله فإنني لم أسمع أبدا عن صدور هذه النشرة ولم يتح لي أن اطلع على عدد من أعدادها.

فليت وكالة البلديات ولها في مجال النشر نشاط ملحوظ اذ سبق لها أن أصدرت مجموعة من الكتب القيمة في مجال التثقيف الصحي والطب الوقائي.

أقول ليتها تتوسع في توزيع نشرتها أو تضع هذه النشرة في متناول يد من يطلبها.

وليتها تجمع في كتاب سنوي أهم المعلومات التي احتوتها أعداد النشرة في عام.

فإنها بعملها هذا تسهم اسهاما عظيما في خدمة الثقافة والمعرفة وتضع في خدمة الباحثين معلومات ومعارف لا يستهان بها.

ونعود إلى رسالة جريدة البلاد صاحبة الفضل في تعريفنا بهذه النشرة لنشير إلى كلمة وردت في المقدمة وصفا للنشرة وهي كلمة «نصفية» ولست أدري ما المراد بهذا الوصف وهل يعني أنها تصدر كل نصف شهر أم كل نصف سنة؟ ليس في الامكان معرفة ذلك إلا بالاطلاع على اعداد هذه النشرة أو بصدور توضيح ممن يعنيهم الأمر.

على أن هذه ملاحظة على الهامش أما الملاحظة التي شغلتني بصورة حقيقية وشدت انتباهي بشكل غير عادي فهي ما ورد في النشرة - كما تشير الرسالة - عن اسم المدينة فهي تذكر مايلي: «لقد ذكر اسم يثرب اكثر من مرجع من المراجع القديمة وقد عرفت ايضا قبل الإسلام باسم المدينة».

لقد شدتني هذه العبارة شدا قويا لأن اهتماماتي الفكرية التي شغلتني منذ مدة غير يسيرة إعداد دراسة عن كل ما كتب عن المدينة الفاضلة ابتداء من أفلاطون في العصور القديمة إلى توماس مور في العصور الحديثة واستخلاص صورة متكاملة لهذه المدينة ثم تطبيق ذلك على المدينة المنورة فقد بدا لي أنه ليس من قبيل الصدفة ان تسمى يثرب بعد أن هاجر اليها النبي - صلى الله عليه وسلم - باسم المدينة وخاصة وأنه لم يرد في القرآن ولا في الحديث اسم المدينة إلا معرفا بأل.

على اية حال ليس مهما في هذا المجال ذكر كل تفصيلات الموضوع ولكن المهم هنا هو مناقشة عبارة أوردها الكاتب المفضال الذي أعد مقال «المدينة المنورة» في النشرة فهو يذكر أن المدينة «عرفت أيضًا قبل الإسلام باسم المدينة» وهذا هو الأمر الذي يدعو إلى المناقشة فلم اطلع في كل النصوص التي قرأتها - وهي قدر غير يسير - على نص معتمد موثق يفيد أن المدينة كانت تعرف بهذا الاسم قبل انتقال الإسلام إليها.. صحيح أن كثيراً من المصادر الإسلامية عندما تتحدث عن تاريخ المدينة قبل

الإسلام تضع اسم المدينة بدلا من يثرب ولكن من الواضح أن ذلك لا يعني اطلاقا أن المدينة هي الاسم القديم ليثرب أو أن القدامى كانوا يعرفون هذه التسمية.

وإنما يعني تقريب المسألة للسامع أو القارئ كما لو تحدث مؤرخ اليوم عن اقليم الاحساء في العصور القديمة وبدلا من ان يذكر التسمية القديمة التي عرفت بها في تلك الحقب السحيقة وهي البحرين - كما أذكر - يستغنى عن ذلك بذكر اسمها الحديث.

ومما يذكر أن الاسم القديم للمدينة هو يثرب وروده في بعض الاحاديث النبوية كالحديث الذي رواه الطبراني فيما يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**إن الله عز وجل اطلع إلى أهل المدينة وهي بطحاء قبل أن تعمر ليس بها مدر ولا بشر فقال: يا أهل يثرب**» إلى آخر الحديث.

ويروى في الحديث النبوي الآخر في حديث الإسراء: «**أول ما أسري به - صلى الله عليه وسلم - بأرض ذات نخل فقال له جبريل: انزل فصلِّ فنزل فصلى فقال صليت بيثرب**» الحديث.

مع ورود طائفة من الاحاديث تنهي عن تسمية المدينة بيثرب، ولا شك أن ذلك كان بعد الهجرة وبعد أن غدت المدينة عَلَما على الدولة الإسلامية الجديدة وأصبحت مصلحة الدولة العليا تفرض التمسك بهذا العَلَم وتفرض التخلص من الاسم القديم الذي يحمل ذكريات العداوة والفرقة والخلاف والتمزق.

ويجد فيه أعداء الإسلام وخصوم الدولة الجديدة وسيلة للكيد وبث الشحناء واثارة الاحقاد واشاعة البلبلة والفوضى.

لهذا الذي ذكرناه ولغيره مما لم نذكره فإننا نرى أن اسم المدينة اسم إسلامي جاء مع الإسلام فمحا الاسم القديم وتألق هو في سماء التاريخ والحضارة والواقع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وكانت هذه النتيجة إحدى القواعد الاساسية التي اقمنا عليها البحث.

ومع هذا فإنني لا أنكر على الكاتب الفاضل هذه النتيجة التي وصل إليها فقديما قال أسلافنا «من حفظ حجة على من لم يحفظ» ولعل الكاتب المفضال قد اطلع على نصوص لها أهميتها ولها وزنها لم اطلع عليها وكم يسرني أن أعرفها في مصادرها.

ولن تهدم هذه النصوص إذا ثبتت بطريقة علمية صحيحة الفكرة التي يقوم عليها البحث ولكنها قد تتجه به إلى مسارات أخرى وقد تفتح أمامه آفاقًا جديدة.

وفي ختام هذه المقالة أحب أن استدرك على ما سبق أن أوردته بشأن موعد صدور نشرة وكالة البلديات فقد رجعت إلى «الرسالة» مرة أخرى فوجدت فيها حديثا عن مدينة القطيف بدأ بهذه العبارات: «كما تضمن العدد السابع من النشرة النصفية لاحصائيات البلديات التي أصدرتها وكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات عن النصف الأول من عام ١٣٩٠ نبذة عامة عن مدينة القطيف...».

وتوضح هذه العبارة أن النشرة تصدر نصف سنوية.

وبهذا لم يبق مجال لما أوردناه تساؤلا في بداية الحديث عن معنى كلمة «نصفية» فقد ظهر الأمر ووضح الخفاء وزال الالتباس «وقطعت جهيزة قول كل خطيب» ولم يبق إلا ان نختم المقال بما بدأنا به من توجيه الشكر الخالص والتقدير العاطر لوكالة وزارة الداخلية لشؤون البلديات ولمكتب جريدة البلاد في الرياض الذي أتاح لنا هذا اللقاء الممتع وهذه السياحة الفكرية اللطيفة.

الصيف في المدينة(*)

موضوع مقترح:

أنا ضد الموضوعات المقترحة أو المفروضة ربما كان سبب ذلك يعود إلى أنها تذكرني بالامتحان الذي عانيت من متاعبه سبعة عشر عاما في التعليم الابتدائي والثانوي والعالي وأنا لا أزال حتى اليوم «أحلم» بالامتحان، وكثيرا ما أرى نفسي جالسًا في صالة من صالات الامتحان أؤدى امتحانا في مادة جافة ثقيلة على النفس من تلك التي تفرضها المناهج على الطلاب لاسباب «غير منطقية ولا معقولة»ولعل هذا كان من أهم الاسباب في اقتناعي بالفكرة التربوية التي تقول إن المواطن الجاهل خير من المواطن «المعقَّد» الذي عقَّده الامتحان، وترمي هذه النظرية كما هو معلوم إلى إلغاء الامتحانات في التعليم الابتدائي على الأقل والموضوعات المقترحة في الواقع امتحان يستدعي لوذعية من الكاتب وسرعة بديهة.. وهاتان صفتان كريمتان، سعيد من يتمتع بهما، وأنا إنسان أوثر الأناة والتأمل الطويل وهما صفتان أترك وصفهما للقراء ويكفي أن يعلم القارئون ان هاتين الصفتين خلقتا جوًا غير محبب بيني وبين بعض صحفنا ومجلاتنا فبعض كرام المحررين يتفضلون بتوجيه استفسار أو أسئلة صحفية ويحددون ميعادا ولكن هاتين الصفتين «السيئتين» تحولان بيني وبين تلبية رغباتهم في الوقت المناسب على أن كرهي للموضوعات المقترحة يتفق مع رأي عن التزام الأدب فكما أن الالتزام بمعنى من المعاني يعتبر تقييدا لحرية الأديب

(☆) نشر في مجلة الرائد بتاريخ ١١/٤/١٣٨٤هـ الموافق ١٠/٩/١٩٦٢م العددان (١٢٩/١٣٠).

ففرض الكتابة في موضوع معين فيه نوع من القيود التي تتنافى والحرية التي يجب أن يعيش في جوها الأديب.

موضوع طريف:

نسوق هذه المقدمة الطويلة نوعا، بين يدي هذا الموضوع الذي أقترحه صديقنا رئيس التحرير وكنت على وشك أن أعتذر للصديق العزيز ولكنني والفضل للأناة لاحظت طرافة في الموضوع من جهة كما لاحظت أن شقا من الموضوع المقترح شغل بالي فترة من الوقت والموضوع الذي أقترحه الصديق هو «الصيف في المدينة المنورة والحياة في النخيل في الصيف» وهو موضوع طريف كما رأى القراء.

الصيف:

والصيف كما يعلم القراء واحد من فصول السنة الأربعة وقد أكثر العلماء من الحديث عن ميزة كل فصل ولم يقتصر الأمر على النثر فقد نظم كثير من الشعراء في هذا الموضوع وفي كتاب «نهاية الأرب» للنووي أرجوزة طويلة في تفصيل هذه المزايا.

وفصول السنة كما هو معلوم الشتاء والخريف والصيف والربيع وفي بعض البلاد تظهر الحدود واضحة بين فصل واخر اما بلادنا فتكاد الفصول أن تتقلص فلا يوجد غير الشتاء والصيف.

والشتاء في المدينة قارس شديد البرودة والحر شديد كذلك ولكن أيامه أطول من أيام الشتاء.. والصيف فصل الانطلاق ما إن تخف وطأة الحرارة في النهار وتأخذ الشمس طريقها إلى الغروب حتى يخرج الناس إلى المنتزهات المختلفة يقضون فيها وقتا طيبا يتزودون فيه بزاد من النسمات الباردة المنعشة للنهار القادم كما تقوم جماعات من السكان في فترات متفاوتة لقضاء يوم كامل في أحد البساتين التي تحلق بالمدينة من جميع نواحيها حيث يستمتعون بالجو اللطيف والأزهار العبقة والمروج الخضراء والنخيل السامق وحيث يستحمون في احواض السباحة وهي

الموجودة في كل بستان وأهم المنتزهات الحالية هي عروة وطريق المطار والعاقول وآبار علي وسلطانة والوحدة الزراعية وقباء.

وعروة هو اسم التابعي الجليل عروة بن الزبير وكان له قصر في وادي العقيق كان مضرب المثل في الفخامة والجمال وقد استطاع اسمه أن يتغلب على اسم الوادي فعرف المكان باسم عروة ونسي الناس اسم العقيق ووادي العقيق واد مبارك.. وقد جاء في الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول بوادي العقيق: «**أتاني الليلة آتٍ من عند ربي فقال صلِّ في هذا الوادي المبارك**».. وعن عمر رضي الله عنه مرفوعا «العقيق واد مبارك» ويروى عن عامر بن سعد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ركب إلى العقيق ثم رجع فقال: «**يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطنه وأعذب ماءه قالت: قلت يا رسول الله أفلا ننتقل إليه قال وكيف وقد آتينا أتيني الناس**».

ويروى عن أنس رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى وادي العقيق فقال: «**يا أنس خذ هذه المره املأها من هذا الوادي فإنه يحبنا ونحبه» فأخذتها فملأتها**».

قال الشاعر عامر بن صالح في قصر عروة وبئره.

حبذا القصر ذو الظلال ... وذو البئر مبطن العقيق ذات السقاة
ماء مزن لم يبغ عروة فيها ... غير تقرب الإله في المقطعات
بمكان من العقيق أنيق ... بارد الظل طيب الغدوات

وقال السري بن عبدالرحمن الأنصاري:

كفنوني إن مت في درع أروى ... واستقوا لي من بئر عروة مائي
سخنة في الشتاء باردة في الصيف ... سراج في الليلة الظلماء

وماء عروة ماء معدني عذب كان يهدى لهارون الرشيد في قوارير ومن مميزاته أنه يفتت الحصا وكذلك فمن النادر أن تجد شخصاً من أهل المدينة مصاباً (بحصوة) وهذه البئر من مآثر المدينة ومن واجب البلدية أن تهتم بها.

حدثني طبيب صديق بانه واثق كل الثقة من أن ماء بئر عروة لا يقل عن ماء منش وانه لو وجد العناية والنظافة والتعقيم لاستغني عن ماء منش وتقع المنتزهات الثلاثة عروة وسلطانة وابار علي على وادي العقيق. ولا تكفي هذه العجاله في الحديث عن هذا الوادي المبارك الذي كان كالزمردة الخضراء أيام التابعين وبني امية فلم يبق منه اليوم غير نخلة واحدة والامل كبير في السد الجديد الذي سيكون له أكبر الأثر في توفير الماء لسكان المدينة وفي استعادة ما فقد هذا الوادي العظيم من مزارع وبساتين.

العاقول:

وهو عبارة عن بحيرة نشأت من تجمع السيول في مكان انفجر فيه بركان ظل يقذف اللهب والحمم فترة من الوقت ثم برد وترك قاعًا عميقًا امتلأ بامطار السيول.

ومنظر هذه البحيرة من المناظر الرائعة التي تهز القلوب.. واسميه أنا بالبحر الأخضر، ولسبب غير معروف لم يفكر أحد في إقامة مقاهٍ أو كازينوهات حوله مع أن المنظر كما قلت من المناظر النادرة ومع أن الطريق كله مسفلت وطوله إلى المدينة حوالي عشرين كيلو متراً.

الوحدة الزراعية:

تقوم الوحدة الزراعية حول بئر رومه أو بئر عثمان وهي بئر كان يملكها يهودي ويبدو أنه لم يكن يوجد غيرها في المنطقة الموجودة فيها، فكان الناس يلقون منه عنتًا شديدًا وكان يبيع الماء بثمن باهظ، وحث النبي - صلى الله عليه وسلم -أصحابه على شراء هذه البئر واستطاع عثمان بن عفان رضي الله عنه بعقليته التجارية

الممتازة أن يوقع اليهودي في مأزق اذ رفض اليهودي أن يبيع أكثر من نصف البئر فقبل عثمان واشترى نصف البئر واتفق معه على أن يكون له يوم واليهودي يوم فكان الناس يأخذون في يوم عثمان ما يكفيهم مدة يومين من غير مقابل واكتشف اليهودي انه وقع ضحية جشعه فطلب إلى عثمان ان يشتري النصف الباقي وقد كان وظلت البئر تحتفظ بالاسمين.

حول هذه البئر قامت الوحدة الزراعية ونجحت في أعمالها نجاحا طيبا بفضل القائمين عليها ونخص بالذكر الأستاذ عز الدين أحمد كامل المهندس الزراعي الذي بذل الكثير من جهده وعلمه وفنه حتى جعل من محطة التجارب هذه جنة يأوى اليها الناس في شهور الصيف لقضاء يوم أو بعض يوم بين الأشجار المختلفة ينعمون بالجو العليل ويقضون وقتا طيبا في مشاهدة حيوانات المحطة ودواجنها وطيورها ويلمسون العمل المنتج والجهد المبذول ومنذ بدأ الصيف والوحده تستقبل العشرات والمئات يوميا من الشباب والاطفال والاسر والعائلات منذ الصباح الباكر حتى المساء.

قبـــــاء:

استأثرت عروة باهتمام الناس فكانوا يفدون إليها زرافات ووحدانًا يقضي بعضهم فترة قصيرة ويقضي بعضهم فترة أطول ويقضي قسم ثالث الليل كله حيث يصنع «السليق» الطعام الشعبي المعروف، ثم جاء سيل كسيل العرم في العام الماضي أخذ في طريقه جميع المقاهي، وكان ذلك بداية لانتعاش منطقة قباء هذه المنطقة التي كان ينبغي أن تنتعش من وقت طويل فهي منطقة زراعية والجو فيها عليل بليل.. أن المقاهي اليوم في وسط المروج والبساتين يطل عليها اول مسجد أسس على التقوى ويتوجها النخيل وتجد في هذه المقاهي كل ما شئت من الوان الطعام والشراب من الرز البخاري والسليق حتى المطبق والمقليه.

الصيف والنخيل:

ويقضي بعض اصحاب البساتين الصيف كله فيها كما يبيع قسم منهم ثمار البساتين للراغبين فيها على ان يتولى هؤلاء ازالتها من البساتين وبيعها للناس.. هذه العملية «صيف» وتباع هذه الصيوف بمبالغ تتراوح من الالف ريال والثلاثين الف ريال حسب اتساع البستان أو ضيقه.

ويقودنا هذا الحديث إلى الكلام عن النخل.. والنخل في المدينة قديم جدا حتى لقد سميت بذات النخل قال عمران بن عاد الكاهن يصف البلاد لقومه «ومن كان منكم يريد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بالحرة ذات النخل» يعني المدينة.

في القرآن الكريم:

اهتم القرآن الكريم بالنخل فقد تحدث عنها في عشرين موضعا هي..

﴿ومن النخل من طلعها قنوان دانية﴾.

﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله﴾.

﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل﴾.

﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾.

﴿وزروع ونخل طلعها هضيم﴾.

﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾.

﴿تنزع الناس كانهم أعجاز نخل منقعر﴾.

﴿فيها فاكهة ونخل ورمان﴾.

﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

﴿فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا﴾.

﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾.

﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾.

﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾.

﴿ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد﴾.

﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب﴾.

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا﴾.

﴿فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾.

﴿أو تكون لك جنة من نخيل وعنب﴾.

﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾.

﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون﴾.

الحديث الشريف:

مجّد الرسول - صلى الله عليه وسلم - النخل تمجيدا رائعا فقد ورد في صحيح البخاري قال حدثنا قتيبة حدثنا اسماعيل بن جعفر عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي**» فوقع الناس في شجر البوادي قال عبدالله ووقع في نفسي انها النخلة فاستحييت قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله قال: «**هي النخلة**».

كما ورد في أحاديث كريمة عن بعض أنواع التمور روى مسلم «**من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يصب بشيء حتى يمسي**» في الصحيحين.

وفي الصحيحين «**من تصبّح بسبع تمرات عجوات لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر**».

وفي صحيح مسلم حديث «**إن في عجوة العالية شفاء**» وروى أحمد رجال الصحيح حديثا فيه «**والعجوة من الجنة**».

في الشعـــــــر:

الأمر الذي آثار دهشتي حقيقة هو أن عناية الشعراء من اقدم العصور حتى الآن بالنخل عناية لا تكاد تذكر فالشعراء العرب الذين لم يتركوا شيئا مما تقع عليه حواسهم إلا ذكروه وصوروه صورا رائعة لم تستثر النخلة اهتمامهم، فقلّ أن تعثر على وصف لهذه الشجرة الكريمة، وإذا عثرت فهو الكلمة العابرة والإشارة الخاطفة ولم يقتصر ذلك على الشعراء القدامى بل تعداهم إلى المحدثين فالباحث غير واجد حديثا قيّمًا عن هذه الشجرة في الشعر الحديث وشاعر واحد من المحدثين اطلق على ديوانه اسم «احلام النخيل» وليس تحت يدي الديوان الان لأعرف مدى عنايته وانفعاله بهذه الشجرة.. وشوقي واحد من الشعراء القلائل قَصَر قصيدة بكاملها على تصوير هذه الشجرة الكريمة فهو يقول.

أرى شجرا في السماء احتجب ... وشق العنان بمرأى عجب
مآذن قامت هنا أو هناك ... ظواهرها درجٌ من شذَب
وليس يؤذّن فيها الرجال ... ولكن تصيح عليها الغُرُب
وباسقة من بنات الرمال ... نمت وربت في ظلال الكثب
كسارية الفلك كالمسـ ... ـلة أو كالفنار وراء العبب
تطول وتقصر خلف الكثيب ... إذا الريح جاء به أو ذهب
تخال إذا اتقدت في الضحى ... وجر الأصيل عليها اللهب
وطاف عليها شعاع النهار ... من الصحو أو من حواشي السحب
وصيفة فرعون في ساحـ ... ـة من القصر واقفة ترتقب
قد اعتصمت بفصوص العقيق ... مفصلة بشذور الذهب
وناطت قلائد مرجانها ... على الصدر واتشحت بالقصب

وشدت على ساقها مئزرا تعقد من راسها للذنب
أهذا هو النخل ملك الرياض أمير الحقول عروس العزب؟
طعام الفقير وحلوى الغني وزاد المسافر والمغترب؟
فيا نخلة الرمل لم تبخلي ولا قصرت نخلات الترب
وأعجب كيف طوى ذكركن ولم يحتفل شعراء العرب
أليس حرامًا خلو القصائد من وصفكن وعطل الكتب؟
وأنتن في الهاجرات الظلال كأنَّ أعاليكن العَبَب
وأنتن في البيد شاة المعيل جناها بجانب أخرى حلب
وأنتن في عرصات القصور حسن الدمى الزائنات الرحب
جناكن كالكرْم شتى المذاق وكالشهد في كل لون يحب

نعم يا شوقي إن من العجب ألا يحتفل شعراء العرب بهذه الشجرة وانه لحرام خلو القصائد من وصفها وعطل الكتب مع ان الشعراء قد احتفلوا بالصحراء والبحر.

التمر غذاء كامل:

ثبت أن النخل من اقدم النباتات التي عرفت في الشرق الاوسط وكان معروفا من القرن الخمسين قبل الميلاد، ولقد عرف المصريون القدماء النخيل وعثر في كثير من الأديرة القبطية على أسطورة توضح ما كان للتمر من قيمة غذائية عند القساوسة والرهبان.. ويرجع ذلك إلى أنه كان طعام مريم أثناء حملها بالمسيح عليه السلام وقد ثبت لدى علماء التغذية أنه في مقدور الإنسان أن يقتصر في غذائه على التمر وحده ولعدة اسابيع فإنه يفي باحتياجات الجسم الغذائية.

وهو من أغنى الفواكه في الفيتامين.

وهذا ما تدل عليه الآيه ﴿**وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا**﴾.

فقد اعتبر القرآن التمر غذاء كاملا.

كما ورد في الحديث الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأسرته كانوا يقضون مدة تزيد على الشهر وما يطعمون غير الاسودين التمر والماء.

نباتات النخيل:

ثبت انها ذات قيمة اقتصادية فيستعمل سوقها في البناء والتجارة، وأليافها في صناعة الحصر والسلال والمكانس كما أن في الامكان استخراج الزيوت من النوى بكمية طيبة وما تبقى منه يصلح علفًا ممتازًا كما أن جُمَّارَ النخلة له أكثر من ميزة فهو يؤكل وله طعم لذيذ وتشبه به السيقان البيضاء الناعمة مثلا كما يقول الشاعر.

هذه السيقان جماد ذكا في القلب جمرا

وله فوائد طيبة أخرى يعرفها بعض الناس.

أصناف النخل:

أصناف النخيل في المدينة تتجاوز المائة وبالإضافة إلى تمور المدينة الأصلية فقد زرعت انواع اخرى من النخل استوردت من العراق والجزائر ووادي الصفراء ووادي الفرع ووادي العيص ووادي ينبع وخيبر والعلا والقصيم والوشم والعارض وتربة وبيشه ويزيد عدد النخيل في المدينة عن مليون نخلة.

معلومات عن النخيل:

وللفلاحين في زراعة النخل طرق خاصة وقد ثبت ان ظل النخلة يؤثر على النخلة الاخرى أكثر من تأثير ظل جدار او غيره والمسافة المتوسطة بين نخلة واخرى هي ثمانية امتار في المتوسط وكلما زادت المسافة كان ذلك أفضل.

وعمر النخل يشبه عمر الإنسان.. من النخل ما يمتد به العمر حتى يتجاوز المائة ومنها ما يموت في الأربعين وبعضها يموت من الحمل وكما ان الإنسان إذا بلغ من العمر عتيا يصبح عديم الفائدة فكذلك النخلة كلما تقدمت في السن كلما قلّت فائدتها حتى تنعدم.

ويثمر بعض أنواع النخل بعد ثلاث سنين من غرسه وبعضه لا يثمر إلا بعد مرور ثماني سنين وللنخل مناعة فهو يستطيع ان يصبر عن الماء مدة ثمانية أو عشرة أيام في الشتاء وفي الصيف ثلاثة او أربعة أيام.

عناية أهل المدينة بالتمور:

كانت عناية سكان المدينة بالتمر مضرب المثل فكان طبق التمر ضرورة في كل مائدة وكانوا من اجل ذلك يختزنونه في صفائح بطرق تحفظه سليما من التسوس والفساد وكانوا يضعون معه كمية من السمسم أو حبة البركة كما كان بعضهم يستخرج منه النوى ويضع مكانه «لوزا» ولم يكن بيت يخلو من هذه الصفائح المختزنة ولكن هذه العناية اخذت تضعف حتى كادت تنعدم بعد ان غزت أسواقنا المرَّبيَات والحلويات على اختلاف أنواعها.

وكانوا يتفننون في صنع أصناف منه، فهناك العصيدة التي تصنع من بعض أنواع التمر وهناك الخشاف وهناك التمر المقلي في السمن والتمر الممزوج بالسمن وهناك الوان أخرى لا تعرف الان وكذا جنت المستوردات الحديثة على «الرزق الحسن» كما عبر القرآن ﴿**ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا**﴾.

بعض الطرائف:

١- يوجد رجل أسود كفيف البصر ولكنه يتمتع بمميزات فهو يركب الدراجة كما يركبها أي مبصر من شياطين الإنس ويسير بها بكل سرعة وثقة ولم تقع منه حوادث حتى الآن وأرجو أن يلمس القراء الخشب حتى لا تصيبه عين أحدهم «وعين السحود فيها عود» كما يقولون.

٢- من أعاجيب هذا الرجل أنه يصعد أي نخلة بسرعة غريبة ومن المؤكد أنه لو دخل في رهان مع القراء فسيكسب هذا الرهان لأن صعود النخلة ليس بالأمر السهل كما يظهر لأول وهلة ومن لم يصدّق فليتقدم وليجرب وقد أُعذر من أنذر.

٣- الأمر الاعجب من هذا أن الرجل بعد أن يصعد إلى نهاية النخلة حيث التمر يأخذ في جمع «البلح» الاحمر والاخضر والاصفر كل على حده فلا يخطئ. وهذه ميزة أخرى نشك في ان يستطيع مجاراته فيها مبصر. فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

٤- تمتاز المدينة المنورة بأنه يوجد في كل بستان حوض ماء كبير يملأ كل يوم مرة أو أكثر ويؤدي هذا الحوض عدة أغراض فهو يضيف إلى روعة الزرع جمال الماء، ومعروف ما في اجتماع الخضره والماء، ثم هو يستعمل في الاستحمام وماؤه بارد لطيف والاستحمام في الصيف بماء بارد متعة لا تكاد تعدلها متعة وخاصة حين يصحب هذا الاستحمام الوان من المرح البريء بين مجموعة من الرفاق.

أما الغرض الثالث وربما كان الغرض الاساسي فهو استعماله لري الحياض على اختلاف انواعها. وماء هذه الاحواض ماء نقي نظيف لانه يتجدد باستمرار وربما تجدد اكثر من مرة في اليوم.

ومن أجل هذا فقلَّ أن تجد من سكان المدينة من يجهل السباحة ويعجبني قول الشاعر:

لا اركب البحر اخشى ... علي منه المعاطب
طين أنا وهو ماء ... والطين في الماء ذائب

أما لماذا يعجبني هذا القول؟!.. فالمعنى في قلب الشاعر.

٥- فكر بعض اصحاب البساتين في استغلال احواضهم استغلالا طيبا فسمحوا للأطفال بالاستحمام فيها مقابل مبلغ لا يتجاوز «ربع ريال» وهي فكرة موفقة لانها عالجت طرفا من مشكلة الفراغ التي كثرت منها الشكوى بطريقة بارعة.

والغريب أنني لم أعرف هذه القصة إلا وأنا أكتب هذا المقال وكنت أود أن أذكر اسماء البساتين التي تقوم بهذه العملية لولا انني خشيت ان يعترض قسم الاعلانات في الرائد.

٦- قلنا ان النخل يشبه الإنسان وذكرنا بعض أوجه الشبه ونحب أن نضيف هنا ان النخل ينقسم إلى ذكور واناث.

ويطلق على الذكر اسم «الفحل» ومهمة هذا الفحل تلقيح الانثى بالمادة المعروفة «الطلع» وإذا كانت النخلة قريبة من الفحل تلقحت بطريق الهواء والله يقول ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح**﴾.

أما إذا كانت بعيدة فلا بد من قيام شخص بعملية التلقيح.

ومن أجه الشبه العجيبة كذلك أن رائحة الطلع تشبه رائحة المادة المنوية في الرجل.

٧- كنا نجلس منذ يومين في بستان الرجل المضياف والفلاح الاصيل الشيخ حليت المسلم في جو شاعري حيث يحف بنا النخل من جميع النواحي وأضفى علينا هالة رائعة من السحر والجمال وإذا بنا نسمع صوت غصن ينكسر واعتقدنا ان شخصا قام بعملية التكسير ولكننا عندما نظرنا لم نجد شخصا فوق النخلة أو تحتها وبادر الشيخ حليت ليزيل دهشتنا فاكد لنا أن الغصن وحده تكسر.

٨- من واجبنا أن نحيي هذا الرجل الشيخ حليت مسلم فبالاضافة إلى أنه كريم مضياف فهو فلاح أصيل وكلمة فلاح أصيل تعني شيئًا كبيرا، لقد قال لنا أثناء حديثه أنه مغرم بالنخل إلى درجة الوله والهيام وانه رحل إلى جهات كثيرة بقصد زيارة مزارع النخيل والتعرف على أصنافه.. والغرام بالعمل - أي عمل - إلى درجة الهيام مفتاح النجاح.. ليت كل مواطن يحب عمله إلى درجة الهيام.. إننا لو فعلنا ذلك لحققنا الاعاجيب والشيخ حليت ليس فلاحا أصيلا فحسب بل هو بالاضافة إلى ذلك مثقف ثقافة واسعة وهو في هذه الأيام مكب على حفظ القرآن ودراسة تفسيره وهذه هِمّة مشكورة تستثير الإعجاب.

كما نحيي رجلا كريما نبيل الخلق لطيف المعشر واسع الهمة يملأ قلب الجالس إليه وعقله بحديثه الجميل المعطر بلمسات من الدين والإيمان، الرجل الذي لا يصل

أحد إلى منطقته إلا ويكون أول من يفكر في القيام بزيارته والسلام عليه.. ذلكم هو الشيخ عبدالحميد عباس رئيس هيئة الزراعة بالمدينة.

وبعد.. هذا حديث عن الصيف والنخيل إن جاء كما يريد القراء وكما يريد الصديق أبو مدين فالفضل في ذلك يعود له فهو صاحب الفكرة وان لم يجئ كما يريد ويريد القراء فالذنب يعود إلى أنه موضوع مفروض وأنا أكره الموضوعات المفروضة.

على أنني كسبت اشياء ذات قيمة اذ جلست إلى بعض كرام الرجال ممن يمارسون الزراعة فاستفدت الكثير من المعلومات التي كان سيمضي عليّ وقت طويل قبل أن أعرفها، كما قرأت بعض كتب لم يكن في حسباني إنني أجد الوقت لقراءتها.

وهناك مكسب ثالث في منتهى الاهمية هو إنني استمتعت عدة أيام بالجلوس وسط المروج والزروع والبساتين وادركت مدى الوهم الكبير الذي يعيش فيه الناس فهم يسافرون إلى الخارج بحجة الاستمتاع بالمناظر الخلابة والجو اللطيف، وأشهد أنني استمتعت بمناظر رائعة نادرة المثال، لقد رأيت مناظر النخيل وهي تشكل الوانا من الفن الالهي المبدع وكنت أسبح في تأملات عميقة لم يكن يوقظني منها إلا حديث يوجهه احد الجالسين الي فكأنني استيقظ من حلم جميل.

ليت شعبنا يولي الزراعة العناية الكافية وليت حكومتنا تقدم مزيداً من الخدمات والإعانات للمزارعين.. ولعل المدرسة الزراعية التي قررت وزارة المعارف إنشاءها بالمدينة تستطيع ان تقدم بعض الخدمات الفعالة في إنهاض الزراعة.

أماكن ومحلات

الإنسان ميال بفطرته إلى التعلق بالقديم والتشبث بكل ما يتصل به من قريب أو بعيد، لأنه يرى فيه انبثاقا لوجوده، وأساسا لأصوله ومعدنًا لحَسَبه ونَسَبه، ولا يستطيع الإنسان أن يستمتع بحاضره أو يندفع في دروب مستقبله إلا إذا كان له ركائز من ماضيه، فالقديم اذن ان ذهبت أيامه وانطوت بعض رسومه إلا أنه يعيش في اعماق الإنسان قويا ثابت الاصول مكين الاساس، لقد كان الاعتزاز بالقديم في وقت من الأوقات سبب هلاك لبعض الاقوام وحاجزا بينهم وبين اتباع الحق «إنا وجدنا أباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون» وكان الاعتزاز به سببا في نهضة أقوام آخرين ومنطلقا لصنع بطولات عظيمة تتكافأ مع عظمة ذلك الماضي الأصيل.

وعلى كل حال ليس من السهولة بمكان - في نظري - أن يفرط المرء في موروثاته أو أن يتجاهل مايمس قديمه وماضيه.. ومن هنا جاءت الحكمة الشعبية «قديمك نديمك - لو أن الجديد أغناك».. أقول هذا وأنا أرى بعض معالم مدننا تتغير بحكم حالات التطور الكبير الذي تعيشه بلادنا الحبيبة تتغير في أشكالها ومضامينها وأسمائها.

إن التطور سُنّة الكون والتغير ديدن الحياة.. هذه سلسلة لا يتناقش فيهـــا اثنان ولا يتدبر فيها رأيان.. ولكن ألم يكن من الممكن الحفاظ على بعض معالم القديم؟.. لقد أصاب هذا التغير الشامل ذكرياتنا بالنضوب ومشاعرنا بالجفاف، التغيير الضروري لا مفر منه لتجميل المدن وجعلها تتناسب مع المرحلة الحضارية التي نعيشها ولكن ما الداعي - مثلا - لأن نغير اسماء بعض الاماكن والمحلات، ان هذه الأماكن في مكة والمدينة لها دلالات تاريخية مرتبطة بتاريخ الإسلام وتشريعاته، فهذا المكان نزلت فيه الآية الفلانية، وهنا وقعت الحادثة الفلانية. وهناك كان

الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه فقال كذا وكذا.. وهي في الرياض - مثلا - لها ارتباط بتاريخ حركة الأصلاح والبناء والتكوين وبما كان للارض والحوادث من دلالات.

ولذلك نرى الناس لحد الآن يصرون على التسميات القديمة رغم وضع بعض اللوحات بالاسماء الجديدة.

نحن لا ننكر ما للاسماء الجديدة من علاقة مباشرة بتاريخنا أيضًا ولا ننكر مالها من صلة بوجداناتنا الوطنية والإسلامية والعربية، ولكننا لا نفضل ان نطمس بها غيرها ما دام في الامكان الجمع بين الفضيلتين وذلك بترك القديم على قدمه إلا إذا وجد مبرر لا مناص منه «وضع الاسماء الجديدة لمنشآتنا الحديثة».

هذا الاقتراح نسوقه للمسؤولين في البلديات.. واقتراح آخر نسوقه للرئاسة العامة لتعليم البنات وذلك فيما يخص أسماء المدارس بالارقام فهذه المدرسة الخامسة والثلاثون وتلك الثامنة والعشرون، وهذه المتوسطة الأولى وتلك الثانية والثالثة والرابعة الخ، وسيل من الارقام لا أول له ولا آخر ألا يمكن أن نضع لكل مدرسة اسما معينا أسوة بمدارس البنين.

وذلك بأن نسميها باسم بعض صالحات المسلمات في التاريخ أو عظماء الرجال، أو ببعض الاسماء المعنوية مثل - الوفاء - النجاح - الصلاح - العفة إلى غير ذلك من الاسماء التي تحمل اسماء للقدوة أو تهدي إلى السبيل الراشد والطريق القويم، ولا اعتقد أن في وضع اسماء بعض النساء من صوالح المسلمات أي ضير بالأخلاق أو الفضيلة ولا فيه أي منافاة لاصول الإسلام أو فروعه.

وهو مجرد اقتراح على كل حال قد يقلل من معركة الارقام على لوحات مدارس البنات ويجعلها أكثر استقرارًا والله من وراء القصد.

المتنزهات متنفس المدن الحديثة

الناس في الأرياف وفي الصحراء أو على سفوح الجبال قد لا يحسون بالضيق ولا يشعرون بالملل ذلك لأنهم اعتادوا أسلوب حياتهم ونمط معاشهم ومردوا عليه، ولأنهم قد يكونون في شغل شاغل عن مرض أهل المدن، ألا وهو مرض الملل، فهم إما عاملون في حقولهم ومزارعهم أو رعاة لإبلهم وأغنامهم، ليس لهم وفرة من وقت يصيبهم فيه ملل أو ضيق، أما سكان المدن الذين ضاقت بهم مساكنهم وضاقوا بها وغزت الآلة أسماعهم وأبصارهم وقللت من أهمية عضلاتهم وأيديهم في العمل وقامت عنهم بالعبء الأكبر فيه فإن الملل يسري من نفوسهم مسرى الدم في العروق، لذلك نراهم يبحثون عن متنفس لهم خارج بيوتهم وشققهم، بعيدا عن أماكن عملهم ومجال حركتهم اليومية الرتيبة، وذلك في الحدائق العامة والكازينوهات الراقية والمسارح ودور الخيالة والنوادي الرياضية والأدبية وغيرها.

ومن هنا يطالب المفكرون في كل أمّة: البلديات ومجالس تخطيط المدن بأن تضع في حسبانها مثل هذه المتنزهات عند أي عمل تخطيطي في هندسة المدن هذا بالنسبة للكبار، أما الصغار فإن لهم عالمهم الصغير ايضا كمدينة الملاهي التي تضم العديد من الالعاب المناسبة لسن الطفولة.

وهذه المتنزهات بجميع أنواعها هي خير وسيلة للترفيه البريء الذي يعالج صدأ القلوب ويزيل سأم النفوس ويصون الاجسام ويسمو بالأرواح.

نحن لا نطالب بانشاء المسارح ودور السينما فلذلك شأن آخر له ظروفه وملابساته، وليس من همنا الخوض فيه، ونحن لا نطالب بانشاء النوادي الرياضية فهي بحمد الله موجودة في كل مدننا الكبرى وحتى في الارياف، والدولة ممثلة في الرئاسة العامة لرعاية الشباب تبذل عليها بسخاء وتهتم بها أيما اهتمام وتهيئ للشباب فيها جميع وسائل الراحة المترفة، ولكن ليس كل الناس هواة للرياضة مرتادين نواديها.

ونحن لا نطالب بانشاء النوادي الأدبية فهي ايضًا موجودة في كبريات مدننا ويعمل أكثرها بنشاط وفي مقدمتها نادي المدينة المنورة الأدبي.

ولكننا نتجه بالاقتراح إلى المسؤولين في البلدية بالمدينة المنورة وإلى أصحاب الثراء ورجال الأعمال أن يفكروا جديًّا في إقامة بعض الحدائق العامة[1] التي يمكن للناس اللجوء إليها من حر الهاجرة ولفح السموم، ويجدون فيها الشجرة الخضراء والزهرة النضرة والمقعد الجميل.. يجد فيها أطفالهم متسعًا في المكان لانطلاقهم في شيء من الحرية والبهجة والسرور، ان وجود مثل هذه الحدائق أمر ضروري يحس به كل مقيم في المدينة المنورة ويتمنى من صميم قلبه لو ظفرت هذه الرغبة بما يتناسب مع أهميتها من حسن استقبال حتى تأخذ طريقها إلى حيز التنفيذ.

وبجانب هذه الحدائق العامة ينبغي أيضًا وجود كازينوهات نظيفة معدة إعدادا يتلاءم مع روح التطـــور الكبيـــر الذي تعيشه بلادنا اليوم.. هناك أناس كثيرون يربأون بأنفسهم وبأولادهم وأصـــدقائهم ومعـــارفهـــم أن يجلســـوا في هذه المقاهي

(١) أصبحت البلدية بالمدينة أمانة ضمن الفئة (أ) مما جعل صلاحيات العمل أوسع وكان ضمن اهتمامات خادم الحرمين الشريفين تطوير المدينة المنورة لتكون أرقى مدن العالم بجانب توسعة الحرم النبوي الشريف، ولما كان هذا الأمر تحت مسؤوليته شخصياً، فقد فوض صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز شخصياً بمتابعة ذلك نيابة عنه، فحمل سموه الأمانة، وتم في عهده الكثير من مشروعات التطوير التي منها إنشاء الحدائق في جميع أحياء المدينة أشهرها: حديقة النخيل، وحديقة المجد، وحديقة السد، وحديقة الخالدية، وحديقة الجامعات، وحديقة البيداء، وحديقة الهجرة، إلى آخر الحدائق المعروفة.

الشعبية المنتشرة هنا وهناك ولكنهم يتطلعون في شوق إلى وجـــود كـازينـــوهات على مستوى لائق يجدون فيها المكان المريح والخدمة الجيدة وأنواع المبردات وأصناف الطعام، إذا دخلوا فيها استراحت نفوسهم وزال بعض ما بهم من نصب وكلال، وإذا دعوا اليها ضيفهم وزارهم رفعوا رؤوسهم واحسوا أنهم قاموا بحق الضيافة وواجب الزيارة.

والمدينة المنورة على مر التاريخ بلد مضياف.. فهل تجد هذه الفكرة طريقها إلى التنفيذ؟.. ذلك ما نرجوه.

المبالغة في الولائم من جوائح ثروتنا

تعيش بلادنا فورة مالية كبرى ودخل الفرد فيها عالٍ إذا قيس بأكثر الدول النامية ومصادر تحصيل الثروة فيها عديدة وفرص الكسب والغنى متوفرة بشكل واضح لا يقبل الجدال، ومن هنا كثرت الأموال في أيدي الناس وتحسنت أساليب معيشتهم وتبع هذا التحسن وهذه الوفرة في الأموال أمور كثيرة، منها البذخ الزائد والجري وراء المظاهر والغلو في كل ما تصل إليه أنظار الناس وأسماعهم، ومن ذلك ما يفعله الناس في الولائم من إسرافات تجاوزت كل حد معقول.

وليس هذا خاصا بولائم الزواج وحدها، بل هو شامل لكل أنواع الولائم، اننا نبالغ فيها كثيرا ونحن نقرأ قوله تعالى: ﴿**ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**﴾.

ولا ندرك ما نحن فاعلون ولا نقلع عنه خشية تعنيف فلان او انتقاده، نحن نصنع طعاما يكفي عشرة أشخاص أو أكثر لثلاثة اشخاص فقط، فيأكلون ما يكفيهم وحسب حاجة أجسامهم والباقي من الطعام أين نذهب به؟

إن عقلاءنا فقط هم الذين يكلفون أنفسهم مشقة البحث عن بعض الفقراء يذهبون به إليهم. أما الكثرة منا فإنهم يرمون به إلى خارج البيت في صناديق الزبالة، ونحن بهذا نسيء عدة إساءات.. أهنَّا النعمة التي أنعم الله بها علينا، حرمنا منها الفقراء والمحتاجين، وقبل ذلك كله أسأنا التصرف فيما أودع الله في أيدينا من مال ولم نحسن التصرف فيه وتجاوزنا ما نهى الله عنه.. كل ذلك بسبب التظاهر أو الخضوع لبعض العادات السيئة الموروثة.

ومن العجيب أن بعض الناس يفعل هذا وهو في أمس الحاجة إلى ما أنفق من مال على وليمته، وقد يكون حصـــل عليه بالاستدانة من بعض اصدقائه ومعارفه - انه لا بد أن يقدم لضيوفه ذبيحة حتى لا ينظروا إليه بمنظار النقص وحتى لا يحس داخل نفسه بالمرارة.

ألا يكفي أيها الإخوة أن تقدم للضيف طعامًا معقولا لائقا من غير بذخ ولا مغالاة ولا تبذير؟.. يجب أن يفهم الضيف وتفهم معه أن ما يفعل الآن ليس من الكرم في شيء بل هو نوع من الارهاق النفسي والمالي الذي لا مبرر له.

نحن نعلم أن الكرم من ابرز الصفات المميزة للإنسان العربي وان الإسلام ثبَّت هذا الخلق في النفوس ودعا اليه، ولكن الإسلام نفسه هو القائل في سورة الإســـراء: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا**﴾.

فالاعتدال اذن هو المذهب الإسلامي، والإنفاق في غير تقتير أو تبذير هو الدين ولو تهيأ لنا أن نحسب بالارقام ما يتم من زوائد الإنفاقات في هذه الولائم لتجمع من ذلك مال كثير ولتكونت ثروة كبيرة، يمكن للافراد والجماعات أن يستفيدوا منها وتساعدهم على تكوين أنفسهم وعمارة المساجد والبذل في سبيل الله ووجوه الخير.

والمسألة على العموم لا تحتاج منا إلا إلى الإيمان بالفكرة ثم الشجاعة في تطبيقها على أنفسنا ومن حولنا فبدون الشجاعة لن يتحقق الخير.

وأنا واثق أن الجميع سيقتدي بعد ذلك بالرواد الشجعان وخصوصا إذا كان الرواد من طبقات المجتمع الكبيرة، لأن كل من تحدثت معهم في هذا الموضوع يشتكي من مظاهر الاسراف فيه، ولكنه يخفق عند التطبيق ولا يجرؤ على تنفيذ فكرته.

إن ثرواتنا أيها الإخوة تضيع بسبب هذه الولائم المسرفة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وما كان أجدرنا أن نوفر تلك الأموال الطائلة لننفقها على حاجياتنا الضرورية الأخرى أو نقيم بها مشروعا مثمرا يعود علينا وعلى الوطن بالنفع الكبير.

إن ثروة الأمّة من ثروة أفرادها، وفقرها من فقرهم، صحيح ان الله يحب أن تظهر نعمته على عبده، ولكن ليس بهذه الصورة من التبذير والإسراف.

ويا أيها الأغنياء والموسرون اتقوا الله في ثرواتكم وثروات بلادكم وثروات الآخرين من غير القادرين على مجاراتكم إلا وهم مرغمون واجعلوا من أموالكم مدخرا لآخرتكم ومرتكنا لدنياكم والله ولي المعتدلين.

الطرق الاسفلتية داخل المدن

الطرق الاسفلتية أصبحت مرفقا حيويا في كل دولة متحضرة.. وعنوانا على رقيها وتقدمها وعليها يقوم كثير من شؤون حياتها وأمور معاشها بل ان مجرد مرور كلمة «مدينة» في الذهن كافٍ لأن يتصور الإنسان معه هذه الخطوط الطويلة العريضة المتشابكة من الطرق الاسفلتية التي تزهو بسوادها وتزدان جوانبها بالأرصفة وأوساطها بإشارات المرور المختلفة.

وبلادنا بحمد الله وهي في عنفوان تطورها وطموحاتها المستقبلية الشاسعة لم تنسَ أن تهتم بهذا المرفق ولم تغفل عنه، بل بالعكس تماما، اهتمت به اهتماما كبيرا داخل المدن والقرى الكبيرة والشبكات الواصلة بينها.

وحديثي في الواقع مقصور على ما كان منها داخل المدن - هذه الخطوط رصدت لها الدولة الميزانيات التي يمكن أن يدرك ضخامتها كل من عاصر تلك الخطوط التي أدت دون شك خدمات جليلة للناس فَوَقَتْهم من الأوحال وسهّلت عليهم وعلى سياراتهم شؤون السير والنقل وقضت على الأتربة وعوائق الطريق وقدمت كثيرا من الخدمات.

ومع ذلك فإن السؤال الذي يمكن أن يطرحه الإنسان على المسؤولين على صيانة هذه الخطوط وتحقيق المنفعة منها هو: لماذا تتعرض هذه الخطوط إلى النقض المستمر والحفريات العديدة الكاسرة؟ اليس من الممكن تحاشيها؟.

تتم سفلتة الطريق ويسير فيه الناس رجالا وركبانا بازدهاء وراحة نفسية غامرة لمدة قصيرة غالبًا وقد تطول ثم لا يلبثون ان يفاجأوا بتشويه اللوحة في أسلوب حفريات

لتوصيل الكهرباء أو الماء أو الهاتف ونحو ذلك من الاشياء التي تقتضيها مرحلة التطور التي تعيشها اليوم بلادنا الحبيبة.

ثم تعالج هذه التمزقات في جسم الطريق بطريقة تجعل منها عوارض تشبه الحواجز التي تقام لتعويق خيول السباق، تستغيث منها كل سيارة ودراجة وتصرخ منها صرخات ذات صليل، وقد تترك آثار تلك الحفريات أياما وأياما ويكتفى بحشو الفجوات المحدثة بالرمل من آن لاخر ودكها بالمدكات.

ألا يمكن أن تجتمع الجهات البانية لهذه الطرق والجهات الحافرة مع بعضها وتنسق العمل فيما بينها تنسيقا ملزما حرصا على المصلحة العامة ومحافظة على جمال المدن وراحة ساكنيها وتوفيرا لهذه المبالغ المهدرة لتصرف فيما يحقق خطط التنميات المختلفة التي تضعها الدولة للنهوض بهذه الأمّة إلى مرافق العُلى والسؤدد.

إننا ندرك بحق ما تبذله تلك الجهات من جهود مخلصة بناءه تستحق الإشادة والتقدير، وندرك أيضا أن ما أبديناه إن هو إلا وجهة نظر تدفعنا اليها إرادة مشاركة تلك الجهات الرغبة في الوصول إلى الأصلح دائمًا.

وملاحظة أخيرة بالنسبة للطرق الاسفلتية داخل المدن وهي أنه ينبغي أن تقام بشكل يتيح لمياه المطر أن تسير في اتجاه الأرصفة إلى فتحات المجاري العامة بحيث لا تتجمع المياه في الشوارع وتكون بركا تحتاج إلى وسائل نقل بر مائية ويتعذر فيها عبور السيارات والمشاة.. والذي أؤكده أن تحقيق ذلك ليس صعبا ولا متعذرا ان نحن صممنا على التنفيذ وآمنا بالفكرة، وما هو على عزمات القائمين على هذه المرافق ببعيد..

عمائرنا وكيف صممناها

تميزت العمارة العربية على مر العصور بطابعها الخاص المميز الذي لا يختلط بغيره.. هي عمارة وَسَمَتْها الروح الإسلامية بسماتها وخَتَمَتْها بالحشمة والفضيلة، كما طَبَعَتْها البيئة بكثير من خصائصها وضروراتها، ولا تزال تحتفظ كثير من العواصم الإسلامية وأمهات المدن التاريخية فيها بعديد من تلك العمائر التي تحمل اصالة العروبة ونضارة الإسلام وروح البيئة.

كانت البيئة تميل في عمومها إلى الجو القاري، برد قارس في الشتاء، وحرارة شديدة في الصيف نتيجة لرياح السموم اللاذعة والشمس السافرة الكاوية لذلك اعتمدت واجهات البيوت على المشربيات.

ومن يَزُرْ مكة والمدينة وجدة يمكنه أن يرى نماذج من تلك الواجهات الخشبية ذات النوافذ المثقبة القابلة للرفع أو ما يسمونه «شيشًا».. إن هذه الواجهات تتوفر فيها جميع الشروط الصحية من خلال الثقوب يصل الهواء وخيوط النور وتنكسر حدة الحرارة بالخشب.. لأنه غير متأثر بعوامل الجو الخارجية فهو لا ينقل حرارة ولا برودة ولكنه يقلل من شراستها.. وكانت البيوت القديمة ايضًا تعتمد في بنائها على الحجارة المثبتة بالطين لا على الطوب والاسمنت.

كما أن الشوارع العامة والفرعية لم تكن واسعة بقدر كافٍ وكانت أكثر الأسواق مسقوفة وجوانب الشوارع أيضًا مسقوفة بما أقيم عليها من أجنحة تابعة للبيوت، فالعابرون لا يضطرون إلى المشي في الشمس أو يتعرضون للامطار فكانت بذلك شوارع مريحة جدًا هذا من حيث تأثر المباني بالبيئة، أما من

حيث تأثرها بالروح الإسلامية والعربية فإن ذلك يتجلى في مسحة الحشمة التي يلحظها الناظر اليها من أول وهلة تبدو له فيها، فهي تحقق الحجاب في أكمل مظاهره، فليست هناك خرجات أو بلكونات مكشوفة.

ونظام الغرف قائم على عزل غرفة للضيوف الرجال وبعض البيوت تفتح نوافذ غرفها إلى الداخل على عرصة البيت أو فنائها ودربزيناتها، إلى غير ذلك من المظاهر الخاصة والتي لا تزال لها بعض النماذج في بعض البيوتات.

والسؤال الذي نريد طرحه الآن كعادتنا في مناقشة الاشياء هو: ما مدى انطباق صورة عمائرنا الحديثة مع ضروريات البيئة وما مدى تشبهها مع الروح الإسلامية؟ نحن لا نغلق أفكارنا عن التجديد، ولا نتجاهل روح العصر ولا نعمى عن التمدن، ولكن تلك اشياء وما نحن بصدده شيء آخر.

إن العمائر والبيوت التي نعيش فيها الآن مستوردة نظامًا وشكلًا وأصول بناء، نعم لا مانع من الاستيراد إذا كانت تمليه الحاجة وتستدعيه الضرورة أما إذا كان الأمر بالعكس فالأولى بنا أن نتمسك بأصالتنا ونتحمس لموروثاتنا.

لقد اتسعت الشوارع الآن بحكم حركة النقل والسير وهذا أمر ضروري وعريت أكثر الأسواق عن سقوفها وهو أمر لا تدعو إليه ضرورة.. والعقود المسقوفة التي على جانبي الشوارع الكبيرة أزيلت من غير مبرر مع ما لها من وظيفة كبيرة في وقاية الناس من حرارة الشمس وضراوة البرد ومياه الامطار.

وفي رأيي ايضًا لا داعي للبلكونات المكشوفة ما دمنا متمسكين بالإسلام، فإن هذه البلكونات ذات شر مستطير فالشمس ونورها والهـــواء والنسيم يمكنها كلها أن تدخل إلى بيوتنا بنوافذ ومداخل إسلامية صرفة ولا داعي لتقليد نماذج البناء المستجلبة عن فلسفة حضارات أخرى لا تمت إلى عقائدنا وفكرنا الإسلامي العظيم بسبب.

أما دعوى أن منظر العمائر الحديثة أجمل وأمتع للنظر والفؤاد فإنها دعوى يعوزها الدليل والبرهان، وهي لا تزيد عن كونها من باب التأثر بمقاييس الغير والإيمان بما هم به مؤمنون، ان خيرا لنا الف مرة أن نستوحي نظام مبانينا من بيئتنا وعقائدنا وتراثنا فذلك أجدى علينا وأنفع وأهدى سبيلا.

وأوحى ربُّك إلى النحل(*)

للعسل تاريخ قديم وطويل.. لو تفرغ أديب باحث لاستقصاء هذا التاريخ لاخرج للناس كتابا.. فلليونان في تاريخها القديم حديث طويل مع العسل وللمصريين القدماء صلات ووشائج مع لعاب النحل، ولسليمان الحكيم مآرب في هذا الشراب السحري العجيب.

ولم يغفل العرب الاقدمون عن هذا «الذوب» فقد أدركوا ما فيه من جليل المزايا وعظيم الفوائد، ومن يراجع كتب اللغة ولا سيما المتقدمة منها سيجد من العناية بهذا الرحيق صنوفا وألوانا فقد اطلقوا عليه عدداً من الأسماء قد تبلغ أصابع اليدين وفصلوا أنواعه تفصيلاً دقيقاً، ووضعوا لكل أدواته كلمات خاصة وافتنوا في ذلك افتنانا يدل على اهتمام لأحد له بالنحل ومحاجه.

ولن أثقل على القراء بذكر كل ما ورد في كتب اللغة فذلك أمر يطول ويطول ولكنني سأذكر بعض «نماذج» تعطي القراء صورة دقيقة عن اجدادنا العرب في عنايتهم بهذه المادة الغنية العجيبة.

لقد اطلقوا كلمة «الضَرَب» بفتح الضاد والراء على النوع الغليظ من العسل كما اطلقوا كلمة «الحميت» و «الجليس» على المتين الصلب منه واطلقوا على الرقيق منه كلمة «الوديس» واطلقوا على العمل في اجتناء العسل كلمة «الشور» بالشين المفتوحة فواو ساكنة.

(☆) نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الأحد الموافق ١٠/١١/١٣٨٦هـ العدد (٨٨٨).

وسموا الموضع الذي تعسّل - تشديد السين وكسرها - فيه النحل «المشوارة» واطلقوا على القضبان التي يشتار بها العسل «الاخراص» و «المخارص».

ووصفوا شيئا تجيء به النحل الي بيوتها ليس بشمع ولا عسل ولكن بينهما كأنه خبيص يابس فيه بعض اللين حلاوته كحلاوة التين تضعه في تخاريب الشهد «اي خروقه» وهو مفسد للعسل ولا تكاد تكثر منه إلا في السنة المجدبة وأكثر ما تأتي به من السدر، والناس يأكلونه كما يؤكل الخبز «فيشبع» وسموا هذا الشيء «العبكر» و «الموم».

اما الجبة التي يرتديها العسّال وتسمى «الحافة» و «العيسه»، كما «الفتخا» كلمة تطلق على شيء مربع من الخشب يجلس عليه مشتري العسل وإذا حول العسل والنحل من خلية إلى أخرى سمي «النسخ» ويقال لما بقى من العسل على يدي من اكله او مسه او قطر على قديم ثوبه «الوشب».

ويقال لخشبة عريضة تشبه الملعقة ينزع بها مشتار العسل النحل اللوازق بالعسل «المنزعة» ومن ألطف المسميات لهذه المادة في معاجم العرب «السلوى» وقالوا في تعليل ذلك انها سميت سلوى لانها تسل عن كل حلو اذ هي فوقه.

ومن هذه النماذج القليلة نستطيع ان ندرك ان النحل والعسل كان لهما في حياة العرب الاقدمين اثار عظيمة ظهرت في اشعارهم التي بقيت إلى يومنا هذا كما برزت بوضوح فيما حفظته كتب اللغة.

والمتأمل لهذه الاشعار وللألفاظ اللغوية التي اطلقت على النحل والعسل ولكل ما يتصل بهما من قريب او بعيد يجد أن العرب قد درسوا حياة هذه الحشرة العجيبة دراسة عميقة وتتبعوها في جميع اطوار حياتها.

وقد جاء الإسلام فعني بالعسل عناية فائقة فقد سُميت سورة من كبار سور الكتاب العزيز باسم هذه الحشرة النافعة وهي السورة السادسة عشرة من القرآن وفيها وردت هذه الايات المعجزة ﴿**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال**

بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾.

وتدل هذه الآيات على السر الإلهي الذي وضعه الخالق المبدع في هذه الحشرة الصغيرة.

فهي تأكل - بأمر الله - من كل الثمرات لتحول ما اكلت - بقدرة الله - إلى شراب لذيذ مختلف الالوان فيه غذاء وفيه شفاء.

وتنكير كلمة شفاء فيه إشارة لا تخفى.

وقد وعد القرآن المتقين في الآخرة بانهار من عسل مصفى.. يقول تعالى في وصف الجنة: **﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾.**

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - «**يشرب العسل ممزوجا بالماء على الريق**» وقد افاض العلماء والاطباء المسلمون في تبيين الفوائد التي تنشأ عن ذلك.

وقد بلغ من اهتمام المسلمين بالعسل إنه ألّف بعضهم كتابا كاملا عنه - وعني أطباء المسلمين باستعماله غذاء وعلاجا.

وقد أكد القرآن انه مادة كريمة فيها شفاء للناس كما أورد المحدثون عددا من الاحاديث النبوية الشريفة في فضل العسل وقد روي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنهى أمتي عن الكي**».

وروي عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «**إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي**».

ويروى عن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «**عليكم بالشفاءين العسل والقرآن**».

وروي عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال: إذا أراد احدكم الشفاء فيكتب آية من كتاب الله في صحيفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها فليشترِ به عسلا فليشربه كذلك فإنه شفاء».

أخذ هذا كرَّم الله وجهه من قوله تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وأنزلنا من السماء ماء مباركا**﴾.

وقال تعالى: ﴿**فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا**﴾.

وقال تعالى في العسل: ﴿**فيه شفاء للناس**﴾.

ويروى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عالج بعض أصحابه بالعسل.

وقد افرد العلَّامة ابن القيم فصلا في كتابه «الطب النبوي» تحدث فيه عن فوائده في علاج الامراض وتغذية الجسم والبشرة والشعر ونحن ننقل بعض ما ورد في ذلك الفصل.

يقول العلامة ابن القيم «والعسل فيه منافع عظيمة فإنه جلاء للاوساخ التي في العروق والامعاء وغيرها محلل للرطوبات أكلا وطلاء.. وهو مغذٍ ملين للطبيعة حافظ لقوى المعاجين ولما استودع فيه مذهب لكيفيات الادوية الكريهة منقٍ للكبد والصدر مدر للبول موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شرب حارا بدهن الورد نفع من نهش الهوام وشرب الافيون وان شرب وحده ممزوجًا بماء نفع من عضة الكلب.

واذا جعل فيه اللحم الطري: حفظ طراوته ثلاثة أشهر وكذلك ان جعل فيه القثاء والخيار والقرع والباذنجان ويحفظ كثيرا من الفاكهة ستة أشهر ويحفظ جثث الموتى ويسمى: الحافظ الأمين وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر قتل قمله وصئبانه، وطوَّل الشعر وحسَّنه ونعَّمه، وان اكتحل به جلا ظلمة البصر وان استن به بيَّض الأسنان وصقلها وحفظ صحتها وصحة اللثة ويفتح افواه العروق ويدر الطمث ولعقه

على الريق يذهب البلغم ويغسل خمل المعدة ويدفع الفضلات عنها ويسخنها تسخينا معتدلا ويفتح سددها ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة وهو اقل ضررا لسدد الكبد والطحال من كل حلو.

وهو غذاء مع الاغذية ودواء مع الادوية وشراب مع الاشربة وحلو مع الحلو وطلاء مع الاطلية ومفرح مع المفرحات فما خلق لنا شيء في معناه أفضل منه ولا مثله ولا قريب منه ولم يكن معول القدماء إلا عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة ولا يعرفونه فإنه حديث العهد: حدث قريبا».

هذا بعض ما اورده ابن القيم في كتابه القيم عن مزايا العسل.

ولعل بعض المستخرجات الحديثة تغني عنه فقد اخترعت أنواع من الزيوت والأدهنة لتطويل الشعر وتحسينه مثلا ولكنه يظل مع كل ذلك عنصرا هاما من العناصر التي يقوم عليها جسم الإنسان.

وقد ورد في كلام العلامة ابن القيم عن العسل انه يحفظ جثة الموتى.

ولعل هذا هو ما دعا قدماء المصريين إلى العناية بالنحل وتربيته لاستغلاله مع عناصر اخرى في حفظ الجثة وتحنيطها.

ونذكر بهذه المناسبة ما ورد في التاريخ من أن المقوقس عظيم القبط أهدى النبي - صلى الله عليه وسلم - مارية القبطية واختها كما اهدى إليه كمية من عسل بنها وبعض هدايا أخرى وقد أهدى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - طبيبا فقبل عليه الصلاة والسلام مارية وأختها والعسل والهدايا الاخرى واعتذر عن قبول الطبيب ويروى أنه قال كلمته الجامعة الخالدة: «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع**».

هذه صفتهم لا يحتاجون معها إلى طبيب فهم لا يدخلون الطعام على الطعام ولا يأكلون حتى يشعروا بالجوع وإذا جلسوا على الاكل قاموا من غير ان تمتلئ بطونهم حتى التخمة بل قاموا وهم في شوق إليه.

وهذا أساس من أسس الصحة وقاعدة من أهم قواعدها.

حدثني صديق طبيب ونحن نستعرض الحملة التي تقوم بها الأمم المتحدة لمحاربة الجوع في العالم فقال: إنه اطلع على تقرير يحتوي على بيانات احصائية تثبت بالدليل القاطع انه رغم انتشار الجوع في كثير من المناطق في العالم فإن بقية المناطق يستهلك كل فرد فيها من الطاقات الحرارية أكثر بكثير مما يحتاجه والمؤلم في الموضوع ان هذه الطاقات الحرارية الزائدة عن الحاجة تؤذي الجسم وتهب له طائفة من الامراض التي تهدد كيانه.

وهكذا يمرض إناس من كثرة الاكل ويمرض اخرون من سوء التغذية.

وتأثير العسل - رغم قلة العناية به - واضح في حياتنا فنحن نضرب به المثل فنقول عن شيء ما انه حلو كالعسل أو أحلى من العسل، ونصف الفترة الأولى من حياتنا الزوجية بأنها «شهر العسل» ولست أدري شيئا عن تاريخ هذه الكلمة ولا عن أول من اطلقها على هذا الشهر «الجميل» شهر العسل.

وهل هي اصيلة في لغتنا ام انها ترجمة لعبارة اجنبية؟!.

ولكنني أذكر قصة تلك المرأة التي طلقها زوجها طلاقا بائنا فتزوجت من غيره ولكنها رغبت في العودة إلى زوجها السابق فذهبت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وطلبت منه ان تعود إلى زوجها السابق وتطلق من زوجها الثاني فقال - صلى الله عليه وسلم: «**لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك**» فهل تكون هذه الجملة النبوية هي الاساس الذي استقى منه الناس عبارتهم المشهورة «شهر العسل»؟.

لقد أطلت الحديث عن العسل لا لأنه حلو بل لألفت النظر إلى شيئين هامين أولهما أن ألفت النظر إلى القيمة الغذائية والعلاجية الكبيرة التي أودعها الله في العسل فلعل ذلك يكون دافعا إلى أن نحاول التقليل من استيراد المربّيات بأنواعها المختلفة لأن في العسل ما يغني عنها.

أما الشيء الثاني وهو نتيجة حتمية للاول فهو ان نهتم بتربية النحل على نطاق واسع حتى يستطيع الكل الحصول على العسل النقي المصفى باثمان معقولة وفي ذلك من الكسب ما لا يخفى.

ولعل العبء الأكبر في هذه الناحية يقع على وزارة الزراعة.

ويذكرني هذا الحديث باحاديث كنت سمعتها من شخصيات لها وزنها عن منطقة لا تبعد كثيرا عن المدينة تسمى «الفقرة» بكسر الفاء وسكون القاف وهي منطقة تصلح ان تكون «مصيفا» لسكان المدينة لما تمتاز به من جمال في الطبيعة وبروده في الجو حتى لقد وصفوها بان المرء يشعر فيها ببرودة الطقس في أشد شهور العام حرارة بل وحتى في فترة ارتفاع الشمس في كَبَد السماء.

وهذه ميزة من الواجب استغلالها، والاستفادة من هذه المنطقة سهل وميسور لو قامت وزارة المواصلات بتعبيد الطريق الموصلة إليها ولن يكلف ذلك كثيرا فيما يبدو لأن المسافة ليست طويلة.

أما الذي ذكرني بمنطقة الفقرة هذه هو ما سمعته من انها منطقة غنية بالعسل الممتاز اضافة إلى ميزات أخرى، ولو عَبَّدتْ وزارة المواصلات الطريق لعمرت هذه المنطقة ولبنيت فيها عشرات «الفيلات» ولاصبح من الميسور على سكان المدينة السكنى فيها فترة الصيف على اساس ان يذهبوا اليها بعد الظهر ويعودوا في الصباح.

هذه امنية تستطيع وزارة المواصلات ان تنقلها إلى دنيا الواقع ولن يكلفها ذلك كثيرا، وتحية للصديق الاعز «ع.م.ز» فلولا العداوة القائمة بينه وبين العسل لما كان هذا المقال.

خواطر عن رمضان

ثقافة لغوية:

رمضان هو الشهر التاسع من شهور السنة العربية أو السنة القمرية - إن شئت الدقة - وقد انشق هذا الأسم من مادة «رمض» والرمض والرمضاء هو شدة الحر.

أما لماذا سمي هذا الشهر التاسع بهذا الاسم المشتق من الرمض وهو شدة الحر وقسوته فإن ذلك يعود كما يقول علماء اللغة إلى أن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي هي فيها فوافق رمضان أيام رمض الحر وشدته فسموه به.

كما سمُّوا أول أشهر السنة بالمحرم لأنه شهر محرم يعظمه العرب، ويُجمع على محرمات ومحارم ومحاريم.

وسمُّوا الشهر الثاني بصفر لأن فيه يخلون بيوتهم لسبب خروجهم للقتال والأسفار يقال صفر المكان إذا خلا ويجمع على أصفار.

وسمُّوا الشهرين الثالث والرابع ربيع الأول وربيع الثاني لارتباعهم فيه والارتباع الإقامة في فصل الربيع ثم أطلق على الإقامة ويجمع على أربعاء وعلى أربعة، كرغيف وأرغفة.

وسمُّوا الشهرين الخامس والسادس بشهر جمادى الأولى وجمادي الآخر لجمود الماء فيها ويجمع على جماديات وهو يُذكّر ويؤنث فيقال جمادي الأولى والأول وجمادى الآخر والآخرة، على أن من الخطأ أن يكتب اسم الشهر بغير ياء كما هو شائع سواء في حالة التذكير أو التأنيث.

وسمُّوا الشهر السابع شهر رجب والترجيب هو التعظيم، وشهر رجب كما سبق أن أشرنا من الأشهر الحرم ويسمى رجب الفرد لأنه يفرد عن بقية الشهور في الحرمة بينما الشهور الحرم الثلاثة متصلة وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ويجمع على أرجاب ورجبات.

وسموا الشهر الثامن شهر شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للحرب والغارة ويجمع على شعابين وشعبانات.

أما رمضان هو الشهر التاسع وقد نوهنا بأنه مأخوذ من الرمضاء وهو شدة الحر وقسوة العطش الذي قد يؤدي إلى الهلاك ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة وأرمضاء وأرمض.

وسمّوا الشهر الحادي عشر ذا القعدة بفتح القاف وكسرها لقعودهم فيه عن القتال ويجمع على ذوات القعدة.

أما الشهر الأخير فقد سموه ذا الحجة بكسر الحاء وفتحها لإيقاعهم الحج فيه ويجمع على ذوات الحجة.

ومن المعروف أن أسماء الأيام المعروفة والتي تبدأ بالسبت وتنتهي بالجمعة ليست هي الأسماء التي كانت تطلق على الأيام في التاريخ العربي القديم بل لقد استبدلت الأسماء القديمة بالأسماء العربية التي نعرفها والتي ورد بعضها في القرآن الكريم.

أما أسماء الأيام القديمة فقد كان العرب يسمون يوم الأحد باسم أول ويوم الأثنين باسم أهون ويوم الثلاثاء باسم جبار ويوم الأربعاء باسم دبار ويوم الخميس باسم مؤنس ويوم الجمعة باسم العروبة ويوم السبت باسم شيار.

وهكذا اشتمل التبديل الشهور والأيام، ولعل من المستحسن وقد عرضنا لكيفية جمع الشهور أن نتم البحث بالحديث عن طريقة جمع الأيام.

أما الأحد فيجمع آحاد واوحاد واوحود.. ويجمع «الأثنين» على أثانين ويجمع «الثلاثاء» على ثلاثاوات وأثالث والثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث و«الأربعاء» بالمد يجمع على أربعاوات وأرابيع، والخميس يجمع على أخمسة وأخامس والجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضا ويجمع على جُمع وجماعات والسبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده.

وقد ورد اسم يومين من هذه الأيام في القرآن الكريم وهما يوم السبت ويوم الجمعة فقد ورد في سورة الأعراف قوله تعالى في سياق حديثه عن اليهود ﴿**واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون**﴾.

وورد في سورة الجمعة قوله تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**﴾.

ولعل سائلا يسأل عن سر هذا الحديث اللغوي ولعل بعض القراء يتصور أن هذا الحديث اللغوي غير ذي موضوع.

ونحب أن نؤكد لهذا أو ذاك أن الحديث اللغوي ضرورة لا مناص منها فقد انصرف الكتّاب إلى لون من الكتابة لا يكلفهم عناء ولا معاناة وأصبحت الكلمات التي تدور في الصحف كلمات معدودة ومحدودة، وقد ارتضى القراء بطبيعة الحال هذا الأسلوب الهابط الذي يعفيهم من عناء البحث والإطالة والتفكير وضاعت اللغة بين هؤلاء وأولئك ضاعت اللغة العظيمة الحية الشاعرة، كما يعبر المرحوم الأستاذ العقاد، وبدأتْ تشعر بالغربة بين أهلها، وأخذ الكتّاب يقيسون الكتابة ويبتكرون أساليب جديدة لا يهدفون من ورائها إلى تنمية هذه اللغة وإنما يهدفون إلى التخلص من عناء مدارستها والرجوع إليها في مظانها ومصادرها.

وقلة نادرة من الكتّاب هي التي تجوِّد أسلوبها وتنتقي كلماتها وتحرص على سلامة لغتها وعلى رأس هذه القلة الكاتب البليغ حقا وصدقا الأستاذ الدكتور محمد فوزي البشبيشي، فمقالاته نماذج من الأدب الرائع والأسلوب الرفيع والبيان المصفى.

ولقد هممت مرة وأنا أكتب بحثا عن الأستاذ أحمد حسن الزيات أن أنعي الأدب البليغ بعد الزيات ولكنني أمسكت عن هذا بعد أن قرأت مقالات الدكتور البشبيشي وهي مقالات تدل على أصالة في التفكير وغزارة في الثقافة وتمكّن من اللغة واعتزاز بالعروبة.

وأنا أقرأ كل مقال ينشر له مرتين أقرأه في الأول قراءة سريعة ثم أخلو إلى نفسي فأعيد قراءة المقال بأناة وروية فأجد في قراءته من ألوان المتعة ما لا سبيل إلى وصفه.

كل ما أرجو أن يستفيد طلاب الكلية من علم استاذهم الزاخر ومن إخلاصه للغته ودينه وعروبته فنحن بحاجة إلى من يذكرنا بعظمة لغتنا وإلى من يستخرج لنا من آن وآخر نماذج من كنوزها الخالدة، لعل ذلك يوقف قليلا من طوفان العجمة ويوقف من تياراتها.

ولعلي أعود قريبا إلى الحديث عن مشكلتين أخريين تعوقان سير قافلتنا اللغوية والأدبية أعني بهما مشكلة حفظ القرآن ونشر الأغاني العامية وإذاعتها.

كالمستجير من الرمضاء بالنار:

وموقع جزيرة العرب أو شبه جزيرة العرب - كما يحرص على ذلك علماء الجغرافيا المختصون - موقعها في المنطقة الحارة وما جبلت به طبيعتها الجغرافية من صحاري شاسعة تسير بها بحار من الرمل تبلون الخريث فيها من خوف القوى كما يقول أحمد ابن الحسين.

هذه الظروف البيئية جعلت للشمس واشعتها والحرارة وقسوتها آثارًا خالدة في نفوس أبناء الأمّة العربية ظهرت في إنتاجهم النثري والشعري وفي قصصهم وآدابهم وعلومهم.

ويذكرني حديث الرمض والرمضاء بالمثل المشهور «كالمستجير من الرمضاء بالنار.

والرمضاء كما ذكرنا هي شدة الحر والتهاب الرمل من شدة الحرارة في اليوم القائظ.

وقد قيل هذا المثل في كليب وأمل سيد ربيعة وكان يضرب به المثل في العز والمنعة فيقال اعز من كليب وقد بقي هذا المثل حتى يومنا هذا فيقال للرجل المغتر بشبابه المعتز بفتوته «كأنه احضر رأس كليب».

وقد حمي كليب حِمى لا يرعاه أحد إلا ابل جساس لمعاهدة بينهما، ولكن ناقة لاحد جيران جساس خرجت مع ابل جساس ورآها كليب فرماها بسهم فولت هاربة حتى وصلت بيت صاحبها وثار جساس واخذ يتوقع غرة كليب إلى أن خرج كليب مرة وبعد عن الحي فشد جساس على فرسه ومعه رمحه وتبعه عمرو بن الحارث فلم يدركه حتى طعن كليبا ودق صلبه ثم وقف عليه فقال يا جساس اغنني بشربة ماء فقال جساس تركت الماء وراءك وانصرف عنه ولحقه عمرو فقال كليب يا عمرو اغنني بشربة ماء فنزل إليه فاجهز عليه فضرب به المثل فقيل:

المستجير بعمرو عند كربته　　　كالمستجير من الرمضاء بالنار

رمضان في الجاهلية:

وقد بقي شهر رمضان في الجاهلية شهرا من الشهور لا يمتاز عن غيره ولم يكن من الشهور التي يعظمونها فقد كانوا يعظمون الشهور الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد.

وقد أتى الإسلام فابقى على حرمتها وتحدث القرآن الكريم عن ذلك في سورة براءة فقال ﴿**إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيّم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾.

وقد حرمت العرب هذه الأشهر لاجل اداء مناسك الحج فحرموا شهر ذي القعدة لانهم يقعدون فيه عن القتال استعدادا للحج وحرموا شهر ذي الحجة لانهم يشتغلون فيه باداء المناسك وحرموا بعده المحرم ليرجعوا فيه إلى اقصى بلادهم آمنين.

وحرموا رجب في وسط الحول لاجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من اقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

قلنا ان شهر رمضان بقي في عرف الجاهلية شهرا لا ميزة له إلا عندما يقع في شهر رجب نتيجة لعملية النسئ التي كانوا يلجأون اليها فيؤخرون الشهور الحرم عن مواعيدها وهي العملية التي هاجمها القرآن ووصفها بأنها زيادة في الكفر واضلال للكافرين يقول تعالى: ﴿**إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾.

رمضان في الإسلام:

بقي شهر رمضان شهرا من الشهور لا يتميز بأية ميزة حتى جاء الإسلام وحتى هاجر النبي الاعظم - صلى الله عليه وسلم - ففي السنة الثانية من الهجرة وفي يوم الاثنين ٣ شعبان الموافق ٣ يناير سنة ٦٢٤ فرض الله الصيام على المؤمنين من اتباع نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات**﴾.

وأخذت فضائل هذا الشهر المعظم تترى في القرآن تنبه المؤمنين إلى فضل هذا الشهر بقوله: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾.

كما ينبه إلى أهمية ليلة عظيمة من لياليه فيقول: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر**﴾.

ويقول: ﴿**حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم**﴾.

وحفلت كتب الصحاح بطائفة كريمة من الاحاديث النبوية الشريفة كلها تشيد بفضائل هذا الشهر وتشرح للناس ما أعدّ الله لصائميه من الخير والنعم والفضل والثواب.

ولقد وردت أول اشارة إلى عظمة هذا الشهر في أول لقاء بين جبريل الروح الامين وبين سيد ولد آدم محمد - صلى الله عليه وسلم - حين أنزل الله الآيات الأولى من القرآن وهي قوله تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم**﴾.

فهذه الآيات الكريمة التي نزلت على قلب الصادق المصدوق في أول لقاء بينه وبين رسول السماء والتي تشير إلى ان خاتمة الاديان السماوية هو دين العلم والمعرفة دين القراءة والقلم دين الله الذي علم الإنسان مالم يعلم.

هذه الايات الكريمة نزلت في شهر رمضان المبارك ايحاء بعظمة هذا الشهر ورمزا إلى ما ينتظر المسلمين فيه من السعادة الروحية والهناءة النفسية والهبات الربانية في الدنيا والآخرة.

قال قتادة «ان الله اصطفى صفايا من خلقه.. اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا.. واصطفى من الكلام ذكره.. واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظموا ما عظم الله.

خواطر عن الحج(*)

ذهب العلماء في تحديد السنة التي فرض فيها الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام إلى قولين أحدهما يرى أنها السنة الخامسة من هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة هي السنة التي فرض فيها الحج ودليلهم على ذلك انه لا توجد في القرآن الكريم إلا آية واحدة هي التي ورد فيها فرض الحج على المسلمين صراحة وهي قوله تعالى: ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**﴾.

وهي الآية السابعة والتسعون من سورة آل عمران.

ومن المعروف ان هذه السورة الكريمة مدنية نزلت عقب الغزوة المشهورة غزوة أحد.

وهذه الغزوة اما انها وقعت في اليوم السابع من شوال سنة ثلاث من الهجرة على قول او حدثت في الخامس من شوال من نفس السنة وهو التاريخ الارجح وسواء صح هذا او ذاك فهناك امران لا يقبلان الجدل هما حدوث هذه الغزوة العظيمة في شهر هو شوال وفي سنة هي السنة الثالثة للهجرة أو في السنة الرابعة من الهجرة ويترتب على هذا ان فرض الحج على المسلمين يكون قد حدث في السنة الثالثة او الرابعة.

وهذا يخالف ما ذهب إليه بعض فضلاء الباحثين من ان الحج قد فرض في السنة الخامسة.

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة بتاريخ ١٠/١٢/١٣٨٧هـ العدد (١٢٠٤).

أما القول الثاني: فيقول بان فرض الحج كان في السنة التاسعة من الهجرة وفيها أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر الصديق قائداً لوفود الحجيج.

ويذهب أنصار الرأي الأول إلى أن مكة وتوابعها كانت تحت سلطان المشركين وكان هؤلاء يحولون بين المسلمين والحج فانتفى بذلك شرط أساسي من شروط الحج هو الاستطاعة.. وعدم الاستطاعة يسقط فريضة الحج عن المكلفين.

وقد استمر هذا العائق في طريق المسلمين حتى جاء نصر الله وكلل جهود الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته المؤمنين بالفوز العظيم وفتحت مكة عام الفتح سنة ثمان من الهجرة وعندما استقرت الأمور بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ابا بكر ليحج بالناس.

وربما خطر بالبال سؤال عن سبب عدم حج النبي في العام التاسع من الهجرة.

والسبب كما اورده العلماء هو أن المشركين كانوا يطوفون بالكعبة متمسكين ببعض تقاليدهم السخيفة ومنها ان يتعروا من ثيابهم بصورة كاملة فلا يبقى على جسدهم اي ساتر مهما يكن نوعه ولم يكن خاصا بالذكور وحدهم بل كان النساء يتجردن من جميع ثيابهن أثناء طوافهن ويرددن أقوالا حفظتها كتب التاريخ.

وظاهرة التعري أثناء أداء العبادة ظاهرة تستلفت النظر وتدعو إلى الدرس والتفكير وخاصة حين تكون ظاهرة عامة يشترك فيها الرجال والنساء.

ومن الأمور المعروفة حرص النساء على ستر أجسادهن وبخاصة بعض الأجزاء منها لا سيما أمام الرجال لأنه قد ثبت كما يقول الأستاذ العقاد - إن المرأة تتميز عن الرجل بأنها لا تحتشم أمام بنات جنسها بينما يندر أن تجد رجلا لا يحتشم أمام الرجال ومن باب أولى أمام النساء.

ومع ذلك فإن المرأة في موقف التعبد هذا تتغلب على حيائها الطبيعي وتخرج إلى الطواف كما خلقها الله.

ولسنا ندري بالتحديد الدوافع الجوهرية لفكرة التعري هذه ولكننا نرجح انها تعود إلى مصدرين: المصدر الاول: هو التقليد والمحاكاة فغير بعيد أن تكون فكرة التعري هذه قد نقلت عن مصدر اجنبي نقلها زعيم من زعماء العرب في الجاهلية عن بلد من البلدان التي كانت ترحل اليها قوافل التجارة في الشتاء والصيف.

ولعله شاهد طوائف من الناس تمارس بعض عباداتها بهذا الأسلوب فراقه ذلك ونقله إلى قومه.

وأرجو ألا يدهش القراء من وجود هذا اللون من أساليب العبادات فقد مارست البشرية وخاصة في عصور الوثنية انماطا من العبادات لا يكاد يصدقها العقل لولا ان اكدها المؤرخون بصورة لا مجال للتشكيك فيها.

ولولا انني اكتب في صحيفة سيارة تقرأ على مستوى جماهيري لذكرت نماذج من هذه العبادات تفوق صور الخيال في غرابتها.

ولماذا نبعد كثيرا وشرقنا العربي في هذا العصر يحتوي على طوائف تعتنق من المذاهب الشاذة والمعتقدات الضالة والعبادات المنحرفة ما يدفع المتأمل إلى الشك في عقول اصحابها ومدى قدرتهم على الفهم والتمييز.

ومع غرابة ما لدى هذه الطوائف من طقوس لاتتفق مع الفطرة ولا تنسجم مع العقل الراجح والفكر السليم فإننا لو تأملنا قليلا فسنجد ان الأمر طبيعي للغاية.. لننظر إلى الاديان السماوية الكبرى في تاريخ العالم وهي اليهودية والنصرانية والإسلام.

هذه الأديان الثلاثة الكبرى يحدثنا عنها الذي لا ينطق عن الهوى محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول: «**افترقت اليهود إلى واحد وسبعين فرقة وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**» هي الفرقة الناجية التي اعتصمت بالقرآن وسنة المصطفى عليه السلام».

فإذا كانت الأديان السماوية الكبرى الثلاثة قد افترقت إلى ما يزيد عن المائتي فرقة فما بالك بغيرها من الأديان الوثنية.

وليست فكرة التعري هي أول فكرة نقلت عن طريق التقليد والمحاكاة فقبل ذلك نقل إلى مكة عمرو بن ود في الجاهلية فكرة عبادة الأصنام ونقلها من بلاد الشام، ووضعها في الكعبة وحواليها إلى أن منّ الله على المؤمنين فبعث اليهم رسولا منهم نقلهم من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ثم سار بهم من نصر إلى نصر حتى فتح بهم مكة وحطم اصنامها وطهرها من كل رجس وشرك ووثنية.

وفكرة نقل الاصنام من الشام إلى مكة تقليدا أو محاكاة تذكرني بحادثة شبيهة وان كانت أكثر غرابة.

واذا كان عمرو بن ود قد نقل الاصنام إلى مكة على حين فترة من الرسل فإن القرآن يحدثنا عن قوم موسى حديثا عجبا فيقول: ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين**﴾.

فقوم موسى يسيرون بقيادة موسى فيعبرون البحر هذا العبور الذي يعتبر معجزة إلهية.

وبدل ان يزيدهم ذلك إيمانا تنساب الوثنية إلى قلوبهم بمجرد أن رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم فيطلبون من موسى أن يجعل لهم آلهة من الأصنام كما لأولئك القوم آلهة.

ولم يترك هذا الدرس في نفوس قوم موسى أي أثر يذكر فعندما انطلق موسى لميقات ربه وترك قومه ومعهم أخوه هارون بعد ان أوصاه بان يخلفه في قومه وان يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين جاءهم موسى السامري بعجل له خوار وقال لهم هذا

إلهكم وإله موسى فانكبوا على هذا العجل يعبدونه ولم تجدِ نصائح هارون وقالوا له: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾.

فإذا كان العرب قد عبدوا الاوثان في فترة من الرسل فإن قوم موسى قد عبدوا الأوثان وما زال أنبياؤهم معهم تقليدا ومحاكاة.

المصدر الثاني: هو الرغبة في التجرد والخلوص للعبادة وفكرة التجرد للعبادة فكرة سليمة من حيث المبدأ وهي فكرة تتفق مع جوهر العبادات السامية ولكنها فكرة غير سليمة من حيث التطبيق لأن تطبيقها بهذه الصورة تطبيق بدائي ومع تقديرنا لدوافعها النبيلة فاننا لا نستطيع ان نضمن اثارها.

فليس في مقدور البشر ان يتغلبوا دائما على شهوات النفس ونخص بالذكر شهوة الجنس فسلطانها قاهر لا يقاوم وبمرور الأيام وتكاثر السكان وتوافر اسباب العيش ووسائل النعيم والوان المدنية يضعف الوازع الديني وتزداد حدة الشهوة وتنشأ شرور لا حد لها ولا نهاية تعصف بكيان الامة وتهوى بها إلى دركات الهلاك والدمار والطريقة السليمة هي سد الذرائع والحيلولة بين الامة وكل ما من شأنه أن ينحرف بها عن الطريق السوي وذلك ما فعله الإسلام فهو لم يغفل فكرة التجرد من الثياب في الحج لانها فكرة سليمة ولكنه نظمها بطريقة تضمن الابتعاد بها عن ان تستغل استغلالا سيئا أو تنقلب إلى شر مستطير فشرع للذكور من المسلمين الاحرام في الحج وهو التجرد من المخيط شريطة ان يحل محل ذلك إزار ورداء يستران ما تدعو الفطرة النقية والطبيعة السليمة من ستره من اجساد الرجال اما النساء وهن شهوات زينت للناس فقد شرع الإسلام لهن لباسا لا يكشف ولا يحدد ولا يثير.

هكذا حقق الإسلام الفكرة من غير أن يعرض سلامة المجتمع لأي نوع من الأخطار أو الأضرار وظاهرة التعري تذكرنا بهذه المجتمعات المعاصرة التي تفشى فيها هذا الداء الوبيل وأصبحت تعانى منه بلاء عظيما وشرا مستطيرا ولكنها لا تقوى على

التخلص منه وقد يستفحل الخطر استفحال السرطان في جسم الإنسان يظل يفتك بصاحبه حتى يقضي عليه.

ونحن نسمع في كل يوم صيحات المخلصين والمصلحين من أبناء تلك المجتمعات ومع انها صيحات لن تجدي تلك المجتمعات فتيلا فقد استشرى فيها المرض واستعصى على العلاج فلعلها تنبه الأمّة التي تتحفز للسير في نفس الطريق الشائك المملوء بالمهالك والمزالق والاخطار.

قلنا في بداية الحديث ان النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يحج في العام التاسع من الهجرة لانه كره ان يخالط المشركين وهم يحجون إلى مكة او يراهم وهم يطوفون بالكعبة فارسل أبا بكر الصديق أميرا للحج ينذر الناس بألا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وارسل علي بن ابي طالب يقرأ على الناس سورة براءة.

وقد حج - صلى الله عليه وسلم - في العام الذي بعده حجة الوداع أو حجة البلاغ أو حجة الإسلام.

الحج في الأدب العربي(*)

١- هناك أمور تبدو أمام النظرة العجلى وكانها امور بديهية لا تستدعي بحثا ولا دراسة ولا تفكيرا فإذا وضعت تحت تأثير اي ظرف أمام النظرة الفاحصة والدراسة الدقيقة والبحث العميق كانت المفاجأة المذهلة التي تكشف عن الوهم المسيطر والسراب الخداع.

وأقرب مثال على ذلك هذا الموضوع الذي اقترح علي.

فقد كنت اتصور ان يكون هذا الموضوع من الموضوعات التي شغلت الدارسين والباحثين واستأثرت بعنايتهم واهتمامهم في القديم والحديث.

ولكنني فوجئت بعد ان هممت بالكتابة فيه بأنه موضوع بكر لم ينل ما يستحق من العناية والاهتمام.

٢- كانت دهشتي من أجل ذلك عظيمة فالموضوع جليل وعظيم وممتع وهو جزء مهم من حياة العربي في الجاهلية.

كان تأثيره في الحياة العربية تأثيرا قويا وعميقا.. فالكعبة وما بداخلها من صور واصنام وما يجاورها من مآثر ومشاعر وما يتصل بها من مقدسات وذكريات وما يحيط بها من تقاليد وعادات وما يقوم حولها من أسواق واجتماعات كانت تشكل قدرا لا يستهان به من حياة العرب وكانت تصبغ تلك الحياة بلون خاص وتوجهها وجهة معينة.. وكانت تلهم الشعراء والبلغاء والخطباء والقادة وشيوخ القبيلة

(☆) نشر في جريدة المدينة حيث يظهر ذلك من سياق الموضوع.. انظر ما جاء بآخره.

فيصورونها في قصائد بارعة وفنون من القول ماتعة ولا يجب أنْ نغفل عن الحنفاء ومواقفهم وعظاتهم وهي لون من الأدب الرفيع.

٣- ولما جاء الإسلام لم يهمل هذا النوع من العبادة بل لقد ثبته وجعله ركنا من أركان الإسلام بعد أن طهره مما أُلحق به من شوائب ونقائص وخلصه مما أضيف إليه من أضاليل وأباطيل.

فأصبح مظهرا عمليا لعبادة شغلت المسلمين منذ فرضها الله على المسلمين حتى يومنا هذا وستشغلهم حتى يأذن الله بانقراض الأرض مدفوعين بقوة لا تقهر إلى تلبية ذلك النداء الخالد نداء أبي الأنبياء إبراهيم المنطلق من بلد الله الكريم وبيته العتيق يوم أن أسكن إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل إلى جوار بيت الله وبئر زمزم بواد غير ذي زرع في رعاية الله وحراسة ملائكته.

٤- وقد اثار هذا الركن العظيم مشاعر المسلمين وهز وجداناتهم واهاج اشواقهم فكتب علماؤهم وشعراؤهم وكتّابهم وأدباؤهم أدبا ساميا وشعرا رفيعا وفنا راقيا وثقافة واسعة ونشأ من هذا الإنتاج الزاخر على توالي العصور تراث فكري ملأ ما لا يحصى من الكتب والمجلدات برز قسم منه إلى عالم الطباعة، وبقي في بطون المخطوطات قسم آخر غير قليل وضاع كثير من بين ما ضاع من كنوز المؤلفات ونوادر الكتب.

لم يقتصر هذا الإنتاج على الأدب العربي بل تعداه إلى آداب اللغات الإسلامية وليس ذلك فحسب ولكنه تجاوزها إلى الآداب الأجنبية حين أسلم بعض الأوروبيين وأدوا فريضة الحج وكتبوا بلغاتهم فصولا أو كتبا تنقل أفكارهم وتصور مشاعرهم.

بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا ان بعض الكتاب من غير المسلمين من المستشرقين وغيرهم قد عنوا بالحج تصويرا وتاريخا أو مناوأة ونقضا أو كليهما معا.

وهكذا يمتد أثر الحج طولا وعرضا وعمقا فيشمل كل عصور التاريخ العربي حتى بداية الإسلام ويشمل كل عصور الإسلام ويمد نفوذه إلى كثير من الآداب الأجنبية الشرقية والغربية.

٥- كان الحج في الجاهلية يسير على انماط خاصة فكانت له قداسته في نفوس العرب وكانت للشهور الحرم منزلة خاصة فيها تسكن الفتن وتهدأ الثأرات ويأمن الخائفون ويخيم السلام وكانت فترة الهدوء هذه تتيح للناس جوًا من الاطمئنان بعد شهور القلق والاضطراب والفوضى.

وكما هو شأن البشر دائما فإن فريقا من الناس يقطعون هذه الفترة في عبادة وإنابة وإخبات وفي عمل دائب لخدمة النفس والغير كما أن فريقا آخر كان يجد في فترة الحج مجالا للبهجة والاستمتاع وتلبية حاجات النفس وغرائز الجسد.

وهناك فريق ثالث كان يتخذ من فترة السلام هذه فرص استعداد وإعداد يتعرف فيها على خصومه وأخبارهم وإمكاناتهم ليتمكن بعد ذلك من الوثوب عليهم وأخذ ثأره وهزيمة أعدائه وبالإضافة إلى ذلك فقد تسربت بدع إلى الحج كالتعري للرجال والنساء عند الطواف بالبيت وكالنسيء وهو جعل بعض الشهور الحرم شهور حل.

السنا الناسئين على معد　　　شهور الحل نجعلها حراما

وقد حفل الأدب الجاهلي بنصوص تعتبر غاية في روعة البيان تصور كل ما كان يدور في مجتمع الحج في الجاهلية وما كان يختلج في نفوس أبناء ذلك العصر من الخطباء واصحاب الرأي وصاغة القريض.

٦- ثم جاء الإسلام وأصبح الحج ركنا من أركانه واجب الأداء على المسلم القادر وتحدث القرآن عن هذه الفريضة المقدسة ﴿**الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب * ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾.

وبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - ابا بكر الصديق رضي الله عنه اميرا على الحج وتبعه بابن عمه علي بن ابي طالب كرم الله وجهه يقرأ على الناس سورة براءة ويحذر المشركين من الطواف بالبيت كما يمنع طواف العراة ويضع الأسس للحج كما ينبغي ان يكون في ظل الإسلام.

وحج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في العام التالي والقى خطبته العظيمة في حجة الوداع وكانت تلك الخطبة بداية باهرة لثروات أدبية عبَّر بها المسلمون عن أجمل مشاعرهم عن الحب والاعزاز تجاه الإسلام وتجاه البلد الذي تلقى وحي الله المقدس ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾.

وتجاه المدينة الحبيبة التي وصفها القرآن بانها الدار والإيمان ووصف اهلها بأنهم ﴿**يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾.

وأصبح كل ما يذكرهم بالمدينتين المقدستين من المنازل والمعالم والجماوات والأحياء يستثير اشواقهم ويرتفع بعواطفهم إلى عوالم من الجمال والسمو فتصفو أرواحهم وترف مشاعرهم ويسكبون انفعالاتهم في قوالب من البيان السامي والشعر الرفيع.

وصدق وحي الله العظيم ﴿**وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**﴾.

وعندما يحين موعد الحج يتسرب إلى القلوب حنين قدسي فيندفع الناس من كل فج عميق إلى البيت العتيق لا يعوقهم بُعد ولا يمنعهم أين ولا تضعف عزيمتهم مشقة ويتوجهون رجالا وركبانا يقطعون الصحاري والوهاد والأنهار والبحور والأجواء ويتعرضون لأخطار تقل أو تكثر قد يخرجون منها سالمين وقد يخرجون منها وقد فقدوا مالا أو متاعا وقد تكون التضحيات أكثر قد تصل إلى فقدان الأرواح ولكن كل

ذلك لا يمنع الناجين من مواصلة السير ولا يمنع غيرهم من التوجه إلى الحج في أعوام قادمة، ويخرج إلى الحج أنماط مختلفة المشارب والثقافات فيهم العلماء والمثقفون والكبراء والعامة ويسجل كل في مذكراته أو ذاكرته ما رأى من بديع الصور وغريب الحوادث، ويخرج المثقفون ما كتبوا للناس وينتفع بتلك الكتابات طلاب العلم والباحثون عن المعرفة.

وينتج من كل ذلك نتاج فكري ضخم يدور حول الرحلة إلى الديار المقدسة وينشأ عن التقاء العلماء بالعلماء والمثقفين بأندادهم والشعراء بأمثالهم، ألوان من الحوار والمعارف تترك أبلغ الأثر في حياة المسلمين الفكرية والعلمية.

كما يشغل بعض الباحثين وهم في طريقهم إلى الحج بالتعرف على النواحي الجغرافية وطرق القوافل ومنازل الحجيج في ذهابهم وايابهم.

كما يعنى باحثون آخرون بتسجيل كل ما يرونه من أناس وبلاد وطرق وعادات ولغات منذ أن يغادروا مواطنهم إلى أن يعودوا إليها.. ويطلقون على هذا النوع من الكتابة أدب الرحلات.. وهناك رحلات كثيرة أشتهر منها رحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير ورحلة النابلسى والرحلة الحجازية ينقلون فيها كثيرا من المحاورات والمناظرات والأشعار وبذلك تصبح وثائق تاريخية وجغرافية إلى جانب انها مصدر من مصادر الأدب.

٧- هناك من الأدباء والشعراء من يظل مشدودا إلى الاراضي التي شرفها الله بأن تكون مهبط الوحي، مشدوها بالصور التي كونها في مخيلته عن طريق السمع والقراءة، مجذوبا بخيوط غير منضودة إلى البقاع المباركة التي شهدت مولد النور وسمعت تسبيح الملائكة وتهليل الرسول، مع أن كثيرا من هؤلاء الأدباء والشعراء أغمضوا أجفانهم للمرة الأخيرة دون أن تكتحل برؤية «المرائي» التي سبقتهم دون أن يروها.. و«المشاهد» التي ارتهم من غير أن يشهدوها.

٨- وقد استغل الشعراء بعض ما يتصل بالحج كالكعبة والحطيم والحجر الاسود ومقام ابراهيم في اشعارهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وخاصة في مجال الغزل والمدح، بل ان بعض الشعراء قد وجد في الحج مجالا للشعر الغزلي والالهام العاطفي، وأصدق صورة لذلك شعر عمر بن ابي ربيعة الذي قال المؤرخون أنه ولد في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب، فقال: الناس أي خير رفع وأي شر وضع، وديوانه حافل بالأشعار التي قالها في مواسم الحج.

٩- وفي مواجهة هذه الصورة العابثة من صور الحج نجد صورة أخرى بالرغم من جموحها تختلف عن الصور التي قدمناها وهي صورة الحج عند الصوفية.

ومع إن ابن أبي ربيعة وعقبة وقد شطوا عما يجب لهذا الركن من الجلالة والتقديس ﴿**الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**﴾.

فإن الصوفية قد شطحوا كذلك كعادتهم وفسروا المناسك والمشاعر تفسيرات رمزية فالإحرام عندهم مثلا «إشارة إلى ترك الشهود والمخلوقات» وترك المخيط إشارة إلى التجرد من الصفات المذمومة وترك حلق الرأس «إشارة إلى ترك الرياسة البشرية» وزمزم «إشارة إلى علوم الحقائق» والشرب فيها «إشارة إلى التضلع من ذلك» وهكذا لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من أركان الحج وواجباته وسننه ومستحباته إلا رمزوا بها إلى هذه المعاني.

وقد عني الصوفية بالحج ومشاعره ومكة وما يحيطها من منازل وأحياء وعنوا بذلك عناية فائقة.

يقول عمر بن الفارض:

واقْرِ السَّلامَ عُرَيْبَ ذَيَّاكَ اللِّوَى ... مِنْ مُغْرمٍ، دَنِفٍ كَئيبٍ نَاءِ

صَبٍّ، متى قَفَلَ الحَجيجُ تصاعدتْ ... زَفَراتُهُ بِتَنَفسِ الصعداءِ

كَلَمَ السُّهَادُ جُفونَهُ فتبادَرَتْ ... عَبَرَاتُهُ مَمْزوجةً بِدِماءِ

يا ساكني البَطحاء هل من عَودةٍ أحيا بها، يا ساكني البطحاء
أن ينقضي صَبري فليس بمُنقضٍ وجدي القَديمُ بكم ولا برحائي
ولئن جفا الوَسمُّى ما حِل تُربِكم فَمَدامِعي تُربي على الأنواء
واحسرَتي، ضَاعَ الزَّمانُ ولم أفُز منكم، أهَيلَ مودتي بلقاء
ومتى يُؤَمِّل راحةً مَنْ عُمْرُهُ يومانِ، يومُ قِلَّى ويوْمُ تناءِ
فلِنازِلي سَرح المربَّع فالشَّبيـ كة فاثَّنيّةِ مِن شِعَاب كداء
ولحاضري البيتِ الحرامِ، وعامري تِلْكَ الخيامِ، وزائري الحثماءِ
ولِفِتْيةِ الحَرَم المربعِ وجيرة الـ حي المنيع، تَلَفُّتِي وعَنَائي
فَهُمُ هُمْ، صَدُّوا وصَلوا جفَوا غَدروا وفَوا هَجروا رثوا لضنائي

ومع أن الشاعر يذكر مكة واحياءها فإن الشراح يفسرون ذلك تفسيرات بعيدة عن المعاني الظاهرة الغريبة.

وليس من مرادنا ان نتعرض هنا لهذه القضية وما يتصل بها ولكننا احببنا ان نشير إلى ان كتب الشروح هي جزء لا يستغنى عنه عند الحديث عن الحج في الأدب العربي.

١٠- وقد ابتدع المماليك ما عرف بين الناس بالمحمل وهو صندوق مستطيل توضع فيه كسوة الكعبة وبعض الستائر الأخرى لنقلها إلى الحرمين من مصر والشام مع بعض المبالغ النقدية الناتجة عن اوقاف الحرمين.

وبمرور الزمن أخذ المحمل وضعًا خاصًا وأصبح الاحتفال به مرتبطًا بالحج في اذهان الناس كما اصبح توديع الحجاج حين اعتزامهم اداء هذه الفريضة واستقبالهم بعد العودة تهز مشاعر الناس وخاصة الشعراء منهم فيبتدعون الوانا من الشعر وفنونا من القريض.

١١- وكان للحروب التي نشبت في بعض المواسم والفتن التي ثارت في مواطن الحج أو في الطريق إليه دور في اذكاء قرائح الخطباء والشعراء وحفلت مصادر الأدب بنماذج

قوية تصور وجهات النظر المختلفة تدافع عنها وتهاجم خصومها وتحيي ابطالها وتبرر أعمالهم وتتوعد مناوئيهم وتنتصر لدعواتهم.

١٢- وقد ساعدت المواصلات الحديثة وانتشار الامن وتوفر الخدمات والمرافق على تشجيع كثير من المثقفين ورجال الفكر في العصر الحديث على اداء هذه الفريضة فكتبوا العديد من الكتب والفصول والمقالات نذكر منهم على سبيل المثال «في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل و«الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» لشكيب ارسلان و«في الحجاز» لإبراهيم عبدالقادر المازني و«الطريق إلى مكة» لمحمد أسد عدا عشرات من الكتب ومئات من الفصول والقصائد تشكل جميعها ثروة ضخمة في الأدب العربي عن الحج وهي وحدها تتطلب سنوات من الجهد الدائب والعمل المستمر والدرس الطويل.

١٣- وبعد.. فأنا أعرف سلفا أنني لم أكتب عن «الحج في الأدب العربي» فذلك كما قلت يتطلب سنوات من التفكير كما يتطلب إمكانيات مادية كبيرة للباحث والسفر وكثرة التنقل للاتصال بمكتبات العالم بحثا عن النصوص المخطوطة واستخراجها من مظانها ودراستها ومقارنتها ومقابلتها بعضها مع بعض واستخراج خصائصها والتعرف على مزاياها وبطبيعة الحال لا يدخل في هذا البحث الأدب العامي أو الشعبي ففي رأينا انه لا يدخل تحت راية الأدب العربي إلا الفصيح الذي كتب باللغة العربية السليمة.

١٤- وأخيرا فإنني لأرجو أن يكون ما فهمته من عنوان الموضوع وكما عبرت عنه يتفق مع الواقع أو على الأقل يتفق مع رأي جريدة المدينة التي اقترحت علي - مشكورة - هذا العنوان، فإن كان الأمر فذلك ما كنا نبغي وإن كان غير ذلك فحسبي أنني وضعت الخطوط العريضة لهذا الموضوع العظيم كما أتصوره ولعل الله يفسح في الأجل كما أفسح في الأمل ويهيء من الأمور المادية ما يعين على إخراج هذا البحث في الصورة التي أريد أنه القادر على كل شيء فهو نعم المولى ونعم النصير.

كلمات عن العيد

العيد في اللغة:

العيد.. ما اعتاد الإنسان من فرح أو شوق أو همٍّ أو سرور أو مرض أو حزن.

والعيد أيضًا الموسم وكل يوم فيه جمع أو تذكار لذي فضل.. وسمي مثل ذلك عيدا لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد والعيد في رأي بعض علماء اللغة مشتق من عاد يعود كأنهم عادوا إليه، ويذهب بعض هؤلاء العلماء إلى أنه مشتق من العادة لأنهم اعتادوه. والجمع أعياد، ويختلف العلماء كذلك في تصغير عيد فيذهب بعضهم إلى تصغيرها على عُييد ويذهب بعضهم إلى تصغيرها على عويد. والعيد.. شجر جبلي ينبت في بعض الجبال.

هكذا أوردته كتب اللغة وكنا نود لو ان هذه الكتب عنيت بوصف هذا الشجر وصفاً دقيقاً يشمل شكله ولونه وثمرته ان كان له ثمر وطريقة زرعه، فلعلنا نستطيع عن طريق هذا الوصف ان نربط بينه وبين هذه التسمية.

والعيد.. يطلق على أحد فحول الإبل وإليه تنسب النجائب العيدية، نوق من كرام النجائب. وعيَّد المسلمون.. شهدوا عيدهم.

والعيدانه.. النخلة الطويلة ويقال عيدنت النخلة إذا صارت عيدانة.

وكلمة العيد يعود إلى مادة «عاد يعود عودا» وهي مادة غنية حافلة من مواد اللغة العربية ولن يتسع الوقت لاستخلاص كل ما ورد فيها من المعاني والمدلولات، فحسبنا أن نضيف إلى ما سبق ما ورد في كلمة «المعيد».

فللمعيد في اصطلاحنا الحديث معنى خاص يعرفه الجميع.. فما معناه في كتب اللغة؟.

تقرر كتب اللغة ان من صفات الله تبارك وتعالى انه المبدئ المعيد فهو الذي يبدأ الخلق احياء ثم يميتهم ثم يعيدهم احياء كما كانوا قال الله عز وجل: «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده».

وقال تعالى: ﴿**إنه يبدئ ويعيد**﴾.

فهو سبحانه الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات في الدنيا وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة.

أما بالنسبة للناس فالمعيد من الرجال: هو المطيق والحاذق والعالم للأمور والمجرب للأمور ومن معاني المعيد: الأسد.

فمعناها في كتب اللغة كما رأينا اعظم بكثير من معناها الذي نستعمله الآن، فهل اليق بأن تكون لقبًا للأساتذة الكبار في الجامعة أصحاب الكراسي وليت أولئك الرواد الأوائل في عالم الجامعات لاحظوا ذلك عندما كانوا يبحثون موضوع الالقاب العلمية ويبحثون في اللغة العربية عن ألفاظ تقوم مقام الألفاظ الافرنجية. وليتهم بحثوا «للمعيدين» عن لقب آخر يكون أدل على مهمتهم العلمية من هذا اللقب؟.

العيد في القرآن:

لم ترد كلمة العيد في كتاب الله العظيم إلا مرة واحدة وفي سورة المائدة وكان ذلك في سياق الحديث عما دار من حوار بين عيسى بن مريم رسول الله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وبين الحواريين.

يقول الله تعالى: ﴿**وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون * إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا**

نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾. سورة المائدة الآيات (١١١-١١٥).

فلم ترد كلمة العيد إلا في هذه الآيات الكريمة في آخر سورة المائدة.. والمائدة معجزة إلهية من هذه الخوارق التي يؤيد بها الله المخلصين من عباده.. وقد حفلت كتب التفسير بتفصيل أخبار هذه المعجزة التي تبهر العقول.

وفي سياق هذه القصة العجيبة ترد كلمة العيد فيطلب الحواريون من المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ان ينزل عليهم مائدة من السماء ويقولون له هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟.. ويدعو نبي الله ربه خالق الكون ومبدع الوجود أن يستجيب لهذا الطلب الغريب: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين».

ويستجيب لدعاء نبيه وينزل عليهم مائدة تظل حديث الأجيال.

ومع ان المجال لا يتسع للحديث الطويل عن هذه المائدة السماوية، فإن الأحداث التي نعيشها في فلسطين تدفعنا إلى ان نذكر شيئا من أخلاق اليهود وقد أنزل الله عليهم مائدة عليها طعام لا ينفد مهما كثر الآكلون وأخبرهم نبي الله بأنها مقيمة بينهم ما لم يخبئوا أو يخونوا أو يدخروا ولكن طباعهم غلبتهم وخانوا أو خبأوا وادخروا فمسخهم الله قردة وخنازير.

العيد في الحديث:

ورد العيد في كثير من الاحاديث النبوية الشريفة فقد وجدت ما يقرب من خمسين حديثا نبويا ورد في بعضها ذكر العيد صراحة كما ورد في بعضها الآخر ذكر العيدين.

والمراد بالعيدين كما هو معروف عيد الفطر وعيد الاضحى وقد اصطلح الناس على تسمية الأول بعيد رمضان وتسمية الثاني عيد الحج كما أن هناك تسمية أخرى تطلق على العيدين فيسمى عيد الفطر العيد الصغير ويسمى عيد الاضحى العيد الكبير.

وقد حدد الإسلام الاحتفال بعيدين فقط هما عيد الفطر وعيد الأضحى وألغى كل الأعياد التي كانت تحتفل بها العرب في الجاهلية. وهذان العيدان يأتيان في كل عام مرة. وهنا عيد ثالث يأتي كل اسبوع مرة ونعني به يوم الجمعة.

ولم يرد ليوم الجمعة ذكر في القرآن إلا مرة واحدة في سورة الجمعة ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم**﴾.

أما في السُنَّة النبوية فقد وردت ما يقرب من مائة مرة. وجاء في بعض الاحاديث الشريفة وصفها بانها «عيد».

وقد احتفل الإسلام احتفالا كبيرا بهذه الاعياد الثلاثة ووردت كثير من الاحاديث التي تحث حثا شديدا على شهودها والتهيؤ لها وذكرت ما يناله من يشهدها من عظيم الاجر وكريم الثواب.

العيد في الأدب العربي:

حفلت كتب التاريخ الإسلامي بالحديث عن الاعياد في كل بلد إسلامي وذكرت بكثير من الإسهاب ما عنيت به كل دولة من دول الإسلام من أعياد، وما يصاحب هذه الاعياد من مظاهر واحتفالات.

كما ذكرت بغير قليل من التفصيل اعياد الملل الاخرى كاليهودية والنصرانية والمجوسية والبوذية وغيرها.

أما كتب الأدب ولا سيما الدواوين الشعرية فلم تحفل بالأعياد ولا سيما الإسلامية منها وقلّ ان تجد لها فيها ذكرا.

وقد رجعت وانا اكتب هذا المقال إلى عشرين ديوانا من الشعر ما بين قديم وحديث وبعض هذه الدواوين لشعراء معاصرين فلم أجد أي اشارة إلى العيد مع ان العيد بما فيه من مظاهر وما يحويه من معانٍ وما يصحبه من مشاعر وذكريات مجال واسع للتعبير الشعري الجميل.

وهذه ظاهرة عجيبة تسترعي الانتباه والتحليل والتعليق.

ولعل عيد النيروز هو أكثر الأعياد حظا من احتفال الشعراء فقد كان يثير اهتمامهم في القديم ولعله لا يزال يثير اهتمام شعراء الفرس المحدثين أما الشعراء العرب المحدثين فلا نجد لذلك أثرا في شعرهم على الإطلاق.

العيد في الحياة العامة:

مما لا شك فيه ان الاعياد الإسلامية تترك أعمق الأثر في نفوس المسلمين فتجدد نشاطهم وتهذب نفوسهم وتتيح لهم فرصًا يرتفعون فيها على شهواتهم ونوازعهم فيذكر الجار جاره والصديق صديقه والإنسان أخاه الإنسان فيتصافح الكل ويعيشون فترة من الوقت في صفاء ووفاء وحب وقد ارتبط الفرد المسلم بدينه وتراثه وامجاده ارتباطا روحيا ولكنه ارتبط بكل ذلك ارتباطا ماديا - إذا جاز هذا التعبير - ونذكر على سبيل المثال إن الأسرة المسلمة تسمي طفلها أو مولودها باسم الشهر او اليوم الذي ولد فيه.

وقد سمت الاسر المسلمة كثيرا من الاطفال باسم الشهور التي ولدوا فيها فسمت باسم «محرم وصفر وربيع ورجب وشعبان ورمضان» وسموا باسم العيد وقد ظلت اسماء الشهور متصدرة على الذكور من الاطفال اما بالنسبة للبعض فقد سموا الطفل الذكر «عيدا» كما سموا البنت «عيده» وهذه ميزة لشهر العيد.

أما بالنسبة لأيام الأسبوع فقد اقتصرت التسمية على يومين من أيام الاسبوع فقط هما الجمعة والخميس فمن ولد في يوم الجمعة سمي «جمعة» ومن ولد في يوم

الخميس دُعي «خميسا» على أن هذا الارتباط المادي لم يقتصر على الأيام والشهور والأعياد ولكنه ارتبط بأشياء اعتبرت بمرور الزمن وحكم التقاليد من مكملات العيد وان لم تكن من ضروراته كالدقيق - مثلا - فقد تعارف الناس على ضرورة إعداد ألوان من الحلوى المصنوعة من الدقيق والتمر أو الدقيق والسكر قبيل العيد لتؤكل في العيد.

وأصبحت الألوان فرضا لا سبيل إلى التهاون فيه وكل شيء جائز ومحتمل إلا أن يأتي العيد ولا يُستقبل بهذه الالوان من الحلوى.

ولو تتبع باحث القصص والحوادث الناشئة عن هذا الدقيق وصاحبه السكر في بلد من البلاد لأخرج مجلدا أو أكثر.

ولندلك على أهمية ذلك نذكر ان اكثر من واحد من رجالات العلم العلماء سموا بدقيق العيد او بابن دقيق العيد.

وقد حفلت كتب التراجم بترجمة ثلاثة منهم ابرزهم ولا شك الإمام الحافظ الحجة تقي الدين بن دقيق العيد.

وقد سمي بدقيق العيد لأن ثيابه كانت بيضاء بياضا نقيا صافيا يشبه دقيق العيد.

هذا ما يذكره المؤرخون وان كنت اتصور غير ذلك فأنا اتصور انه ولد أو ولد أبوه والأسرة منشغلة تمامًا بهذا الدقيق الذي تنصرف له كل الأسر في فترة ما قبل العيد ولعل ولادته في هذا الظرف أثارت شيئا من الاستنكار الخفيف الذي اختلط بكثير من الغبطة والسرور.

فالأسرة منصرفة تمامًا إلى هذا الدقيق تلتُّه وتعجنه وتتفنن في صنعه وهي لا تريد ان يشغلها شاغل عنه.

ولكن هذا الضيف الصغير يأبى إلا ان يفد على الاسرة في هذا الظرف الضيق ولا أريد أن اقول العصيب.

ويقترح أحد أفراد الأسرة كتعبير عن هذا التضايق الممزوج بالرضا والحبور ان يسمى بابن دقيق العيد.

وهي تسمية فيها من الفرحة والابتهاج بالمولود وبالعيد أضعاف ما فيها من التضايق وهي تذكير مستمر بهذا الحادث العجيب.

ويكمل القدر هذه الصورة العجيبة فيجعل منه أو من ابنه عَلَما من أعلام الإسلام وحجة في الدين ولئن صح هذا او ذاك فهو خير دليل على أهمية هذا الدقيق وعلى مدى اهتمام الناس به.

ومن المعروف أن الدقيق الأبيض الناعم هو أصلح أنواع الدقيق لصنع الكعك وما يشبهه من قريب أو بعيد.

ولعلنا افلحنا في الحصول لقرائنا على دقيق أبيض ناعم صنعنا لهم منه نوعا من الحلوى اللذيذة في هذا المقال.

العيد وفلسفته عند الطنطاوي - الفقي - البشبيشي(*)

من مكاسب عيد الفطر الذي ودعناه منذ أيام هذه الاعداد الممتازة التي اصدرتها صحفنا بمناسبة حلول العيد.

فقد حفلت صحفنا بطائفة من المقالات وان كنت لاحظت ان الكثرة الكاثرة من هذه المقالات من النوع الخفيف الذي لا يتطلب اضراسا قاصمة ولا معدا هاضمة ولا فسحة من الوقت، ويبدو ان هناك اتفاقا أو شبه اتفاق بين الكتبة الكرام وبين المشرفين على الصحف على أن تكون المقالات من هذا النوع.

إذ إن خروج القراء من الصيام وانشغالهم بالعيد سيحول بينهم وبين الغذاء الحافل والطعام الدسم ومن الخير ان يكون الغذاء قليل المؤنيه سهل البلع خفيف الهضم.

هذا ما لاحظته على الصحف التي وقعت في يدي. أقول ذلك لأن صحيفة من هذه الصحف لم تصلني ولم استطع الحصول عليها حتى ساعة كتابة هذه السطور.

أعني بذلك جريدة المدينة فلم يصل العدد الخاص بإدارة التعليم ولم اتمكن من العثور عليه عند متعهد البيع ولا عند اي صديق من الاصدقاء.

ويبدو أن الجرائد او بعضها لا ترى للمشترك الحق في الحصول على اعدادها الممتازة لأن العدد الممتاز الذي اصدرته جريدة البلاد بمناسبة العيد لم يصل أيضا ولولا الأستاذ الكبير الدكتور فوزي البشبيشي لما استطعت الاطلاع عليه فقد سعدت بلقياه

(☆) نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الاحد ١٣٨٦/١٢/١٧هـ العدد (٨٩٤).

في فترة العيد ودار الحديث حول شؤون أدبية كثيرة وكان من الطبيعي ان نعرض للحديث عن الاعداد الممتازة التي صدرت بهذه المناسبة السعيدة وقد دهش عندما اعلمته اني لم اطلع على جريدة البلاد ولا على جريدة المدينة وتفضل مشكورا فاحضر لي جريدة البلاد وقدمها لي هدية مقابل مهمة كلفني بها سيعرف القراء حقيقتها بعد قليل.

أما جريدة المدينة فقد اعتذر لي بأنه لم يجدها. ليس هذا فحسب بل ان العدد الذي اصدرته جريدة المدينة خاصا برمضان لم يصلني ولم اعلم عن صدوره إلا في آخر رمضان.

ووعدني الأستاذ الكبير محمد صلاح الدين مدير الجريدة بارساله لي ولم يفعل ولعله نسى وها انا اذكره فلعله يتكرم مشكورا فيرسل الي عدد رمضان مصحوبا بعدد العيد.

ولعل المسؤولين عن الجريدة يتفضلون فيخصصون لي عددا باسمي وانا على اتم استعداد لدفع الاشتراك.

هذا إذا كانت هذه الوسيلة تكفي لوصول الأعداد جميعها بلا استثناء. هذه مقدمة لا بد منها فرضتها الظروف. ولكننا نخلص منها إلى الدخول في موضوع الحديث.

وموضوع الحديث هو القاء نظرة - ولا أقول عقد موازنة - على ما كتب عن فلسفة العيد في العدد الخاص من جريدة البلاد.

فقد كتب ثلاثة من أعلام الأدباء عن فلسفة العيد هم الاساتذة الكبار بحق: علي الطنطاوي وفوزي البشبيشي ومحمد حسن فقي.. والتعرض لما كتب الاعلام الثلاثة فيه كثير من المغامرة والخطورة ولكن - كما قال الحجاج بن يوسف - لا بد مما ليس منه بد.

فليس من الحق في شيء أن تضيع جهود الأعلام الثلاثة وان يمر بها القارئون مرا عابرا والا يحفل بها الأدباء وشداة الأدب.

وليس من الحق في شيء ان نقف مكتوفي الايدي امام هذا الركود الذي يسيطر على الحياة الأدبية وقد وطّنا أنفسنا على مكاره النزال - كما كان يقول الدكتور زكي مبارك - وان كنت افهم النقد على حقيقته ولم احاول ان استغله في إحراج أي كاتب او الإساءة إلى أديب.

فإذا أضفت إلى ذلك أن الأعلام الثلاثة يتمتعون برحابة الصدر وسعة الافق وحسن التقدير كما ان لكل منهم ماضيه الطويل في خدمة الأدب ونشر المعرفة وازدهار الثقافة علمت اننا لا نركب مركبا صعبا ولا نغامر مغامرة مجهولة العواقب.

فإذا عرفت بعد كل ذلك ما يربطني بهم من كريم الروابط ادركت - يا قارئي العزيز - اننا سنقضي رحلة لطيفة في جو هاديء وسفينة مريحة وريح رخاء.

وابدأ باستاذنا على الطنطاوي لأنه أقدم الأساتذة الأعلام في دنيا المعرفة فقد عرفته منذ استطعت أن اتجاوز نطاق الكتاب المدرسي المقرر.

إذ كان من أوائل الكتاب الذين قرأت لهم.. فقد كان لأحد اساتذتنا الافاضل في المدرسة الابتدائية فضل لا ينكر في صقل مواهبنا - انا وزملائي - وفي تربية وجداناتنا وفي توسيع آفاقنا عن طريق القراءة الحرة وبوساطة سماع الشعر وقراءته وحفظه.

وكان من أفضاله أمد الله في حياته النافعة - أنه عرفنا إلى مجلة الرسالة كان يختار منها مقالة او قصيدة يقرأها علينا ويشرح ما غمض من ألفاظها او معانيها ويستمع إلى اسئلتنا ومناقشاتنا بصدر رحب وبعطف ظاهر وبقلب يفيض محبة ويشع اعزازا.

وكان يرد على اسئلتنا ومناقشاتنا بكثير من الشرح والاسهاب ولا يترك موضوعا إلا واشبعه توضيحا واحاط بجميع جوانبه.

واستطاع بذلك ان يخلق بيننا وبين الرسالة رابطة من الود لا تنفصم واستطاع كذلك ان يوجد رابطة روحية بيننا وبين طائفة من كتاب الرسالة كان في طليعتهم الأستاذ

الطنطاوي. وكم من الساعات قضيناها نقرأ مقالاته ونتناقش فيها فنطيل النقاش ونتجادل فنمعن الجدال.

ولعلي كنت اكثر زملائي اهتماما بالأستاذ الطنطاوي وحرصا على جمع آثاره ورغبة في تتبع اخباره.

وقد استطعت أن أكوّن فكرة عن طريق ما ورد في بعض مقالاته ثم عن طريق ما تجمع لدي من اخباره وهو قدر يسير ثم جمعتني الجامعة بزميل عراقي عرفت منه طائفة من اخبار الأستاذ الجليل عندما كان يعمل في العراق.

ويبدو أن الأستاذ الجليل عندما كان من الرواد الاوائل الذين وضعوا فكرة التعاون الثقافي بين أقطار الامة العربية موضع التنفيذ فرحل إلى العراق في أول شبابه وعمل بها مدرسا فترة من الوقت وعانى كثيراً من الصعوبات وله في تلك الفترة عددٌ من المقالات أذكر منها مقالته الرائعة «يوم الفتوة في بغداد» وأذكر منها مقالته العظيمة «من دمشق إلى بغداد» وأذكر منها مقالته التأملية «وقفة على أيوان كسرى». ولا بد أن له مقالات أخرى فأنا أكتب معتمدا على الذاكرة مع أن في مكتبتي عددا من مجلدات الرسالة كما ان فيها اكثر ما طبع الأستاذ الطنطاوي من كتب وقد كنت اعتزم القيام بدراسة لهذه الشخصية العظيمة التي تركت في نفسي وعقلي ووجداني أثرا عميقا ولكني لم أرجع اليها وانا اكتب هذه الدراسة لانني ارجو ان افرغ لدراسة اثار الأستاذ الجليل في وقت قريب.

وقد علمت وأنا في مصر أن العلامة الجليل الأستاذ محي الدين الخطيب هو خال الأستاذ الطنطاوي.

وقد حرصت على ان اسعى إلى التعرف على الأستاذ محي الدين لسببين اولهما اعجابي به وبجهوده في نشر التراث الإسلامي وفي خدمة الثقافة العربية وثانيهما لانه خال الأستاذ الأديب علي الطنطاوي وفعلا زرته في مكتبته العظيمة وتعرفت عليه وترددت عليه مرات.

وكان من أوائل الكتب التي قرأتها في مطلع حياتي كتاب اصدره الأستاذ علي الطنطاوي عن الخليفة الاول «ابي بكر الصديق» وهو كتاب فيه جهد الجمع وليس فيه جهد التأليف.

ولكن الأستاذ الطنطاوي صدّره بمقدمة بليغة تعتبر مفخرة من مفاخر الأدب الإسلامي في العصر الحديث.

وقد استعنت بها استعانة كبيرة عندما اعددت شبه محاضرة عن الإسلام ألقيتها في ندوة اسبوعية كنا نعقدها بالمدرسة الابتدائية عندما كنا تلاميذ بها وقد حضرها ضيوف من مثقفي السودان وأعجبوا بها اعجابا لم يقف عند حد والفضل يعود للأستاذ الطنطاوي دون شك.

والحديث عن كتاب أبي بكر الصديق للأستاذ الطنطاوي يذكرني بكتابه الأخير عن عمر بن الخطاب وهذا الأخير في جزئين بينما الكتاب الأول في جزء واحد.

وقد سار الأستاذ الطنطاوي في كتابه عن عمر نفس سيرته وبين في مقدمة الكتاب الاسباب التي دعته إلى ذلك.

وهذان الكتابان هما كل آثار الأستاذ الطنطاوي في تلك الأيام حسب ما وصل إلى علمي.

وكتابات الأستاذ الطنطاوي تدل على ثقافة واسعة وقدرة على التركيز والاستيعاب كما تدل على منهج واضح محدد - سار عليه الأستاذ الطنطاوي من أول الطريق ولم تزده الأيام والثقافة والتجارب إلا إيمانا بسلامة منهجة وتصميما على السير فيه متخطيا كل الحواجز والمصاعب والعقبات.

وللأستاذ الطنطاوي كثير من الوقفات التأملية فله - وانا اكتب من الذاكرة «وقفة على ايوان كسرى» و «وقفة بالعقيق» و «وقفة بالبقيع» ووقفات كثيرة أخرى لا تحضرني الآن.

وهذه الوقفات التأملية تدل على نزعة فلسفية تميل إلى التحليل والتعليل والرغبة في استكناه الأمور والنفاذ إلى باطن الأسرار.

وإني لأذكر أن للأستاذ الكبير مشروعا يهدف إلى إنشاء كتاب عن «الدين الإسلامي» وكان الأستاذ يحتفل له كل الاحتفال ولا أدري أين وصل هذا الكتاب.

ومشروع الكتاب كما فهمت مما نشر الأستاذ عنه - وأنا هنا اكتب من الذاكرة - حديث عن كل ما يتعلق بالدين الإسلامي.

وأنا أسجل هذا فلعل له علاقة بحديث الأستاذ الجليل عن فلسفة العيد وهو ما سنعرض له.

وانتقل إلى علم اخر هو الشاعر النابه الأستاذ محمد حسن فقي.

ولا أستطيع أن أزعم أن بيني وبينه علاقة قديمة ولعل من الطريف أن يعرف القراء أنني لم ألتق بالأستاذ الكبير إلا مرة واحدة قبل عام أو عامين في مكتب جريدة البلاد بجدة وكنت قد ذهبت اسأل عن صديق ولم اجد الصديق ولكنني وجدت الشاعر الكبير وتفضل رئيس التحرير مشكورا فعرفني بالشاعر الكبير.

ولم تطل الجلسة فقد استأذن الشاعر الكبير لأن لديه بعض الأعمال.

ومن الطريف أن أذكر أن صديقنا الشاعر المبدع الأستاذ محمد فهمي كان قد دعاني قبل عامين او ثلاثة إلى حفلة غداء وقد حرص على الاتصال بالشاعر الكبير ليسعدنا بقضاء بعض الوقت ولكن التليفون لم يسعفه فانطلق إلى بيت الشاعر ولكنه - مع الأسف الشديد لم يجده في بيته.

وفي أواخر رمضان الماضي سافرت إلى جدة في شأن خاص فالتقيت بالصديق الكريم الأستاذ محمد صلاح الدين فتلطف بدعوتي إلى حفلة إفطار والتقينا قبيل المغرب وأثناء سيرنا في الطريق شعرت بأن الصديق الكريم تذكر شيئا كان قد نسيه ثم

قال لي لقد نسيت أن أدعو الأستاذ محمد حسن فقي وهكذا أضاعت علي الظروف لقاءين مع شاعر بلادنا الكبير.

ولعل بعض القارئين يتساءل عن أهمية هذا الكلام ويعتقد أن هـذه الأمور شخصية لا أهمية لذكرها وأحب أن أطمئن القراء الأفاضل إلى أن لهذه اللقاءات أهمية كبيرة بالنسبة لمن يعالج شؤون النقد، لأنها تلقي أضواء كاشفة على شخصية الأديب أو الشاعر.

وقد تلطف مدير الدار السعودية للنشر فأرسل إلى الديوان الأول من دواوين شاعرنا الكبير ورغب في أن أكتب دراسة عنه وقد صادفتني وأنا أكتب هذه الدراسة صعوبات ما كانت تواجهني لو قدر لي أن التقي كثيرا بالأستاذ الشاعر[١].

وإذا كنت لم ألتق بالأستاذ محمد حسن فقي فقد عشت مع شعره فترة طويلة منذ أن بدأ شعره في أوائل سنة ١٣٨٠هـ فقد كنت أقرأ قصائده قراءة يغلب عليها النظرة العابرة.

ثم أتاحت لي الظروف أن أعيش مع ديوانه الأول فأقرأه وأطيل القراءة وأدرسه وأمعن الدرس ولهذا فإنني أشعر أنني على حق حين أقرر أن الروابط التي تربطني بالأستاذ الجليل روابط كريمة مدعومة.

(١) تمت هذه الدراسة ونشرت في كتاب «كتب ومؤلفون» للمؤلف صدر هذا العام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

العيد وفلسفته عند الطنطاوي - الفقي - البشبيشي

الحلقة الثانية(*)

أما الأستاذ الدكتور محمد فوزي البشبيشي فقد لقيته بالإسكندرية وانا بعد طالب في آخر سنة من دراستي وقد عرفني إليه صديق إسكندري في لقاء عابر، ثم مرت سنون وإذا بي اقرأ منذ سنوات قليلة في صحفنا مقالة قوية دسمة رصينة وشعرت وانا اقرأها انني امام قلم بليغ واسهام فكر نير وامام عقلية تضرب في اركان المعرفة.

كنت أقدر أن الكلمة البليغة على وشك أن تؤذن بالغروب، إذ لم يبق من حُماتها ورجالها غير أحمد حسن الزيات.. وقد تعثرت رسالته ووصل هو إلى شيخوخة مؤيسة.. ولديه بعد ذلك من المال والعقار ما يقل من عزمه وما يوهن من جَلَدِهِ.

ذلك ما كنت أقدره إلى أن فوجئت بأديب بليغ الكلمة أنيق العبارة رصين الأسلوب وقد خيل إليّ فترة من الوقت وكنت اقرأ فيها ما يكتب قراءة عابرة انه يتكلف الصياغة ويعاني في سبيل الكلمة المترفة الوانا من الصعوبات.

ثم لما أخذت اقرأ كتابات الأستاذ الكبير قراءة متأنية متمهلة تكشفت لي حقائق باهرة فأسلوب الأستاذ قديم العهد بمصاحبة القلم.

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الأحد الموافق ٢٤ من شهر ذي القعدة ١٣٨٦هـ العدد (٩٠٠).

وكلمات الأستاذ أنيقة ومنتقاة ولكنها مع ذلك قوية متدفقة كأنها قطرات السيل تنحدر من قنن الجبال وهذا يشير إلى تمكن من اللغة نادر المثال.

ومعاني الأستاذ مليئة غنية تكاد تتفجر جمالا وريا وهذا ينبئ باطلاع واسع وثقافة عميقة أما الرقة التي تسيطر على كتابات الأستاذ فهي رقة الإيمان والحب.

الإيمان بعظمة الدين الذي أهدى إلى البشرية محمداً صلوات الله وسلامه عليه.

الحب للأمة التي بدأ بها الإسلام والتي كتبت في تاريخ الحضارة الإنسانية فصولا طوالا لا يقوى على محوها الزمان.

وإنك لتلمس حرارة الصدق في كل كتابات الأستاذ الدكتور وهي حرارة تنبعث من مصدرين الإيمان والحب والدراسة العميقة والفهم الصحيح.

لم تتح لي الظروف أن أعرف تفصيل المراحل العلمية الأولى في حياة الدكتور لأربط بينها وبين هذا الاتجاه العظيم.

وكل ما وصل إلى علمي إذا صح - أن والد الأستاذ الجليل كان شيخا فاضلا من شيوخ الأزهر كان حفيا بالقرآن محتفلا بالذكر مغمورا بقدسية العلم.

كما أن رسالة الدكتور فوزي التي تقدم بها للحصول على الدكتوراه كان موضوعها «بنو تميم ومنزلتهم في الجاهلية والإسلام» والنشأة الأولى تدل على أصالة عراقة وفضل، والاتجاه الأدبي الأول يدل على عروبة أصيلة وتوجيه سليم وعلى ضوء ذلك نستطيع أن ننظر إلى هذه «المنافحات» التي يقوم بها الأستاذ الدكتور مدافعا عن حضارتنا ناشرا لأمجادنا مبينا لخصائص أمتنا مجادلا خصومنا بالبرهان الواضح والحجة البليغة والأدلة التي لا تقهر.

إن هذه «المنافحات» في رأيي ورأي الحق «أصول» عظيمة و «عناصر» أساسية وأن تفريغ هذه الأصول وتجذييء هذه العناصر سيكشف الكثير من ألوان عظمة حضارتنا السامية التي غلفها الأعداء بأغلفة سميكة من تجاهلها والتهاون بشأنها وطمس حقائقها وغشاها الأصدقاء بأغشية من جهلها والاستخفاف بها والتنكر لها.

والدكتور البشبيشي هو خير من يصلح لهذه المهمة الجبارة العظيمة.

وليت المجلس الأعلى لرعاية العلوم والآداب يحتضن هذه الفكرة النبيلة فيتيح للأستاذ الدكتور البشبيشي مجالا للتفرغ لها.

ولو فعل فإنه سيقدم لأمتنا وحضارتنا ثروة فكرية لا تقدر بثمن.

هذه كلمات تمهيدية عن الأساتذة الثلاثة الاعلام نقدمها بين يدي ما سنعرض له من حديث عن فلسفة العيد كما وردت في أقلامهم.

يظهر أن الكتابة عن فلسفة العيد كانت بطلب من الأستاذ الجليل رئيس تحرير البلاد الغراء ويبدو ذلك واضحًا في مقال الأستاذين الكبيرين الأستاذ الطنطاوي.. يقول الأستاذ الطنطاوي: «لما دفع إلي الموزع الكتاب ورأيت على ظرفه اسم جريدة البلاد قرأته من عنوانه وعرفت قبل أن أفتحه إن فيه تكليفا بمقال ولكن ما عرفت ولا قدرت أن يكون المقال في الفلسفة..» ويقول الأستاذ محمد حسن فقي: «لست ادري أإحراج مقصود هو ما كتب به إلي أخي رئيس التحرير عن الكتابة لعدده الممتاز الذي ينوي إصداره بمناسبة عيد الفطر المبارك.. عن فلسفة العيد».

أما الدكتور محمد فوزي فليس في المقال ما يدل على ان المقال قد كتب استجابة للأستاذ الفاضل رئيس التحرير، وأغلب الظن ان المقال كان استجابة لرئيس التحرير ولكن الدكتور فوزي لم يشأ ان يشير إلى ذلك ورأى ان يدخل في الموضوع من غير مقدمات.

والاقتراح لموضوعات الكتابة على الأدباء ليكتبوا فيها عملية شاقة حقا لانها نوع من الامتحان او لانها تذكر بالامتحان.

والامتحان عملية صعبة بغيضة كثيرا ما تترك في نفوس الطلاب اثارا وندوبا وكلوما وعقدا.

وقل إن تتقبل نفوس الكتّاب بروح الرضا هذه المقترحات من الموضوعات وان كان أكثرهم أو جميعهم يستجيبون فيكتبون ولكن الناقد البصير يلمس في كتابات الكثيرين آثارا تدل على مدى ضيقهم لهذا الاقتراح او تبرمهم به حتى ولو لم يصرحوا به.

وأنا أحد الذين يضيقون بالموضوعات المقترحة حتى ولو كانت من الموضوعات الأثيرة عندي وحتى لو كانت من الموضوعات التي سبق لي معالجتها.. وبالمناسبة فإن هذا الموضوع الذي اكتب فيه موضوع مقترح - كما سيرى القراء بعد قليل.

وقلة نادرة من الأدباء تشذ عن هذه القاعدة شذوذا عجيبا وتأبى أن يترك لها الحرية في اختيار موضوعات الكتابة وتصر إصرارا عجيبًا على أن تحدد لها هذه الموضوعات وأول من يخطر بالبال في هذا المجال عباس محمود العقاد فعندما كان يطلب منه مقال او حديث أو محاضرة كان يسأل عن الموضوع فإذا ترك له حرية الاختيار تأبى وامتنع إلا إذا حدد الموضوع فعندئذ يعد بإعداده والكتابة فيه ويوفي بوعده.

ونعود إلى الأساتذة الأجلاء لنرى ماذا كان موقفهم من الموضوع المقترح.

أما الأستاذ الطنطاوي فقد استفاد من الشطر الأول في العنوان المقترح وهو «فلسفة» فأدار حوله حديثا استغرق أكثر من نصف المقال فهو «لم يقدّر أن يُطلب منه مقال في الفلسفة وظن أن الأستاذ رئيس تحرير البلاد قد غلط في اسمه فظنه «هنري برجسون» أو «وليم جمس» أو أن أحد أولاد الحلال «اغتابه» عند رئيس التحرير وقال له: إن الأستاذ فيلسوف عظيم.

وكاد يعتذر لولا أن داخله الغرور فما دام رئيس التحرير قد رآه أهلا للكتابة في الفلسفة فلا بد أنه فيلسوف وتذكر أنه كان قد درس الفلسفة وكانت «تحفة» العلوم كلها قبل ثمان وثلاثين سنة.. وشبه الفلسفة ببريطانيا العظمى، ويبدو أن رأي الأستاذ في الفلسفة رأي سيئ فهو يسخر منها ويعتبر وصفه بأنه فيلسوف عظيم «غيبة» كما يسخر من الأستاذ الزهاوي الذي طول شعررأسه وركب على حمار ابيض «لما عمل فيلسوفا بعد ان كان شيخا له جبة وعمامة» ويمعن في السخرية حين يقول «فتطويل الشعر يوفر أجرة الحلاقين وركوب الحمار يغني عن السيارات ومشاكل السواقين» ولا يكتفي بذلك بل يواصل سخريته إلى الأستاذ الجامعي الكبير الذي كتب بذلك فصلا طويلا في فلسفة عبيد بن الابرص.

ويخلص الأستاد الجليل من ذلك إلى أن يقول «إن لنا معشر المسلمين عيدين عيد الفطر وعيد الأضحى وأنهما عيدان دينيان، في الفطر شكر لله على التوفيق للصيام، والأضحى شكر لله على التوفيق للحج ولكن دين الإسلام يجمع الدنيا والآخرة ويطلب أداء حق الله وحق النفس وحق الأهل وحق الناس لذلك كان في العيد لبس الجديد وبهجة الوجه وحلاوة القول وبسطة اليد والسعة في الإنفاق وان يشمل بالخير القريب والجار فيكون عيدانا ثوابا من الله وألفة بين الناس وتعميما للخير».

ويختتم الأستاذ الجليل كلامه ليؤكد «ولكن هذا الكلام ليس فلسفة العيد» ثم يتساءل في فلسفة العيد «التي يطلب رئيس التحرير أن أكتب فيها».

ويجيب على هذا التساؤل بقوله «هذا قول ان العيد في حقيقته عيد القلب فإن لم تملأ القلوب المسرة ولم يترعها الرضا ولم تعمها الفرحة كان العيد مجرد رقم على «التقويم».

ويتساءل مرة أخرى «إذا كان هذا هو العيد فأين يا اخوتي هو العيد ؟».

ويتحدث الأستاذ الجليل بعد ذلك عن حالة العرب والمسلمين وهم يعيشون في نزاع وتخاصم، واستعاضوا بهدم أنفسهم عن هدم عدوهم.

وينتهي إلى القول «.. فلا تقولوا كل عام وانتم بخير ولكن قولوا لمن تلقونه في هذا العيد ما كل عام وأنتم بشر، فهل تكون هذه فلسفة العيد».

وأحب أن الاحظ أن أستاذنا الجليل قد أعلن ضيقه وتذمره من الموضوع المقترح بطريقة جميلة فيها ألمعية وبراعة، فقد صب نقده الساخر على كلمة فلسفة وأدار حولها الحديث ببراعة فائقة حتى أن القارئ لينساق مع الأديب الكبير فلا يشعر بسأم ولا ملل وقبل أن يرفع رأسه ليسال عن فلسفة العيد يجد نفسه قد انساق مرة أخرى مع الأديب الكبير وتساؤلاته عن العيد وإجاباته التي تقطر ذكاء ومقدرة والمعية.. ولكن هل نعتبر ما ورد في هذا المقال عن الفلسفة يعبر بوضوح عن رأي الأستاذ الجليل عن الفلسفة؟ وهل يعتقد ان الفلسفة عبارة عن هذه التفاهات التي أشار إليها من تطويل لشعر الرأس والذقن أو كليهما معا ومن ركوب حمار أبيض ومن تضييع الوقت في استخراج فلسفة لا سند لها من حجة أو برهان، أو فكر أو منطق سليم كما فعل الأستاذ الجامعي الكبير مع عبيد بن الابرص.

لا أستطيع أن أجزم بشئ فإن عبارات الأستاذ الساخرة كانت كأمواج البحر مع سفينة شراعية، ولكن من الصعب على أي حال أن نستهين بالفلسفة وأن نسخر بها وأن ننظر إلى جهود الفلاسفة والمفكرين من عهد سقراط إلى اليوم، نظرة استخفاف وازدراء وأنا لا أكاد أتصور أن الأستاذ الجليل في علمه الغزير وثقافته الواسعة وخبراته الطويلة يجهل قيمة الفلسفة أو ينكر ما لها من آثار في كل حضارات الدنيا.

ولعل الأستاذ أراد أن يسخر من محاولات بعض «الناس» الذين لم يدرسوا الفلسفة دراسة عميقة ولكنهم انتحلوا اسمها ليسميهم القراء بالفلاسفة وخرجوا علينا بنوع من السفسطة والهراء والسخف سمّوه فلسفة.

أو لعل الأستاذ الجليل - وهو من دعاة الإصلاح - رأى في هذه «الفلسفات» التي زحفت علينا من الغرب بأسماء مختلفة معاول هدم وتحطيم لأمجادنا ومبادئنا ومثلنا وكياننا الإسلامي العظيم وهو من أجل ذلك يحاربها ويحارب من أجلها «الفلسفة» على مبدأ «سد الذرائع».

وسنترك رأيه في فلسفة العيد - بعض الوقت - لنعود إليه بعد استعراض رأي الفارسين الاخيرين.

العيد وفلسفته عند الطنطاوي - الفقي - البشبيشي

الحلقة الثالثة(*)

وقد بدأ الأستاذ محمد حسن فقي بالتساؤل عما إذا كان مقصود رئيس التحرير من تكليفه بالكتابة في فلسفة العيد هو الإحراج أم أنها رمية اخطأت هدفها فلم تصبه.

ومع هذا فإن أستاذنا الفقي لم يتذمر من الحديث عن «الفلسفة» كما فعل الأستاذ الطنطاوي بل ويبدو أن الحديث عن الفلسفة قد راقه وصادف هوى في نفسه بل انه اكد حبه للفلسفة والتفلسف في بداية مقاله حيث يقول «أي الامرين كان فقد تبلغت من رئيس التحرير - وهو من يعرف مكانته عندي - تقبلت منه هذا الإحراج أو هذه الرمية التي اخطأت مرماها.. تقبلتها وأنا أعرف من نفسي ما لا يعرفه سواي.. أعرف إني منذ بدأت اتقبل شؤون هذه الحياة كما يتقبلها مراهق ثم شاب يانع.. أخذت بمبلغ ما استطيع او ما تستطيعه تلك السن المبكرة التي لم تصهرها الأحداث والتجارب.. اتفلسف في حياة الآخرين، بل في الكون المنظور وغير المنظور.. اتفلسف في كل ذلك بطبعي المتشائم الذي بدأ - وهو في تلك السن - يعرف من أحوال البشر ما مكن تشاؤمه في نفسه..».

وقد شطر الأستاذ مقاله شطرين تحدث في شطره الأول عن رأيه في الحياة والناس.

(☆) نشر في جريدة المدينة المنورة يوم الأحد الموافق ١/١٢/١٣٨٦هـ العدد (٩٠٤).

ويظهر أنه شعر بأنه أطال الحديث عن فلسفته هو في الحياة فختم الحديث بقوله «والحديث ذو شجون - كما يقولون - ولقد أشجاني الصديق رئيس التحرير بما طلب فكان هذا الاستطراد أو هذه الشجون».

ومع أن الأستاذ الكبير قد أطال الحديث عن فلسفته الخاصة فالواقع إنني لم أضق ذرعا بحديثه لأنه حديث شهي فيه حكمة وحرارة، وعمق، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كنت أرجو أن أجد في مقاله تفسيرا لهذا التشاؤم الذي يسيطر على شعره أو ذكرا لبعض الأحداث والحوادث مما مر به ودفعه إلى هذا التشاؤم أو ركّزه في نفسه.. أو تسجيلا لصورة من طفولته وفنونه تعين الباحث الدارس على الربط بين حياة الشاعر الكبير الخاصة وبين نظرته التشاؤمية السوداء.

ولكنني لم أجد - مع الأسف - شيئا مما أملته.

ولقد وقفت طويلا عند هذه الظاهرة وأنا أدرس ديوانه الأول إذ تراءي لي وجود تنافس بين «مظهر» الشاعر وبين تعبيراته الشعرية.

ولم تستطع «مقالته الفلسفية» أن تزيل شيئا من هذا التناقض الذي أشير إليه فكل ما أورده الشاعر مما سماه «المنطق الذئبي» أو «الطبيعة المتثعلبة» حقائق واضحة وملموسة ولا يكاد فرد من البشر يجهلها بل لا تخلوا حياة فرد من العائلة البشرية من قصص وحكايات ناشئة عن المنطق الذئبي والطبيعة المتثعلبة ومع ذلك فالكثير من الناس لا ينظرون إلى الحياة بهذا المنظار القاتم الذي ينظر به الشاعر.

فلا بد إذًا من وجود دوافع خاصة في حياة الشاعر التي صبغت المرائي أمام عينيه بهذه الألوان الكئيبة.

وأعترف أنني صادفت وأنا أدرس الديوان بعض إشارات عابرة رأيت فيها بعض معالم قد تلقي بعض أضواء خافتة على حياة الشاعر، ولكنني أغفلت الإشارة إليها لسببين:

أولهما: إنها ليست ذات دلالة قطعية فهي في حاجة إلى مرجحات أخرى لا أملكها.

وثانيهما: إن تناولها بالشرح والتحليل قد يثير ثائرة أناس يعتقدون أن حياة الأديب ملك خاص له كما أن علاقته بالناس أمور يجب أن تظل بعيدة كل البعد عن أن تكون مجالا لدرس أو نقد ناقد.

ونصل إلى الأستاذ الدكتور محمد فوزي البشبيشي لنجد في انتظارنا سيلا عرما والدكتور البشبيشي كالبحر المتدفق يكتب فيطيل ويسترسل.

وللدكتور أسلوبه الذي تحدثنا عنه فيما سبق وهو أسلوب قوي صافي الديباجة، أنيق الكلمة، وأسلوب من هذا النوع يتطلب الإيجاز والاختصار كما كان يفعل الزيات، ولكن الدكتور فوزي يخالف الزيات فهو يجمع بين الكلمة المترفة والأسلوب المسهب، ولكن أسلوبه هذا يرتفع كثيرا عن مستوى القراء. وقد قلت في آخر لقاء بيني وبينه إن القراء يلاقون عنتا في قراءة ما تكتب، فقال لي: وهل تقرأ لي أنت؟ قلت نعم، فقال يكفيني أن تقرأ لي قلة من المثقفين، قلت له: ولكن حبذا لو نزلت قليلا عن هذا المستوى لتستفيد فئات أكثر مما تكتب فقال: أنا لا أستطيع أن أنزل إلى مستواهم ولكن عليهم هم أن يرتفعوا إلى مستواي.

وسكت قليلا ثم قال.. هل تظن إنني أتكلف في كتاباتي؟ وقبل أن ينتظر الجواب قال: إن هذا أسلوبي الطبيعي من غير تكلف. والتفت إلى أحد الإخوان كان يجلس معنا وقال له: أنت تلميذي فهل كان أسلوبي وأنا ألقي محاضراتي يختلف عما أكتب في الصحف؟ وأكد الصديق الكريم أن أسلوب الدكتور فوزي في الحالتين واحد.

ولا اكتم القراء أني كنت اعتقد ان الدكتور يبذل كثيرا من الجهد في تجديد أسلوبه وفي صقله.

ولكنني عندما علمت أنه يكتب بهذا الأسلوب من غير جهد ولااحتفال ازددت إعجابا به.

وإن كان ذلك قد أثار تساؤلا قام في نفسي فأنا أعرف أن الدكتور فوزي من تلاميذ الدكتور طه وأعرف أنه يقدر شخصه ويتقيد بأدبه، وأعرف أن الدكتور طه هو الذي دفع الدكتور فوزي إلى الاهتمام بالقبيلة العربية العظيمة «تميم» فجعلها موضوع رسالة الدكتوراه. وأعرف أن الدكتور طه أملى أحد كتبه على الدكتور فوزي.

والجميع يعرفون أن في أسلوب الدكتور طه سهولة وجمالا وقد كان هذا الأسلوب من أهم الأسباب التي كسبت للدكتور طه شعبية كبيرة جدا بين القراء.

فمن الذي وجه الدكتور فوزي هذا الاتجاه؟ وقد أتيح لي أن أقرأ كثيرا من الآثار التي أنتجها تلاميذ الدكتور طه ومريدوه فلم أجد لأحد منهم أسلوبا في فحولة أسلوب البشبيشي وقوته.

لا بد أن هناك عوامل وراء أسلوب البشبيشي تحتاج إلى دراسة وبيان.

ولست أدرى لماذا لم يطبع الدكتور محمد فوزي البشبيشي رسالته عن «تميم».

إنني أرشح المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والأداب لطبع هذه الرسالة أو على الأقل لتقديم معونة مالية كبيرة تساعده على الطبع.

وقبيلة تميم جديرة بالعناية بها ونشر مفاخرها في الجاهلية والإسلام وهذه فرصة أرجو أن يهيئها المجلس الموقر.

ولولا أن أتهم بالتعصب لأن نسبي يرتبط بها من جهة الأم.. لألححت على جهاتنا العلمية إلحاحا شديدا من أجل نشرها، وإن كنت كبير الأمل في نشرها قريبا.

ونعود إلى فلسفة العيد - والعود أحمد - فما هو رأي أدبائنا الثلاثة في هذه الفلسفة؟.

لنبدأ هذه المرة من الآخر، نبدأ بالأستاذ الكبير محمد فوزي البشبيشي فماذا قال عن فلسفة العيد؟ لقد قرأت مقاله «العظيم» أكثر من مرة وهو مقال عظيم حقا من حيث المساحة التي احتلها من الجريدة وعظيم من حيث الأسلوب وما احتوى من روائع الكلم.

ولقد حلا لي أن أعد كلمات كل مقال من المقالات الثلاثة فظهر أن عدد كلمات مقال الأستاذ الطنطاوي ٨٣٧ كلمة وعدد كلمات الأستاذ الفقي ١٩٣٩ أما عدد كلمات مقال الدكتور البشبيشي فيبلغ ٣٠٩٤ كلمة أي أن مجموع كلمات مقالتي الأستاذين الفقي والطنطاوي أقل من مقال الدكتور البشبيشي بثلاثمائة وثماني عشرة كلمة.

ومن هذا يتضح عظم المجهود الذي بذله أستاذنا الكبير في الكتابة على الأقل لأن الدكتور لا يبذل جهدا في صياغة أسلوبه - كما رأينا قبل قليل - ثم إن الدكتور الفاضل كتب المقال تلبية لاقتراح رئيس تحرير البلاد ومع ذلك فلم يشر إليه لا في بداية المقال ولا في أي جزء من أجزائه، ومن المؤكد أنه كتبه في نفس الفترة التي كتب فيها الأستاذان الجليلان الطنطاوي والفقي مقاليهما.

فإذا انتقلنا إلى المقال نفسه فماذا نجد؟ نجد شيئين عظيمين يمكن أن نعبر عنهما بكلمتين هما «تأملات فلسفية» و «دراسات جادة» فالدكتور البشبيشي وقف طويلا يتأمل ويفكر.

وكان تفكيره عميقا، وتأملاته فلسفية، ويمكننا أن نقسم تأملاته إلى قسمين قسم يدور حول نفسه وأسرته الصغيرة، لا يكاد يتخطاهما، وقسم يدور حول أمّته الإسلامية العظيمة.

ويبدأ مقالته بتأملاته حول نفسه بألفاظ تفيض جمالا وإبداعا وإن كانت تثير ألوانا من الحزن العميق وينتهي من هذه التاملات الحزينة التي تؤثر في النفس أبلغ التأثير، بهذه العبارات، «نعم.. ما يكون العيد لي أحيانا إلا مسيرة بين توقف وتوقف - ومعبرا بين يباب ويباب، ونقلة من خسار لخسار -... ميلادي دمعة وطفولتي عبرة وصبايَ قطرة - وشبابي اجهاش ونواح...».

وينتبه فجأة فيشعر أن هذه التأملات الحزينة والعبارات الشجية التي تقطر ألمًا قد توحي إلى القارئ أن كاتبها من طائفة المتشائمين المتطيرين وأنه كتب ما كتب مدفوعا بهذا المزاج السوداوي الذي لا يرى في الوجود شيئا جميلا.. فيبادر إلى تصحيح هذا الوهم بقوة وحماسة، ويقول «وعلم الله أني لست بالمتشائم المتطير القانط الآيس» ولا يكتفي بذلك إذ تدفعه طبيعته الأدبية ونزعته الفنية وثقافته الواسعة العميقة إلى أن يعرض لنفر من كبار المتشائمين بالأدب العربي فينفي صحبته لهم، وينكر سلوكه فجا من فجاجهم أو سيره بطريق من طرقهم وإن كانت رابطة الأدب تجمعه بهم فيقول «ولست من صحبة وذمام رهين المحبسين أبي العلاء فذاك أنكر حياته وهي غيب وجمدها وهي وجود، وقطعها وهو قاعد، ونهمها وهو لاعن..» ويستمر الدكتور في تصوير حياة ابي العلاء وموقفه منها وصراعه معها فيأتي بالمعجب المطرب.

ومع أنني أخالفه في بعض ما ذهب إليه ولكنني لا أملك إلا أن أعلن إعجابي بما قال.

وينتقل بعد ذلك إلى عَلَم آخر من أعلام التشاؤم بالأدب العربي هو ابن الرومي، فيقول عنه: «ولست - علم الله - من أتراب ابن الرومي فذاك أخو السواد بكافر وظنه الغاشمة والأوهام يتصيدها تصيدا..».

ويصور لكم في سطور قليلة صورا دقيقة لهذا الشاعر المتشائم وينتقل منها إلى الحديث عن أبي العتاهية فيقول: «وعلم الله لست من ليل أبي العتاهية ولا سمره فذاك صاحب أدهان ونفاق ومراءا.. يختلف عليها الزهاد وتكمن في جوفها المطامع، ولعاب الثعالب وريق الضباع».

ولقد كان بودي أن أنقل إلى القراء ما كتب الدكتور البشبيشي عن هؤلاء الأعلام الثلاثة فما كتبه لوحات فنية تمتاز بالأصالة والعمق والدقة والفهم لولا خوفي من الإطالة عليهم، وأرجو أن يعودوا إلى عدد البلاد الممتاز ليستمتعوا بهذه الصور الفنية الرائعة فقد جمع الدكتور في عبارات قليلة صورة واضحة لكل واحد من هؤلاء الأعلام وهذه براعة لا تتاح إلا لأصحاب المواهب النادرة في دنيا الأدب والفنون.

ولعل قارئا أن يسأل: ولكن الحديث عن أبي العلاء وابن الرمي وأبي العتاهية استطراد لا يدخل في صميم الموضوع.. وجوابنا أنه استطراد جميل ومقبول فليس كل استطراد بمعيب وهناك طائفة من الكتّاب تمتاز بهذا الاستطراد الجميل الخفيف الروح هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فتبيان الفروق بالأدلة المحسوسة أثبت في الذهن وأوقع في النفس.. وقد أراد الدكتور فوزي أن يبين أن حزنه وتبرمه ليس مبعثه هذا التشاؤم الذي سيطر على هؤلاء الشعراء الثلاثة، ولكنه حزن مصدره نفس كريمة صافية لا تقوى على احتمال الذنوب فهي تحاسب نفسها حسابًا عسيرا وتجد في العيد فرصة للوقوف والمناقشة والمحادثة و«تصفية الحساب».

وهو يخلص من «تحديده» لتشاؤم أولئك الأعلام الثلاثة إلى القول «ألا وإني لست من هؤلاء وغيرهم فماذا عساي أن أكون، عسى أن أكون من الخطيئة والخطأ من المأثمة الفادحة والذنب الزاهق، عسى أن أكون من الندم السادم والآسف البالغ والحزن الباهظ والأسى الراهن..» وبعد أن «يعترف» بما اقترفته حواسه يقف ليتساءل «وليت شعري أيستطيع الناس في «أعيادهم» أن يتعروا كما تعريت ويقروا كما أقررت ويقدموا صحائفهم كما قدمت» ويستبعد على الناس كما فعل للأسباب التي ذكرها.

العيد وفلسفته عند الطنطاوي

- الفقي - البشبيشي

الحلقة الرابعة(*)

ويذكرني الدكتور البشبيشي انه قد أعتاد في كل عيد انتجاع البحر في هدأة السحر وقضاء فترة طويلة يفكر فيطيل التفكير ويتأمل فيطيل التأمل ثم ينتقل إلى المسجد لقضاء وقت غير قصير في مناجاة العليم الخبير وينتقل بعد ذلك لزيارة قبر ابيه أو بعبارته هو «لألوذ بقبر حبيب أثير.. قبر والدي يرحمه الله» وكعادته يلجأ إلى الأمثلة الحية ليستعين بها على توضيح الفروق وليزيل ما قد يعلق بالأذهان من أوهام تجرها كلمة «ألوذ» فيبادر إلى القول بأن لياذته ليست كلياذة الفرزدق بقبر ابيه غالب وليست كلياذة الندامى واللاهين بقبر «الأعز» ويوضح الفروق بأسلوب يعتبر غاية في الروعة والجمال وأرجو أن يعود إليه القارئ هناك.

ويصل بنا إلى أن يقول «أجل إني في عيدي أهرع إلى قبر أبي وأعجل إليه لا لأربطه بالدمع وأعلوه بمسايل الحزن وإنما لأتخشع في التوبة واستدعي الرحمة ممن يميت ويحيي، ويُضحك ويُبكي ولأمره الأمر واستنزل الغفران من معاصمه في رحاب رَبٍّ وسعت مغفرته كل شئ».

(☆) نشر بجريدة المدينة المنورة يوم الأربعاء الموافق ١٣٨٦/١٢/٥هـ العدد (٩١٠).

وينتهي من ذلك إلى أن يعطينا فكرة عن هذا الوالد الصالح الموحد.. وأستأذن القراء في أن أنقل إليهم هذه الأوصاف البارعة للقرآن العظيم قول الدكتور محمد فوزي «كان - رحمه الله - قواما للقرآن قانتا لتوحيده مخبتا لربوبيته، مشربا بإفْصَاحه وبلاغته يرى في الكلمة الواحدة منه مناهل العربية ومواردها ومنابعها وحيويتها.. وبقائها وأزلها وعصمتها وتعاليمها، ويرى في الآية الواحدة التاريخ الذي لا يختر والوجود الذي لا يفنى، والبقاء الذي لا يتصاغر، والشمس التي لا تأفل، والجد الذي لا يلغو، واللذات التي لا تكدر ولا تحمل، والسلام الآمل والحبل الجامع والإلهام الباعث، والإحياء الناهض، كانت أيامه قرآنا وأعياده فرقانا».

ولا ينسى أطفاله أو «أفراخه» فيتحدث عنهم حديثًا نديا بالحب مضمخًا بالعاطفة معطرا بالأماني.

قلنا فيما سبق أن الدكتور فوزي قسمّ مقاله إلى قسمين تحدث في القسم الأول عن نفسه وأسرته وقد استعرضنا ذلك باقصى ما يمكن من الإيجاز ورأينا حديثه عن نفسه وعلى نفسه وحديثه عن ابيه وأطفاله.

أما القسم الثاني فقد تحدث عن إسلامه وأمّته فتحدث عن أمجادنا الإسلامية وانتصارات ديننا الباهرة، يقول: قد كانت لديني أعياد باركها الرب أو بعثها الملكوت وأضاءت بها البدور ونعمت النجوم وكانت من التاريخ حبته ومن البقاء صحوته ومن الخلود مخايله وعوارضه.

وبعد أن يستعرض هذه الأعياد يختم الحديث عنها بقوله «لقد - لعمري - احتفلت بها السماء مع الأرضٍ واستبشر لها العرش مع المجاهدين وفتحت للإنسانية المسلمة منافذ وأبوابًا، ومهّدت لها طرائق ولواجب في الجنة الفريضة والروضة الوثيرة».

ويصل به الثاني إلى حال المسلمين اليوم «فينوح» ماشاء له النوح ويبكي ماشاء له البكاء فهو يبكي على أمجادنا الغاربات وفتوحنا الآفلات، وعزائمنا التهاديات، ووثباتنا

الهامدات ووقذاتنا الخامدات ووحدتنا المنسية وضمتنا المتزايلة، ورابطتنا المفككة وحزمنا المبعثرة.

إني لأندح لأن جهالة ركبتنا، ووحشية أعنتنا، وخصومة أهلكتنا ماذا أرى في عيدي؟ ارى تنابذا يعصف بالملة ويوهد النحلة، ويجعلنا من الإسلام على غربة.

لا تنادي بمبادئه لأناس بسنته لا احتذاء بمواضي رجالاته وأبطاله، لا احاحة لاسجاحه، وسماحته وشفافيته وإرهافه، ليست فينا حلاوته، وأغداقته مسبقة وريعانه، مفارعته للشدة وتغالبه على المحنة، ألا كيف نومي للفراش وابضاع مسلمة قد أتخنتها الأحداث في كشمير، وأرزأتها الأدواء في القارة السوداء وصرعتها الضلالات في بقاع دانية وبعيدة.. ألا كيف متعتي بالعيد.. ونحن أفلاد منخوبة، وأشلاء منكوبة، وخصومة منكودة.

كيف ومقدرنا في غير أيدينا، وزادنا في غير أفواهنا، وبلاؤنا في غير عزتنا.

هذه هي فلسفة العيد في رأي أستاذنا الكبير فهو يرى العيد «تذكرة وعبرة وتبصرة وتأملا» «وموسمًا من مواسم الاعتراف والعراء والتحرر» يقف عنده الصائمون ليودعوا «جلاد صبرهم وفطم أفواههم وبطونهم وشحهم بالمعصية وسخائهم بالزلفى والاصاخة» وفرحة للصغار فيه «يتهادون منعمين».

فما هي فلسفة العيد في رأي الأستاذين الكبيرين الطنطاوي والفقي؟.

أما الأستاذ الطنطاوي فيرى «أن لنا معشر المسلمين عيدين اثنين عيد الفطر وعيد الأضحى فالفطر شكر لله على التوفيق للصيام والأضحى شكر لله على التوفيق للحج» هذا من الناحية الدينية «ولكن دين الإسلام يجمع الدنيا والآخرة ويطلب أداء حق الله وحق النفس وحق الأهل وحق الناس لذلك كان في العيد لبس الجديد وبهجة الوجه وحلاوة القول وبسطة اليد والسعة في الإنفاق وأن يشمل بالخير القريب والجار.

فيكون عيدانا ثوابا من الله وألفة بين الناس، وتعميما بالخير».

ولا يفوت «الداعية المصلح» الالتفات إلى حاضر المسلمين فيشجيه حالهم ويحزنه وضعهم ويتفق مع الدكتور فوزي على البكاء «دما» لما يرى ويسمع.

أما الأستاذ محمد حسن فقي فيرى أن فلسفة عيد الفطر في «أنه الفرحة بالقدرة على الطاعة والامتثال حينما يكونان دلالة حرية وكرامة وبالقدرة على ضبط النفس وكبح جماحها، والقدرة على ترويضها على الخير والبذل» ويرى أن الإسلام يحقق التقريب بين الطبقات والتخفيف من الفوارق الطبيعية بحكمة واعتدال.. وبعد أن يعقد مقارنة طويلة بين الإسلام والرأسمالية والشيوعية يصل إلى أن الإسلام أفضل النظم الأقتصادية والأجتماعية «ولقد أخذ الناس بتعاليم الإسلام أخذا صحيحا ليتم التقارب بين الطبقات لاذابتها.. فإن هذه الأذابة هي المستحيل عينه».

ويقرر «هي إذًا فرحة بالفطر بعد الصوم، وهي فرحة التقارب بعد التباعد، والتصافي بعد التشاحن، وهي فرحة بالبر بين الغني والفقير على السواء.

وهي فرحة بلبس الجديد أو النظيف إذا لم يتيسر الجديد، وهي قبل كل ذلك وبعده فرحة بالازدلاف من الله والأمن في رحمته ورضاه فهي فرحة ليست ككل فرحة فما كل فرحة لها كمثلها كل هذا القبس من الغبطة تشترك فيها الأرواح والأبدان إذ تبتهج بها الأرض والسماء».

أما بعد.. فهل تراني بحاجة إلى عقد مقارنة بين النتائج التي وصل إليها أدباؤنا الثلاثة الأعلام؟ إنني شخصيا لا أرى ضرورة لذلك بعد هذا التطواف الطويل وبعد أن فحصنا رأي كل واحد منهم في فلسفة العيد وحرصنا أن نستعين بعبارات الأديب نفسه وكان المفروض أن أقف هنا.

ولكن طبيعة الناقد تأبى إلا أن تتدخل في أمور قد يتفاداها من لم يبتلوا بهذه المهمة الثقيلة مهمة النقد.

مهما يكن من أمر فأنني أحب أن أتساءل عن سر توقف الأستاذ علي الطنطاوي عن الكتابة؟ أنا أعرف أنه يكتب للإذاعة وإن كنت قليل الاستماع للراديو بوجه عام ولكنني لا أرى له آثارا مطبوعة.

فهل كان لعمله في القضاء أثر على إنتاجه الأول أم أن ظروفا خاصة بعثت اليأس إلى نفسه أم أنه مشغول بمشروعات أدبية وإسلامية تأخذ عليه كل وقته؟ كم أتمنى على أستاذنا الجليل وهو أديب جهير المكانة، كان من أساطين «الرسالة» أشرف على تحريرها وقضى فترة طويلة من حياته ـ النافعة ـ في عدد من الأقطار العربية وعاصر النهضة الأدبية الحديثة وشارك في عدد من المعارك النقدية.

كم أتمنى عليه أن يكتب لنا مذكراته، فلا شك أن ذاكرته تعي الكثير ومن يدري فلعله الآن عاكف على إعداد هذه المذكرات التي سيكون لها شأن وأي شأن.

وبالنسبة للأستاذ محمد حسن فقي لست أدري لماذا آثر أن يكتب عن فلسفة العيد نثرا وقد كان في إمكانه أن يتحفنا بقصيدة شعرية من قصائده التي كثيرا ما ملأت الأسماع وشغلت الناس.

أما الأستاذ الدكتور محمد فوزي البشبيشي فيبدو لي أنني أطلت الوقوف عند مقاله وقد كنت أهدف إلى أن أقربه للناس فلا شك أن مقالي الأستاذين الفقي والطنطاوي قد قرأهما الناس، ولكن المؤكد أن كثيرا من الناس مروا بمقال الدكتور البشبيشي مرورا عابرا، والعجيب أنني لاحظت أن بعض المثقفين مع ذكائهم ووعيهم وكفايتهم لم يحاولوا قراءة مقال الدكتور، ومقال الدكتور ثروة لا يستهان بها وفيه مجال خصب للناقدين والدارسين.

ولا نحب أن نلقي القلم قبل أن نوجه الشكر للأستاذ الجليل رئيس تحرير جريدة البلاد الغراء الذي أتاح لنا قراءة هذه المقالات الرقيقة والوقوف عندها.

أما صاحب الفضل الأول في كتابة مقالاتي هذه فهو الأستاذ الدكتور محمد فوزي البشبيشي فهو الذي أهداني عدد البلاد الممتاز، وهو الذي لفت نظري إلى المقالات الثلاث.

وهو الذي طلب مني أن أقرأها وأبدي رأيي فيها، على أنني أحب أن أؤكد للقراء أنه لم يكن لهذا الطلب من قبل الدكتور أي تأثير على نظرتي النقدية بل حرصت على أن أكون بعيدا عن أي تأثير إلا تأثير القراءة المباشر.

«قصة وتاريخ»

يقول الله القوي الرحيم الجبار في كتابه العزيز من سورة البقرة مخاطبا اليهود قوم موسى ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون**﴾.

ذكرت هذه الآية القرآنية الكريمة وأنا أقرأ القصة التي وقعت حوادثها قبل ألف عام والتي سأنقلها للقراء بعد قليل.. وفي هذه القصة الواقعية تصوير رائع لنوع من أنواع الصراع العنيف كان يدور بين العرب وغيرهم من الجنسيات المختلفة التي كانت تتكون منها الدولة الإسلامية العظمى، بل لقد حفلت هذه القصة بلون من الصراع الدامي بين القادة المسلمين من العرب والقادة غير المسلمين ممن دفعت بهم أهواء السياسة ونوازع الحكم إلى تسلم المناصب الضخمة في دولة الإسلام رغم أنهم غير مسلمين.

والقصة قبل ذلك أو بعد ذلك تصور قلبا من هذه القلوب المتحجرة التي تفوق الحجارة قوة وصلابة وشدة فلا ترق ولا تلين ولاتعطف ولا تتأثر بما تتأثر به النفس البشرية عادة حين تسمع كلام الله فتخضع لجلاله وعظمته، وحين يذكرها مذكر بالروابط البشرية والوشائج الإنسانية فتتنازل عن سطوتها وكبريائها لتعيش فترة في ظلال المحبة والرحمة، وحين تمر بها نسمة نادية من نسمات النبل والأريحية فتهزها هزًا رفيقا وتسمو بها إلى دنيا الجمال والطهر والخير والملائكة.

وإلى جانب هذه الصور نجد القصة صورة رائعة تموج بالحب والتضحية والحيوية والنضج وتقدير المسؤولية وبلاغة الحجة وحسن السياسة وفهم الدين فهما عميقا وبذل كل ما يمكن بذله في سبيل الحيلولة دون إهدار دم مسلم له في خدمة الدولة أيادٍ بيضاء، وفي تدعيم سلطانها أثر لا ينكر، وفي تمكين مجد الإسلام جهود مقدورة مشكورة.

ونقل القصة عن «كتاب تاريخ البيهقي» وهو كتاب يعد ثروة علمية قيمة لا يستهان بها ألفه أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي في ثلاثين مجلدا لم يبق منها غير مجلد واحد يقع في حوالي الثمانمائة صفحة وقد طبع عدة طبعات لعل آخرها وأدقها الطبعة الرابعة التي ترجمت عنها الطبعة العربية الأولى الصادرة في عام ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م بتحقيق العلامتين الكبيرين يحيى الخشاب الأستاذ بجامعة القاهرة وصادق نشأت الأستاذ بجامعة طهران.

وتظهر قيمة هذا الكتاب في أن مؤلفه كان يؤرخ لفترة عاشها ولمجموعة من الشخصيات عاصرها وكانت تربط بينه وبينها كثير من الصلات بحكم عمله في ديوان الرسائل أكثر من خمسين سنة.

فهو يعطي القارئ صورة قوية واضحة عما كان يدور في البلاط الغزنوي، وربما لا تظفر في التاريخ العربي أو الإسلامي كله بمؤرخ يعطينا عن أحد الأمراء أو الخلفاء أو الملوك صورة تعادل الصورة التي قدمها لنا البيهقي أو تقاربها.

ولم يكتف البيهقي بسرد ما كان يرى أو يسمع بل كان يقف كثيرا موقف المحلل والمعلق والدارس يشرح الظروف ويبين الأسباب ويتحدث عن صفات الذين يتحدث عنهم - الحسن منهم والرديء - بروح ملؤها الإنصاف والعدل والرغبة الصادقة في تحري الحقيقة.

ومما يعطي هذا التاريخ أهمية خاصة أنه تحدث عن الحياة الاجتماعية والمظاهر والعادات والنظم التي كانت شائعة في العصر الغزنوي حديثًا مفصلًا فأعطانا فكرة

واضحة عن الأعياد التي كان سكان هذا العصر يحتفلون بها كما تحدث عن كثير من العادات والتقاليد ولعل من أهمها تلك العادة التي أطلق عليها البيهقي «مزد دندان» ومعناها «مكافأة تعب الأسنان على ما تجشمت من المشقة أثناء الأكل» وهذه المكافأة عبارة عن مال يقدم للضيف بعد الأكل، وهناك عادة أخرى تسمى «هدية الحمَّام» وهي عبارة عن مال كان يقدم للضيف بعد الاستحمام.

وتحدَّث البيهقي في كتابه عن نظام الجاسوسية والسخرة والألقاب وأصناف الخلع التي كانت تمنح لرجال الدولة، والعلاقة بين السلطان الغزنوي والخليفة العباسي، وأعطانا المؤلِّف فكرة كاملة في هذا الجزء من كتابه عن السلطان مسعود بن محمود الغزنوي منذ نشأته حتى وفاته.

وليس من شأننا أن ننقل للقراء الطريقة التي كانت تسير عليها التربية في بلاط الغزنويين فلذلك مقام غير هذا المقام، وإن كان يهمنا أن نشير - وتعليم البنت يشغل الناس في هذه الأيام - إلى ما ذكره البيهقي من أن سيدة فاضلة شاركت في تربية السلطان مسعود وأخيه وتنشئتهما.

يقول الخواجة عبدالغفار في الفصل الذي نقله البيهقي عن كتابه «وكانت لي جدة ذات ورع وتقوى تستطيع القراءة والكتابة وتحفظ القرآن وتحيط علما بالتفاسير والتعبير وأخبار النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى جانب مهارتها في تجهيز لذيذ الأطعمة ورائق الأشربة، وكانت آية في ذلك، فعملت مع جدي في خدمة أولئك الأمراء وكانت جدتي تلك العجوز تتأنق في صنع ما يطلبون من شتى المآكل والحلوى، فتأتي بأحسن ما يكون، وكان الأمراء يجتمعون بها دائما فتقص عليهم السير والأخبار والحكايات المسلية فزاد ذلك من ألفة الأمراء لها».

وقد كان تأثير هذه السيدة كبيراً في السلطان مسعود حتى لقد رأى مرة رؤيا فقصها عليها وطلب تعبيرها فعبرتها له وقد تحققت الرؤيا بعد ذلك وقد صح التفسير - كما يقول الخواجة عبدالغفار.

كما يهمنا أن نشير ـ والنشاط الرياضي في هذه الأيام بين مؤيد ومعارض ـ إلى أن الرياضة كانت جزءا مهما في تربية الأمراء الغزنويين.

يروي البيهقي أن السلطان مسعود مارس الرياضة أيام صباه وصدر شبابه كما شغف بالمصارعة وحمل الأحجار الثقيلة والمبارزة وكان يمارس الصيد في البرد القارس وعلى الثلج متحملا في هذا من المشقة ما لا يحتمله غير الحجر الصلد وكان يقول «ينبغي أن يتعود المرء على مثل هذا حتى لا يعجز إذا ماقابلته صعاب أو ساعاتٌ شداد» وكان يبارز الأسد وحده وقد قتل مرة وهو ولي للعهد ثمانية من الأسود في يوم واحد.

أما أسلوب الكتاب في اللغة الفارسية فيصفه الدكتور يحيى الخشاب بقوله «وهذا الكتاب الذي نقلناه إلى اللغة العربية ـ وهو جزء من سفر كبير ـ شاهد على سعة اطلاعه وعمق ثقافته وتمكنه من اللغتين الفارسية والعربية».

وينقل الدكتور الخشاب رأي الدكتور علي أكبر فياض «هو حجة في أسلوب البيهقي» حيث يقول: أنه بلغ الأوج في الكتابة الفارسية وإن إنشاءه يعتبر أبرع مثال لما كتبه الرعيل الأول من كتّاب اللغة الفارسية فقد كان يتحرى الجمال والبساطة وتمّكن - لاتصاله بطبيعة اللغة الفارسية - من الإتيان بتعابير تلائم جمال الطبيعة وحيويتها وبساطتها وإبداعها وإن كان في كتابه هذا نماذج للإنشاء تعتبر مثلا رائعا في تدوين هذا العلم.

ويذكر الدكتور الخشاب أن المستشرق «كازي ميرسكي» في مقدمته ديوان منوجهري يبدي ثناءه وإعجابه بأسلوب البيهقي ويذكر وهو يتحدث عن النصوص العربية التي ترجمها إلى الفارسية «أن هذه الترجمة قد خلت من عيوب الالتواء في التعبير كما

خلت من التكرار وجاءت صورة صحيحة كاملة للنص العربي الذي كتبت به بأسلوب بارع حقًا.

والبيهقي في كتابه فهو مؤرخ وأديب يعرف كيف يربط بين الأحداث السابقة أو المماثلة ربطا لا تشعر فيه بضيق أو خروج عن الموضوع بل هو ربط محكم فيه براعة وفيه إتقان وقد زين البيهقي كتابه بمجموعة كبيرة من القصص وفّق في اختيارها إلى حد بعيد.

وربما كان يرمي بقصته إلى أهداف أكثر من مجرد التاريخ والبحث كما كان للشعر في كتابه نصيب يستشهد به عربيا وفارسيا كلما رأى ذلك مناسبا.

أما الترجمة العربية فهي جهد واضح مشكور جيدة الطبع مصقولة الورق منظمة الفهارس رائعة الأسلوب وقد قرأتها كاملة ثم عدت إليها وأنا أكتب هذا المقال لمراجعة نقطة من النقط فكنت أنتهي من النقطة التي أبحث عنها وأستمر في القراءة دون أن أشعر.

وقد كتب لها الدكتور الخشاب مقدمة قيمة رائعة تستحق الأشادة والتقدير.

ومن هذا الاستعراض السريع لهذا المجلد الضخم نرى مدى ما لهـــذا التاريخ من أهمية ومدى الخسارة الفادحة الناتجة من ضياع هذه الموسوعة العظيمة التي لا تقدر بثمن.

وها نحن نقدم للقارئ القصة الرائعة التي تحدثنا عنها في أول المقال نقلا عن تاريخ البيهقي وقد آثرنا نقلها بالأسلوب الذي كتبت به سواء كان ذلك هو أسلوب بطل القصة - كما يظهر - أو أسلوب راويها أو أسلوب البيهقي نفسه إذ أن الأخير لم يذكر المصدر الذي أستقاها منه وأسلوب القصة على أي حال يمتاز بالحيوية والبراعة والصدق في تصوير جزئيات القصة وشخصياتها وفي القصة كما سنرى مجال خصب للباحثين من المؤرخين وعلماء النفس، ويبدأ المؤلف القصة بقوله: يقول إسماعيل بن شهاب سمعت أحمد بن أبي داود وكان يلي إلى جانب منصبه كقاضي القضاة

منصب الوزارة فكان أعظم وزراء أيامه وقد خدم ثلاثة من الخلفاء يقول: أذكر أني أستيقظت في منتصف ليلة من نومي أبان خدمتي للمعتصم ولم أجد إلى النوم سبيلا رغم كل محاولة لذلك وأعتراني ضجر وسأم عظيمان لم أعرف لهما سببا فسألت نفسي عما يمكن أن يكون ثم ناديت غلاما يدعى سلام كان يلازمني للخدمة دائما وقلت له مر بأن يسرج الجواد.

تعليق

هكذا انتهى الموضوع في الأصل، وربما يكون للموضوع بقية وأوراقها مفقودة ولم استطع التأكد من ذلك بعد بحث طويل في أصول الموضوعات.

لقاء كل أسبوع

وأمامي الآن كتاب ألَّفه العالم موريس مترلنك عن حياة الأرضة أو النمل الأعمى سماه «مملكة الظلام» والأرضة التي يتحدث عنها مترلنك «دودة بيضاء تبني على نفسها بيتا مستطيلا ولها شفران تنقر بهما الخشب والآجر والحجارة وهي غير السوسة أو العتة التي تلمس الصور والثياب».

وقد سبق للمؤلف أن كتب عن حياة النمل «وقد جعل هذا الكتاب تكملة لحياة النمل أو ذيلا له على ما بين الاثنين من البون النازح في الوصف والبيئة فكأنه جمع بين النهار والليل والسماء والجحيم، ففي حياة النمل - كما يقول - لا ترى إلا ربيعا زاهرا وندى عاطرا وأجنحة ترف ونسيما يهف وأهازيج لا تكف وآفاقا لا تغشى صفاءها كدرة وسعادة ما وراءها سعادة وهنا لا تجد سوى الظلام والبخل والقذارة ولا تستنشق غير هواء السجون والمنفى والقبور على أن وراء هذا الشقاء كله مثلا أعلى من التضحية».

ويؤكد المؤلف أن الحضارة في عالم الأرضة «تعد أرقى من حضارة النمل والنحل» ويقول مترلنك «أنك لا ترى على هذه البسيطة كائنا أقرب إلينا وأبعد عنا في آن واحد من هذه الحشرات التي تتمتع بأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية كأنها عالم إنساني يؤاخينا في آلامنا وشقائنا».

وهنا مجال واسع للشعراء الذين يحلمون شكلا جديدا للاجتماع البشري ويسمو بهم الخيال والتصور إلى خلق مثال خاص للأجيال الآتية في نظامها وأحكامها فما عليهم

إلا أن يقتربوا من هذه الملكة الهائلة فيجدون الغرابة مثل ما في أحلامهم وأغرب مما تتصوره في عطارد والمريخ والزهرة».

«من أجل هذا لم أرَ من العبث الاهتمام حينا بدرس هذه الحشرة العجيبة والكريهة معا التي عرفت أن ترتفع من هوة شقاء هو أشبة شئ بشقاء البشر إلى قمة حضارة لا تختلف من بعض الوجوه عن حضارتنا».

ويحدثنا مترلنك عن الحياة في عالم الأرضة حديثا يذهل اللب، حديثا علميا لا مجال فيه للتهويل أو المبالغة، ولولا ضيق المجال لنقلت للقراء طائفة كبيرة من المعلومات المدهشة عن مساكن هذه الحشرة وعن النظام الهندسي الدقيق الذي تسير عليه وعن نظمها المعيشية والاجتماعية والحربية وعن علاقتها بغيرها من الحشرات ومن حيث الصداقة أو العداوة.

وصدق الله العظيم ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾.

وأرجو أن يكون قارئنا الفاضل قد اقتنع بأن الحشرات وهي ذات حضارة عريقة ونظم مدروسة مثالية بأنها أمّة من الأمم كالبشر.

الفهرس

فهرس الموضوعات

إصدارات نادي المدينة المنورة

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	ذكريات طفل وديع - ط ١	عبدالعزيز الربيع
٢	الشعر الحديث في الحجاز	عبدالرحيم أبو بكر
٣	شعراء من أرض عبقر - جـ ١	د. محمد العيد الخطراوي
٤	شعراء من أرض عبقر - جـ ٢	د. محمد العيد الخطراوي
٥	في ظلال السماء	محمد هاشم رشيد
٦	على دروب الشمس	محمد هاشم رشيد
٧	على ضفاف العقيق	محمد هاشم رشيد
٨	همسات في أذن الليل	د. محمد العيد الخطراوي
٩	غناء الجرح	د. محمد العيد الخطراوي
١٠	ترانيم العودة	ناجي محمد حسن وفوزان الحجيلي
١١	الفيصليات	عبدالحميد ربيع
١٢	رعاية الشباب في الإسلام - ط ١	عبدالعزيز الربيع
١٣	جرح الإباء	أحمد فرح عقيلان
١٤	أضواء على حقائق	محمد المجذوب
١٥	بيت وشاعر	خالد محمد اليوسف
١٦	الحفل المسرحي	إصدار إعلامي عن النادي
١٧	جداول وينابيع	عبدالرحمن رفة
١٨	الجناحان الخالدان	محمد هاشم رشيد
١٩	على أطلال إرَم	محمد هاشم رشيد
٢٠	ثلاثة أعوام مع مسابقة القرآن الكريم	دخيل الله الحيدري - ووهبة الجبالي
٢١	رسالة إلى ليلى	أحمد فرح عقيلان

عدد	اســـم الكتـــــاب	اســـم المؤلف
٢٢	في رحاب الجهاد المقدس	إبراهيم العياشي
٢٣	الشيخ محمد بن عبدالوهاب (بحث)	مسلم الجهني
٢٤	في موكب الضياء	أبو زيد إبراهيم سيد
٢٥	الفنون التعبيرية	عبدالعزيز الربيع
٢٦	أباريق النور	محمد عادل سليمان
٢٧	في غيابة الجُب	علي الفقي
٢٨	المدينة المنورة في التاريخ	عبدالسلام هاشم حافظ
٢٩	ذكريات طفل وديع ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع
٣٠	رعاية الشباب في الإسلام ـ ط ٢	عبدالعزيز الربيع
٣١	حروف في الرماد	محمد صالح البليهشي
٣٢	هموم عربية	أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٣٣	المدينة اليوم	محمد صالح البليهشي
٣٤	لمحات عن حياة الربيع	محمد صالح البليهشي
٣٥	ضفاف الذكريات	مجدي خاشقجي
٣٦	مِبضَع الجراح	إبراهيم العياشي
٣٧	صور وذكريات عن المدينة المنورة	عثمان حافظ
٣٨	قصص لا تنسى	محمد المجذوب
٣٩	تحفة اللبيب	محمد المجذوب
٤٠	مع المجاهدين في باكستان	محمد المجذوب
٤١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ١	عبدالسلام هاشم حافظ
٤٢	مسيرة ٨ أعوام لنادي المدينة المنورة الأدبي	محمد صالح البليهشي
٤٣	طيبة وفنها الرفيع	م. حاتم طه
٤٤	أيسر التفاسير ـ جـ ١	أبو بكر جابر الجزائري
٤٥	أيسر التفاسير ـ جـ ٢	أبو بكر جابر الجزائري
٤٦	أيسر التفاسير ـ جـ ٣	أبو بكر جابر الجزائري
٤٧	أيسر التفاسير ـ جـ ٤	أبو بكر جابر الجزائري
٤٨	الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية	د. عبدالله الحامد

عدد	اســم الكتـــاب	اســم المؤلف
٤٩	شاعر الخليج	عبدالله أحمد الشباط
٥٠	أدب ونقد	محمد المجذوب
٥١	ردود ومناقشات	محمد المجذوب
٥٢	دعوة سليمان ـ عليه السلام	علي منسي عشكان
٥٣	حروف من دفتر الأشواق	د. محمد العيد الخطراوي
٥٤	دموع وكبرياء	حسن مصطفى صيرفي
٥٥	في الفكر والأدب «دراسات وذكريات»	د. حسن بن فهد الهويمل
٥٦	دراسات قرآنية ـ المجلد الأول	نادي المدينة المنورة الأدبي
٥٧	الأخطبوط «قصة»	ناجي محمد حسن عبدالقادر
٥٨	طيبة في عيون فنان تشكيلي	فؤاد مغربل
٥٩	تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا	أحمد ياسين الخياري
٦٠	تفاصيل في خارطة الطقس	د. محمد العيد الخطراوي
٦١	وداعًا أيها الحزن «رواية»	غالب حمزة أبو الفرج
٦٢	نصوص مختارة	محمد المجذوب
٦٣	الأعمال الشعرية الكاملة المجلد الأول	محمد هاشم رشيد
٦٤	الولوج من ثقب إبرة	علي عبدالفتاح السعيد
٦٥	من بدائع الأدب الإسلامي	د. محمد سعد الدبل
٦٦	المنظمة الدولية للشرطة الجنائية، «الإنتربول» ودورها في في مكافحة الجرائم الدولية للمخدرات	النقيب محمد حسن زهير آل شفلوت العمري
٦٧	وقفات على الماء	إبراهيم عمر صعابي
٦٨	شعر ضياء الدين رجب بين الموقف والصياغة	د. عبدالله أحمد باقازي
٦٩	المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ	د. عاصم حمدان علي حمدان
٧٠	التعليم الأهلي في المدينة المنورة (١٣٤٤ ـ ١٤٠٨هـ) دراسة تاريخية وصفية	دخيل الله عبدالله الحيدري
٧١	المجموعة الشعرية الكاملة ـ جـ ٢	عبدالسلام هاشم حافظ
٧٢	آلام وأحلام	محمد المجذوب
٧٣	سلاح الكلمة الشاعرة ـ إسهام النادي الأدبي	إصدار النادي الأدبي بالمدينة المنورة خلال أزمة الخليج

عدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧٤	تراثنا المخطوط في العلوم التطبيقية والبحتة	مصطفى عمار منلا
٧٥	وقفات في حرب الخليج	محمد بن صنيتان
٧٦	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الأول	أحمد سعيد سلم
٧٧	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثاني	أحمد سعيد سلم
٧٨	موسوعة الأدباء السعوديين القسم الثالث	أحمد سعيد سلم
٧٩	ملاعبة الصيد	أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
٨٠	في ذاكرة الصحراء ـ دراسات نقدية في نصوص شعرية سعودية معاصرة	محمد إبراهيم الدبيسي
٨١	ملف العقيق المجلد الأول	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٢	آفاق شعرية «قراءة لما وراء النص»	محمد محمود جاد الله
٨٣	اللمعة في صنعة الشعر	د. صلاح الدين محمد الهادي
٨٤	ملف العقيق المجلد الثاني	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٥	فن الرماية بالسهام الحديثة	د. عدنان درويش جلون
٨٦	ملف العقيق المجلد الثالث	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٨٧	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج ١ «الدراسة الموضوعية والفنية»	د. عبدالرحمن الوصيفي
٨٨	المستدرك في شعر بني عامر ـ من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ١٣٢هـ ج٢ «الجمع والتحقيق»	د. عبدالرحمن الوصيفي
٨٩	نحن والآخر	د. عاصم حمدان
٩٠	المسرح الشعري «بعد شوقي»	د. محمد عبدالعزيز الموافي
٩١	دراسات أدبية «المجلد الرابع»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٢	ملف العقيق ـ المجلد الرابع	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٣	دراسات في الأدب الإسلامي ـ المجلد الخامس	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٤	ملف العقيق ـ المجلد الخامس	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
٩٥	عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ	ناجي محمد حسن عبدالقادر الأنصاري
٩٦	مهد الذهب	عبدالعزيز الحازمي وعلي عودة
٩٧	مسيرة ٢٠ عامًا لنادي المدينة المنورة الأدبي	محمد صالح البليهشي

عدد	اســـم الكتـــــاب	اســـم المؤلف
٩٨	دراسات حول المدينة المنورة	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
٩٩	رائحة الزمن الآتي	إبراهيم الوافي
١٠٠	مدخل إلى تحقيق النص الشعري	د. عبدالرحمن محمد الوصيفي
١٠١	لن أعود إليك	وفاء الطيب
١٠٢	دراسات في الأدب الحديث «المجلد الثالث»	من محاضرات النادي الأدبي بالمدينة
١٠٣	عمر بن شبة	د. سلام شافعي
١٠٤	ملف العقيق المجلد السادس	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة
١٠٥	أثر وسائل الإعلام في اللغة العربية	د. جابر قميحة
١٠٦	ديوان رشة عطر	مفرج السيد
١٠٧	تأويل ما حدث	د. محمد العيد الخطراوي
١٠٨	نزيف الجرح	سعد سعيد الرفاعي
١٠٩	دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي	د. عاصم حمدان علي حمدان
١١٠	ملف العقيق (المجلد ٧)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١١	ملف العقيق (المجلد ٨)	يصدر عن النادي الأدبي بالمدينة المنورة
١١٢	دراسات في الفكر الإسلامي (المجلد السادس)	من محاضرات نادي المدينة المنورة الأدبي
١١٣	عبدالله بن إدريس شاعرًا وناقدًا	د. محمد صادق عفيفي
١١٤	شعر عبدالسلام حافظ	رحمة مهدي علي الريمي
١١٥	كتب ومؤلفون	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي
١١٦	مناقشات ومناوشات	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي
١١٧	المدينة المنورة «البيئة والإنسان» بالاشتراك	إشراف وتحرير أ. د/ محمد أحمد الروثي
	مع نادي جدة الأدبي الثقافي	أ. د/ مصطفى محمد خوجلي
١١٨	ملف العقيق المجلد «٩»	يصدر عن النادي
١١٩	حلم في دوامة الإنهزام	حكيمة الحربي (لميس منصور)
١٢٠	الآطام (العدد الأول)	تصدر عن النادي
١٢١	البنات والأمهات والزوجات في المفضليات وأشياء أخرى	د/ محمد العيد الخطراوي
١٢٢	رسائل في حب الوطن	محمد صالح البليهشي
١٢٣	مقالات وتعليقات	عبدالعزيز الربيع ـ محمد صالح البليهشي

طبع بمؤسسة المدينة للصحافة للطباعة والنشر
(دار العلم) ص.ب: ٨٠٧ جدة ٢١٤٢١ - تليفون: ٦٧١٢١٠٠

الإخراج الفني

خالد حسن محمد